@ketab_n
28.5.2014

# السنفالي

مصطفى موسى

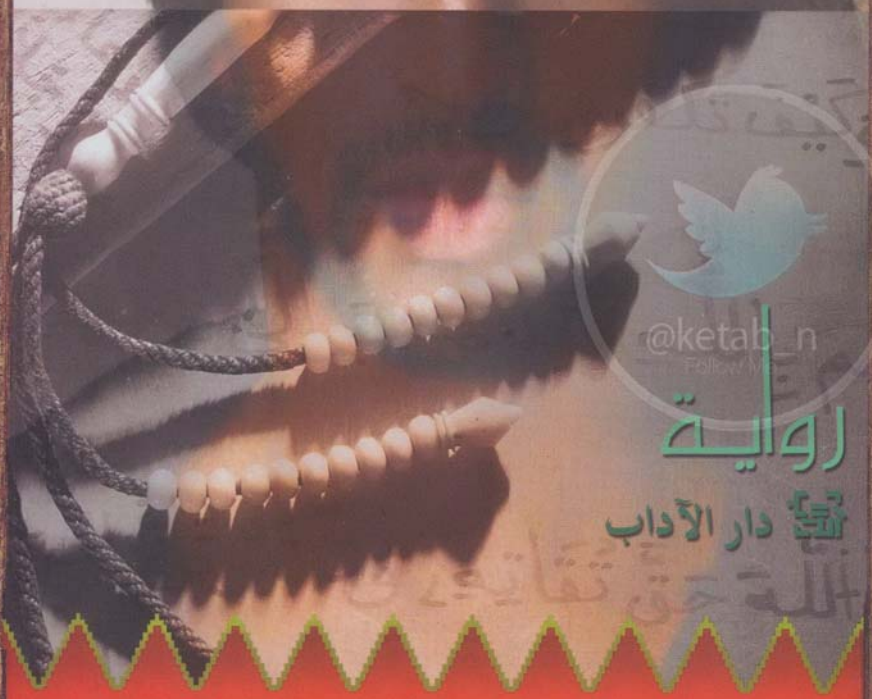

@ketab_n

رواية

دار الآداب

# مصطفى موسى

السنغالي
@ketab_n
Follow Me

رواية

دار الآداب ـ بيروت

Twitter: @ketab_n

السنغالي

Twitter: @ketab_n

السنغالي

مصطفى موسى / كاتب مصري

الطبعة الأولى عام 2014

ISBN 978-9953-89-293-1

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

**جميع الحقوق محفوظة**. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

**دار الآداب للنشر والتوزيع**

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

Twitter: @ketab_n

# إهداء

«من صاحب القلب إلى صاحب القلب»



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الفصل الأوّل

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# بداية الرحلة

يلتفت أحمد الصنهاجي خلفه كلّ فترة، وكأنّما يودّع وطنه. يُشبع عينيه من لون المحيط الأزرق وقمم الأشجار الخضراء التي تبدأ في التقزّم كلّما بَعُد عنها. تتحوّل إلى خطّ أخضر في صفحة صفراء، كأنّها قوس قزح. يغمض عينيه وهو يتأرجح على ناقته، وصوت الدليل يلقي بتعليماته إلى قافلة الحجاز، بعد أن نظر إلى السماء وتشمّم الهواء لبرهة. ستهبّ عاصفة رمليّة قبل الغروب، استعدّوا لها بإخفاء وجوههم بأوشحتهم، اتّقاء لرمال «السموم» القاتلة. يتلثّم الصنهاجي بوشاح أسود، ويخفي وجهه إلّا من عينيه. ينتظم نفسه مع صعوده وهبوطه على سنام الناقة، وما زال ملح هواء المحيط يملأ صدره، يغمض عينيه فتتراءى له صورة الشيخ التيجاني وهو يلقي عليه آخر كلماته:

ـ ابتعد عن البحر... فسيذكّرك دائمًا بما تحاول إخفاءه، وابحث عن حياة جديدة في بلاد بعيدة... امشِ في الأرض الصفراء إلى أن تصل إلى شاطئ نهر لا تستطيع عبوره، في بلاد تحيطها مآذن لبيوت الله. سرْ عكس اتّجاه النهر، فكلّما أوغلت في بلادهم كنت في مأمن



Twitter: @ketab_n

ممّا تخافه، فمطاردوك لن يتركوا آخر من له القدرة على الحكم حيًّا... ارحل يا ولدي، هذا قدرك!

يدسّ في يده المعروقة السمراء سبحة بيضاء من عظام الحوت، تذكّره بأصله الذي يجب أن يقبره خلفه في صحراء وطنه. يفتح عينيه على صوت الدليل مرّة أخرى، وهو يأمر القافلة بإناخة الجمال المجهدة، بعد مسيرة ليلتين متواليتين، في صحراء بلاد المغرب الجنوبيّة. فالرحلة طويلة إلى بلاد الحجاز.

يهبط الصنهاجي عن ناقته. يُخرج بعض التمر، فيقترب منه الدليل بقربة الماء، دون كلمة منهما، سوى نظرات متبادلة، فوصيّة الشيخ يجب أن تُنفّذ. يهبط الليل، ويعمّ سكون الصحراء على القافلة. يلفّهم الظلام إلّا من ضوء مرتعش للهب الحطب المشتعل، يلقي بخيالاته على الوجوه الملثّمة، اتّقاء شرّ السباع وضباع الصحراء وهوامها. يغفو الصنهاجي وظهره مستند إلى ظهر الناقة الباركة على الرمال. تُحرّك فمها بانتظام، وكأنّها تمضغ لسانها. يرى شابًّا كان يملأه الفخر دائمًا، والاعتزاز بأصله لقبيلة الصناهجة، التي أدخلت الإسلام إلى «السنوغال»[1] قديمًا. كثيرًا ما كان يحلم بتوحّد القبائل الأخرى، كي تصبح كيانًا واحدًا. يقف أمام مرتزقة في ثوب مستعمرين ببشرة بيضاء وعيون خضراء، ينسدل الشعر الأصفر على جباههم أسفل قبّعات دائريّة، يُرمى بهم المحيط في قوارب كلّ فترة، لا يعلم من أين يأتون في تلك السفن الضخمة، يحملون عصى طويلة تخرج من فوهتها نيران، وصوت كالرعد يقتل من يسمعه.

صديق طفولته ـ ليوبولد سينجور ـ أو شاعر الغابة، كما كان

(١) السنغال حاليًّا.



Twitter: @ketab_n

يحلو للصنهاجي أن يدعوه، كان دائمًا يحثّه على الهدوء والتعقّل في التعامل مع الغزاة. ربّما تربيته الأرستقراطيّة المسيحيّة هي ما أضفت عليه سلامًا وهدوءًا في كلامه وحركاته. نظْمه للشعر جعله متأمّلاً لما حوله جانحًا للسلم. تعلّمُهُ في المدارس التبشيريّة التي أقامها الغزاة الفرنسيّون قرّبته منهم، جعلته صمّام أمان للمقاومة، وحلقة وصل بينهم وبين المستعمر. يعلم الجميع قدره على الرّغم من صغر سنّه، فله رأي بين شيوخ القبائل قبل عشيرته. كثيرًا ما كان الجدال يحتدم بين الصنهاجي وسينجور الذي يردّد دائمًا:

ـ هذا هو الفرق بيننا.. أنت لا ترى غير الصدام الذي لا طائل منه... كيف لرماح الغابة أن تواجه بنادق البارود!

ـ أنسكت إذًا؟ نتركهم يأخذوننا عبيدًا لهم؟ يضعوننا على مراكب كالحيوانات إلى ما خلف المحيط؟ أنت تريد أن تتعلّم لغتهم، تجلس معهم، وتحاورهم، علّهم يفهمون أنّ هذه بلادنا وهم غزاة لا حقّ لهم فيها، ولكنّهم أبدًا ما سيعاملونك كندٍّ لهم. فهم يرون سوادنا صكّ عبوديّتنا. لن نتّفق يا ليوبولد. سنبقى أصدقاء ولكنّنا لن نتّفق أبدًا.

ـ لذلك يا صنهاجي سأصبح رئيسًا «للسنوغال» في يوم من الأيّام.. وستتذكّر كلامي هذا!

يبتسم الشابّ النحيف وهو مغمض العينين، يتذكّر وطنه الذي غادره مكرهًا، يأبى حزنه أن يفارقه، وصورة محفورة بداخله لغابات كثيفة بطول شاطئ المحيط الأطلسي، تتخلّلها أكواخ من جريد النخل، وجذوع أشجار البامبو تتراصّ في ترتيب منظّم، تنتهي حدودها ببداية ظهير صحراء ممتدّة أسفل بلاد الأطلسي. يتجمّع ألوان الأزرق والأخضر والأصفر في مكان تسكنه قبائل متجانسة، صناهجة..



Twitter: @ketab_n

تكرور.. فلانيّون... تختلف دياناتهم ولكنّهم يتّفقون في انتمائهم لأرض «السنوغال»، التي بدأ الغزاة الفرنسيّون القادمون من الشمال يعرفون طريق سواحلها منذ زمن بعيد. يرسلون جنودهم في مراكب صغيرة إلى الشاطئ، يستكشفون جنانًا لم يروا مثلها من قبل، يأسرون البعض من شباب القبائل، يجنّدونهم في حروبهم كعبيد مرتزقة، يشحنونهم إلى بلادهم الباردة أو جبهات القتال الدائر في جميع أنحاء العالم، لفرض السيطرة على الشعوب الضعيفة، ولكنّ الأرض لا تهون على أصحابها، فترجع القوارب الصغيرة وحمولتها ناقصة في بعض الأحيان. لم يحتمل القائد الفرنسي اختفاء جنوده الواحد تلو الآخر في غابات لا يعرف عنها شيئًا، على الرّغم من قيادته للجيش المرابض في «السنوغال» منذ إعلانها مستعمرة فرنسيّة عام ١٩٠٢. أيقن في النهاية أنّ وأد المقاومة الخفيّة، يتطّلب كسر شوكة أقوى قبيلة تأتمر جميع القبائل بأوامرها... قبيلة الصناهجة. تبدأ حملة من تجّار الرقيق، تستّر وراء حملة للتجنيد في جيش الغزاة، بجمع أكبر عدد من رجال القبائل وشبابها، وبالتحديد من قبيلة الصناهجة، بإيعاز من القائد الفرنسي. يقع أحمد الصنهاجي في أسر تجّار العبيد. تتحطّم مقاومة البعض تحت سياط الكرابيج والكيّ بالنار. وفي قفص ضخم من جذوع أشجار الغابة، على ظهر السفينة المغادرة عند الفجر إلى بلاد بعيدة، كان أحمد الصنهاجي يذرع القفص كأسد نازف، لا يدري ماذا يفعل كي يخرج من خلف قضبان قاسية، كلّما مرّ الوقت عليه تضيق جدرانها على رئتيه، وتحبس عنه الهواء. تتلقّف أذناه همسًا آتيًا من الدرج العلوي، تظهر شعلة مضيئة، يحملها جندي أبيض يعتمر قبّعة دائريّة من معدن أسود، يرافقه آخر ببندقيّة طويلة، يفتح مزلاج القفص، ويسحبه من سلسلة تحيط بطوق حول عنقه، يمشي مرفلاً في قيد رجليه ببطء



Twitter: @ketab_n

وصمت، إلّا من صوت المعدن الحديدي وهو يصعد سطح السفينة الخاوية حتى من حرّاسها، يتجمّد الصنهاجي مكانه عند رؤيته وجه صديقه.. سينجور.

ـ ارحل يا صنهاجي.. فرحيلك مقابل سلام القبيلة!

لمعت دموع وجدت طريقها ببطء على الوجنة السمراء. تخرج حشرجة مكتومة من فم الصنهاجي قائلاً:

ـ لأنْ يموت الناس أحرارًا خيرٌ من أن يعيشوا عبيدًا.

ـ لن أستطيع أن أصل لمساومة معهم أبعد من تلك يا صديقي، فليس مصيرك هو فقط على المحكّ، بل مصيري ومصير عائلاتنا جميعًا... مصير «السنوغال» يا صنهاجي. على الشاطئ ستجد رفيقًا سيدّلك إلى تلال المرابطين، وهناك ينتظرك الشيخ التيجاني. اسمع منه وافعل بعدها ما شئت. وإن أراد الربّ لنا اللقيا مرّة أخرى، فلتكن مشيئته!



Twitter: @ketab_n

# الشيخ التيجاني

صحراء خرساء في تلال المرابطين، يعرف دروبها من يلتمسون فيها الراحة والأمان. يعودون بعدها إلى مقاومة خصمهم مرّة أخرى. يستضيفهم العارف بالله الشيخ التيجاني، ومريدوه الباحثون عن السكينة في مناجاتهم للخالق، زهدوا الدنيا فأغرتهم بإقبالها عليهم، هربوا منها إلى الخلاء، في خيام منصوبة متحلّقة حول خيمة شيخهم، يأتمرون بأوامره، يهذّبون نفوسهم بأوراد محدّدة لا يحيدون عنها أبدًا، يذوبون عشقًا، فتظلّلهم سماءٌ ليست كأيّ سماء... تضيئها نجوم فضّيّة، تزيغ بصر الشابّ الأسمر النحيف، وهو جالس في صمت، انتظارًا للشيخ العجوز. ينتبه إلى رائحة المسك، تهبّ فجأة عند انحسار باب الخيمة عن رجل سبعيني، مكتظّ البدن، قصير القامة، يتّشح بجلباب أبيض، تُخفي قمّة رأسه عمامة خضراء، تحيط وجهه لحية رماديّة كثيفة، لفّ جسده بعباءة سوداء. تعلو وجهه الأبيض ابتسامة هادئة. يجلس قبالة الشابّ الأسمر على فُرش من صوف الغنم. لم يفتح أحمد فمه بكلمة، حتى ينتهي الشيخ من تسبيحته وهو مغمض العينين. يتنهّد بعمق ويبدأ



Twitter: @ketab_n

الحديث قائلاً وهو يتفرّس ملامح وجه الشابّ الصغير:

ـ القُربى والمال يمنحانك ثباتًا في الحياة، ولكن ثبات الإيمان لا يضاهيه أيٌّ منهما، فهو الباقي لنا في نهاية رحلة شاقّة، نعلم جميعًا نهايتها التي لا فكاك منها. ففي شقائها يكمن سرّ الإيمان.

يصمت الشيخ برهة يلتقط فيها أنفاسه، تتحرّك شفتاه بتمتمة خفيضة. يغمض عينيه ثم يفتحهما فجأة على الوجه الأسمر ويكمل حديثه:

ـ أنت منذور من الله كي تعمّر أرضًا ليست بأرضك، بين قوم ليسوا بأهلك، رحلتك طويلة يا صنهاجي... ولن تستريح حتى تنهي ما أتى بك إليّ! اعلم أنّك لن ترجع هنا مرّة أخرى...

يقاطعه الشابّ وقد اختنق صوته بدموع جاهد نفسه كي لا تنحدر أمام العجوز:

ـ أرضي وأهلي يا مولاي...

تختفي ابتسامة الشيخ. يطرق ساكنًا مرّة أخرى، قبل أن يردّد بصوت خافت، كمن يحدّث نفسه، «الأرض... العرض... السماء». يقبض على حفنة من الرمال الصفراء. يضعها في «سرّة» قماشيّة صغيرة. يغلقها بطرف خيط ويقذف بها في حِجر محدّثه:

ـ هذه أرضك.

ثم ينزع خاتمًا فضّيًا من إصبعه، به فصّ من عقيق أحمر، يدسّه في يد الشابّ الأسمر، وينظر مليًّا في إنسان عينيه، قائلاً وقد عادت الابتسامة تزيّن وجهه:

ـ وهذا عرضك.



Twitter: @ketab_n

يتنهّد الشيخ التيجاني بارتياح، ترتخي قبضة يده وهو يُخرج كتابًا ذا غلاف من الجلد الأزرق السميك، تتوسّطه نجمة مثمّنة الشكل، مزيّنة بخيوط من ذهب، تتداخل فيها زرقة الغلاف بأشكال سداسيّة مزخرفة. يمدّ يده به قائلاً:

ـ وتلك سماؤك، حافظ عليهم بدمك.. فهذه حياتك.

يترفّق الشيخ بمريده الجديد، فقسوة ما يطلبه بدت على ملامح وجه الشابّ الصغير المرتعش ألمًا، أشفق عليه منه. يمسك برأس من سيخطون في طريقٍ لا عودة منه بكلتا يديه، يقرّب وجهه منه، فيشعر الصنهاجي بأنفاس الشيخ تلفحه وقد ترقّق صوته قائلاً:

ـ ليس نهاية الحياة أن نصكّ باب الدار ونرحل يا ولدي، بل هي بداية حياة جديدة، أرادها لنا قَدَرٌ نطيعه رغمًا عنّا. واحذر أن تدعي شيئًا مع الله، فليس لك من الأمر شيء، والله خلق كلّ شيء، فأطعه يطعْكَ كلّ شيء. ستأخذ العهد وتُقسم عليه، ومهما حدث لا تنس أورادك، فهي كرامة من الله، واعلم أنّك كلّما ظننت أنّك تبتعد فأنت تقترب، فهذا قدرك. وإيّاك نسيان أنّ خطأ غير متعمَّد يمكن أن يغيّر مسار حياتك، ولكن خطيئة متعمّدة يمكن أن تنهيها في لحظة.

يقترب أحد مريدي الشيخ التيجاني ويهمس في أذنه ثم يغادر، ينظر الشيخ إلى ضيفه وقد هدأت تقلّصات وجهه قليلاً:

ـ لقد حان الميعاد. الدليل في انتظارك، هيّا يا ولدي.

ينهض الضيف والمضيف، ولكنّ الأرض تقبض على قدميْ الشابّ، كمن تترجّاه ألّا يغادر، تتثاقل خطواته البطيئة، فيبتسم الشيخ وهو يطلب منه مجاهدة نفسه. يمسك بيده، فتحلّ الطمأنينة في قلب الصنهاجي المنقبض. يشير إلى الدليل بيده الأخرى فيقترب. يحدّثه



Twitter: @ketab_n

بلغة «الولوف» التي يعرفها أحمد الصنهاجي جيّدًا.

ـ ولدي أمانة في قافلتك، لا تتركه أبدًا، بل دعه هو الذي يتركك. في رعاية الله.

التمع بريق في عينيّ الشيخ لا يتناسب مع وهن جسده السبعيني. يلتفت إلى أحمد ويشدّ على يديه، قائلاً بشجن غير مفهوم في نغمة صوته:

ـ ليس المُريد هو من يتصرّف برفق دائمًا. في حفظ الله... في حفظ الله يا شيخ أحمد.

يغادر الصنهاجي والدليل إلى ناقتيهما. ينضمّا إلى قافلة التجارة. فرحلتها محدّدة سلفًا من كلّ عام إلى أراضي الحجاز، بعد أن تعبر الصحراء إلى أرض النيل في مصر، ومنها إلى صحراء الربع الخالي. تسير ناقة أحمد الصنهاجي في محاذاة ناقة الدليل، تتبعهم جِمال تحمل بضائعها الأفريقيّة والمراكشيّة، يحيطها فرسان يحملون سيوفًا نائمة في أغمادها، طالما سالت دماء لصوص الصحاري على أنصالها اللامعة.

يعطي الدليل إشارة بالتحرّك، ويبدأ الركب في مغادرة تلال المرابطين. تتعاقب الشمس والقمر على مسير القافلة، إلى أن يشير الدليل بالتوقّف كي ترتاح الجمال، يقترب من مرافقه الشابّ، يهمس في أذنه:

ـ هنا آخر موطئ قدم في بلادنا يا شيخ أحمد، خطوة أخرى ونصبح في صحراء الطوارق.

تدمع عينا أحمد. يهبط من على ناقته بعد أن أناخها، ينظر خلفه، ويتذكّر كلمات الشيخ التيجاني. يخرج «سرّة» الرمال ويضغط عليها بكلتا يديه، يقرّبها من شفتيه، يلثمها، يتشمّم رائحتها، ثم يبسط رداءه



Twitter: @ketab_n

ويدخل في صلاة قصيرة، يغيب فيها عمّن حوله، يخرج سبّحته البيضاء ويبدأ في قراءة وِرده الذي أوصاه به الشيخ، يشهق نفسًا عميقًا كمن ترتدّ إليه روحه فجأة عند سماعه صوت الدليل، إيذانًا بمواصلة الرحلة، يُخرج ثلاث تمرات من «جرابه» بسرعة ويغرس نواها في الرمال، يصبّ عليهم بعض قطرات الماء، فيزعق به الدليل فزعًا عند رؤيته فعلته:

ـ توقّف، ماذا تفعل يا شيخ؟! الماء في الصحراء هو حياتك، إنّه أغلى من الذهب، لا تضيّعه هباءً.

يلتفت إليه أحمد مبتسمًا في أسى، ثم ينهض صامتًا. يعتلي ناقته مجدّدًا. فتبدأ رحلته إلى قدرَه. تسير القافلة منذ الفجر دون توقّف حتى مغيب الشمس، يتخلّف عنهم الشيخ الصغير ليؤدّي فروضه. يلحق بهم على ناقته من دون أن يغيب الركب عن مرمى بصره. يردّد أوراده كما أوصاه الشيخ. تنزل القافلة عند مضيفيها عند كلّ قبيلة معلومة لها. فهذا طريقها في كلّ رحلة، يتزوّدون بالماء والطعام، وترتاح الإبل وتشرب القافلة، وتبدأ المسير مرّة أخرى عند الفجر. فالفجر هو نقطة الانطلاق، والغروب هو وقت السكون. لا يتواصل المسافرون مع القبائل المضيفة، فهذه أداب ضيوف الصحراء، لهم الأمان والزاد فقط، يربطون ناقة في وتد آخر خيمة عند مغادرتهم، ليس مقابل ضيافتهم، بل امتنانًا لمضيفيهم. وفي أحيان أخرى بعض الحرير المراكشي أو الذهب الإفريقي، فهذا هو عرف الصحراء. ينقضي شهر قمريّ، لم ير فيه أحمد الصنهاجي إلّا الرمال الصفراء وسماء زرقاء نهارًا، ورداءً أسود من قطيفة مخمليّة، مرصّع بنجوم فضّيّة، متلألئة تلفّهم ليلاً. يعرف اتّجاهات الأرض بقراءة النجوم. يتعلّم أن يُحكم رداءه حول جسده، ويتدثّر بملابس كثيرة في الحرّ الشديد، كي يحفظ



Twitter: @ketab_n

رطوبة بدنه من الجفاف. يُخفي عينيه وأنفه من عواصف الرمال القاسية، التي تنطلق في الهواء، تسبح وكأنّها طلقات رصاص تخترق الأعين والأنوف.

يخفّف الدليل من سرعة ناقته، يحاذي ناقة الشيخ أحمد، ويحدّثه همسًا بلغة «الولوف»، يخبره عن تلك القبيلة التي هم على مشارف حدودها... قبيلة «السكارنة»، يعتقدون أنّ سهولهم تسكنها الشياطين، وسماءهم هي قلبٌ للآلهة وسكنٌ لأرواح أجدادهم، فإذا تأخّر المطر فإنّ ذلك يحدث إمّا لخطأ ارتكبه أحد أفراد القبيلة، أو بسبب نزاع ستراق له دماء. فيبدأ دقّ الطبول، تبثّ حنينها للماء والحياة، تناجي أصواتها السماء، حتى ترضى عنهم الآلهة وتهدأ أرواح ذويهم. يتعجّب أحمد الصنهاجي ويتساءل عن ديانة هذه القبيلة. تخرج ضحكة مكتومة من فم الدليل المختفي تحت اللثام، فأعراب الصحاري لا يعرفون عن الإسلام سوى الصلاة. يعيشون تبعًا لأعراف أسلافهم، التي يؤمنون أنّها السبب في بقاء نسلهم. يشير بيده إلى القافلة، فتتوقّف. يتقدّم هو إلى مضارب خيام القبيلة، يستأذن منهم ليضرب خيامه في أرضهم، يخرج إليه رجل عجوز حاني الجذع، متّشحًا بعباءته، يخفي وجهه بلثام أسود فلا تظهر منه سوى عينيه الضيّقتين. يتبادل بعض الكلمات مع الدليل، يقفل بعدها راجعًا إلى القافلة، فيبدأ رجالها في دقّ أوتاد الخيام على مقربة من خيام قبيلة «السكارنة». يستند الدليل بظهره إلى ظلّ ناقته. يعبث بحصوات أمامه، وقد بدا الاضطراب على ملامح وجهه، فكيف لرحلة هو قائدها أن تتأخّر عن ميعادها المحدّد سلفًا! يقترب منه الصنهاجي مفترشًا الأرض بجواره، يرى العبوس في عيني دليله. حنكة ومهارة أدلّة الصحاري على مدار أعوام طويلة، هي ما تجعل سمعتهم تتردّد عند القاصي والداني، ولكنّ المهارة تقف عاجزة



Twitter: @ketab_n

أمام شُحّ الطبيعة إن أبتْ، فموسم الجفاف قد طال على القبيلة، وماؤهم وزادهم يكفيهم هم فقط، ولا يمكن أن يمدّوا قافلته بالزاد لمواصلة رحلتها. يزمّ أحمد شفتيه ويهزّ رأسه، ثم يهبّ ضاربًا خيمته في الأرض الصفراء، بعد أن طمأن الدليل بفرج قريب. حتى وإن بدأت الشمس في المغيب، أتى فتيان القبيلة بالماء والطعام. وقد أوقدت النار في حلقات بين الخيام المنصوبة، تُلقي ألسنة اللهب الأحمر بظلالها على وجوه الرجال المتحلّقين حولها في صمت، إلّا من صوت طقطقة الحطب المشتعل. يخرج شيخ القبيلة بردائه الأسود، يجلس في أكبر حلقة بين الرجال، فيبدأون في ضرب الطبول ببطء عند رؤيته في إيقاع منتظم، يعلو كلّ ساعة، والأبصار شاخصة إلى السماء. يتأمّل حالهم أحمد الصنهاجي من أمام خيمته البعيدة عنهم. فغير مسموح لأحد من خارج القبيلة أن يدنّس طقوس أجدادهم، بالاقتراب أو الولوج في دوائرهم المحظورة. ينظر إلى السماء، ثم يخرج كتابه ذا الغلاف الجلدي، يقرأ منه بصوت خفيض بعضًا من آياته القرآنيّة، ينظر إلى السماء مرّة أخرى، ليعلم ميعاد صلاة الفجر. يُغلق جلدتيْ مصحفه ويضعه في «جرابه» الأزرق. يتقدّم مباشرة إلى وسط حلقة شيخ القبيلة. يُجنّ الدليل وينتفض. يهمّ بالإمساك به ولكن بعد فوات الأوان. يتجمّد مكانه عند سكون أصوات الطبول، يفزع رجال القبيلة من أماكنهم. يتحسّسون مقابض سيوفهم الراقدة في أغمادها الملفوفة حول خصورهم. يشير لهم ذو العباءة السوداء بالسكون. ينظر كبيرهم إلى القادم إليه بجسده النحيل، وطوله الفارع، بثبات وهيبة، استحضرها من إيمانٍ بثّه الشيخ التيجاني، عندما كانت أنفاسه تلفح وجهه الأسود، وإذ وقف أمامه، أشار إلى السماء قائلاً:

ـ الصلاة جامعة... الصلاة جامعة... الصلاة جامعة.



Twitter: @ketab_n

يستقبل الشابّ النحيف الأسمر القبلة، يرفع يده بالتكبير. ينتظر قليلاً وبصره شاخص إلى الأرض، ينهض العجوز واقفًا بجوار الإمام ويرفع يديه بالتكبير، فيصطفّ باقي الرجال. يفعلون كما فعل كبيرهم، يرتفع صوته بالتكبير وتتردّد «الله أكبر» في وديان الصحاري سبع مرّات، ينهي أحمد الصنهاجي صلاة ركعتين، ويسلّم المصلّون خلفه. يقف وينزع عباءته عن جسده النحيل، واضعًا إيّاها عن شماله، يلتفت إليهم قائلاً:

ـ الحمد لله ربّ العالمين، الرحمٰن الرحيم، مالك يوم الدين، لا إلٰه إلّا الله، يفعل ما يريد، اللهم لا إلٰه إلّا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث واجعل ما أنزلت علينا قوّة وبلاغًا إلى حين.

ثم يحوّل وجهه إلى السماء كأنّما يناجي ربّه، فتبدأ بعدها النجوم في الاختفاء، ويُظلم قرص القمر الفضّي خلف سحابة سوداء حبلى بالماء، تسقط قطرات المطر على أجساد الواقفين، فرغت أفواههم، واتّسعت عيونهم لا يستطيعون حراكًا. يتركهم الشيخ أحمد، وقد تلطّخت قدماه بالرمال المبتلّة، يدلف إلى خيمته صامتًا مطأطأ الرأس، يتدثّر بعباءته ويغلق ستارة الخيمة. يترك جميع من في الخارج، وهم يردّدون دعاءه مرارًا، حتى فتحت السماء أبوابها كفيض من نهر، لم يتوقّف حتى طلوع الشمس. تفوح في المكان رائحة الندى، وطلّ الصباح المختلط بالرمال الصفراء. ارتوت الأرض ومُلئت الآبار الجافّة. يخرج أحمد من خيمته، فيجد شيخ القبيلة وعشيرته كأنّهم بنيان مرصوص أمامه، ينحني العجوز، فيسرع إليه الصنهاجي قائلاً:

ـ لا تنحنِ لغير الله يا جدّي، فهو الرزّاق.

ـ أطلب تُجبْ يا مولانا.



Twitter: @ketab_n

ـ نحن عباد الله، نطيع الله فيطيعنا خلق الله.

يمدّ الرجال القافلة بما تحتاجه من مؤن. فتُملأ جِرار الماء، و«خروج» التمر والخبز واللحم القديد. يستعدّ الركب للرحيل، فيربط الدليل ناقة عند آخر وتد للخيمة. يهرول العجوز قابضًا على طرف الحبل ويسلّمه للشيخ الصغير، ويحوّل بصره إلى الدليل قائلاً:

ـ كرامة للشيخ وقافلة الشيخ.

ـ بل هي كرامة للقافلة بأمر الله.

يجيبه أحمد الصنهاجي خجلاً، وهو يضع مقدّمة الحبل في يد الدليل. تبدأ القافلة في التحرّك في اتّجاه الشرق. تختفي الخيام ببطء بين كثبان الرمال خلف قافلة الحجاز، يسير الدليل على مهل بمحاذاة ناقة الشيخ أحمد، يخبره بدهاء علّمته إيّاه قفار الصحراء، أنّه لولا وعده للعارف بالله، لطلب منه إكمال رحلته إلى الأرض المباركة، كي ينعم فيها بزيارة بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول. يفهم الصنهاجي ما يرمي إليه الدليل، فهو أكثر دهاء ممّا يحسبه. يبتسم الشيخ وهو يتأرجح على سنام ناقته. يسأله عن النهر العظيم الذي سيعبرونه، يجيبه مرافقه بأنّه لم يبق سوى خمسة أيّام، يصلون بعدها إلى نهر مصر فيعبرونه، ومنه إلى صحراء الربع الخالي بعد شهر. فيباغته الصنهاجي قائلاً:

ـ نهاية رحلتي بعد اليوم الخامس إن شاء الله.

يصمت الشابّ الصغير، ويتحسّس بيده «سُرّة» الرمال المعلّقة في حزام ملفوف حول خصره، تراوده مرّة أخرى رائحة ملح البحر. يستنشق الهواء بعنف إلى أعماق صدره، ولكنّه يتذكّر كلمات شيخه التيجاني، فينفض رأسه، ويغمض عينيه وهو لا يشعر بتأرجحه فوق



Twitter: @ketab_n

سنام ناقته. يغيب في حلمه بين ما كان وما سيكون. يرى وجه صديقه «سينجور»، وهو يترجّاه كي يقابل شيخ المرابطين، يتذكّر قبضة يده وهو يصافحه، وكأنّه لن يراه ثانية. ربّما كان يعلم صديقه ما سيدور بينه وبين شيخه العارف بالله، يتحسّس رقبته وقد أصابه الاختناق من طوق حديدي يضغط على عنقه، وسلاسل تمسك بقدميه كقيود من نار، يحاول أن ينزع الطوق عن رقبته، ولكنَّ يديه لا تصلان إليها، فهما مغلولتان خلف ظهره، يضرب رأسه في تلك الجذوع الخشبيّة، وهو حبيس خلفها، يجد ذلك الوجه الأبيض ذا الشعر الأصفر والعينين الخضراوين، تطلّ عليه، تضحك ساخرة منه، فتظهر أسنان ملوّثة بدماء قانية، تصوّب يدًا باردة وعروقها الزرقاء النابضة، ببندقيّة إلى صدره العاري، ينطلق صوت الرعد، فتخرج رصاصة، ولكنّها لا تصيب بدنه، بل جسد شيخ ساجد إلى الأرض، تحمل ملامحه العجوزة ملامح وجه أحمد الصنهاجي.



Twitter: @ketab_n

# وطن جديد

توقّفت القافلة كما هي العادة عند إشارة من يد الدليل. يترجّل من على ناقته، فيفعل مثله من هم على جمالهم في القافلة، يتقدّم إلى بعض الرجال، سود البشرة، طوال القامة، يعتمرون عمامات كبيرة، ويرتدون زيًّا متشابهًا من بذلات رماديّة، يميّز بعضهم ذلك الحزام الأزرق حول خصورهم، ووشاح أحمر على الصدور، يحملون على أكتافهم بنادق طويلة لامعة، وغدّاراتهم معلّقة في أشرطة جلديّة عريضة حول خصورهم، بجوار أحزمة البارود. يصطفّ عدد كبير من الجمال في ساحة مجاورة، يستعدّ البعض منهم لدوريّته الروتينيّة. فمراقبة الحدود الغربيّة لمصر في صحراء السلوم، لها أوقات تتغيّر بحسب مواعيد قوافل التجارة. ينتصب سارٍ يحمل علمًا أخضر، تتوسّطه ثلاث نجوم في منتصف هلال أبيض، ينظر الشيخ أحمد مليًّا من تحت لثامه إلى تلك القطعة القماشيّة الملوّنة، ترفرف على الساري محدثة صوتًا مع نسمات الهواء الجافّ. ينتزعه صوت الدليل، يطلب منه الوقوف بجوار ناقته من دون حراك، حتى ينتهي من إعداد وختم تصاريح دخول القافلة



Twitter: @ketab_n

إلى مصر. يقترب الدليل من قائد سريّة الهجّانة، المرابطة على الحدود الغربيّة. يراقبون ويتابعون القوافل الآتية من الغرب في طريقها إلى مصر والحجاز، في أوقات أصبحت معلومة لحارسي الحدود، حتى إنّ دلائل القوافل وتجّارها كثيرًا ما كانوا معروفين لهم.

بدأ الركب يسير في اتّجاه الشرق، ومنه إلى الجنوب نحو العاصمة، بعد أن مكثت القافلة نصف نهار عند المدخل الغربي للحدود المصريّة، يتغيّر الحال وتُستبدل وديان الصحراء الصفراء، وخواؤها من البشر والحيوان بالقرى والسكّان والأرض الخضراء. أربعة أيّام انقضت، حتى وصول قافلة الحجاز إلى مشارف المدينة الكبيرة، تظهر قمم مآذنها من بعيد، ورائحة البشر تفوح في الهواء المشبع بقطرات الماء، بعد أن جابت العير مدّة ثلاثة أشهر وعشرة أيّام في صحراء جافّة، هواؤها الحارّ وصهد الرمال اعتادت عليه قبائل تسكن الخيام، وترعى الغنم، ترتحل باحثة عن كنز حياتها في الوديان... الماء.

يترجّل رجال القافلة في ساحة كبيرة، تستقرّ فيها قوافل مماثلة، غادية وآتية من جميع البلدان، للتجارة أو الراحة أو التزوّد بما يكفيهم لمواصلة رحلتهم الطويلة. جحظت عينا الشيخ أحمد عند ولوجه من باب الصفا، المجاور لسوق القناديل وسوق البربر، هاله ما لم يره طيلة سنوات عمره العشرينيّة. يتأمّل سورًا عظيمًا، تعبر الناس من بوّابته إلى السوق الكبير، يرى طرقًا ممهّدة على جانبيها منازل، وأسبلة للمياه تنزل من أنابيب غريبة لم يشاهد مثيلاتها سابقًا، وبيوت ذات واجهات دائريّة أو مربّعة، مغطّاة بقضبان مزيّنة، ترتكز على أعمدة ومداخل معقودة، مغشاة بنوافذ مزخرفة بالخشب والزجاج المعشّق والملوّن. لم ينم أحمد الصنهاجي في ليلته الأولى وهو يستند إلى ظهر ناقته! فمن



Twitter: @ketab_n

تعوّد على سكون الصحراء، لا يستطيع تحمّل دبيب أقدام أهل الحضر طيلة الليل والنهار. تململ من بقائه في السوق لثلاثة أيّام، لم يغادره إلّا للصلاة في المسجد العتيق. يثيره أمر أهل بلد يعلمون كيف يبنون بيت لله، غاب بين صلاتين في أروقته، وطرقاته المحيطة بصحنه المكشوف، وأعمدته الرخاميّة المزيّنة بنقوش وزخارف على ألواح خشبيّة.

يجلس الدليل بجواره في صباح اليوم الرابع، يُخرج من جيبه «سرّة» بها قطع من البرونز، وأخرى من الفضّة، يظهر وجه رجل بطربوش على إحدى وجهيها ورقم على الوجه الآخر.

ـ هذه تسمّى نقود، وهي العملة التي يبيعون ويشترون بها في ذلك البلد.

ويُخرج «سرّة» أخرى بها قطع من الذهب، دسّها في يد أحمد وهو يتلفّت يمينًا ويسارًا بتوجّل وحذر قائلاً:

ـ وهذه «سرّة» من ذهب، احفظها جيّدًا لوقت عصيب، ولا تخبر أحدًا بما معك، فهذه الصفائح الصفراء أغلى عندهم من هذا النهر.

يضحك الشيخ أحمد باندهاش قائلاً:

ـ يتبدّل خلق الله في نعمه.

ـ ستعبر القافلة غدًا هذا النهر، كي نكمل طريقنا إلى الحجاز. أمّا أنت، فقد أمرني الشيخ أن أوصلك حتى هذا الشاطئ، ثم أترك لك أمرك.

يصمت الدليل برهة يلتقط فيها أنفاسه، ثم يكتسي صوته بالحزن، وهو يخبر رفيقه عن رجال بيض، ذوي شعور صفراء يتجوّلون في



Twitter: @ketab_n

الأنحاء كأهل البلد، ويطلب منه عدم الفزع أو الخوف منهم، فقد تعوّدت عيون الجميع على رؤيتهم.

يومئ أحمد إلى الأرض، يزمّ شفتيه، ثم ينظر إلى الدليل ويهزّ رأسه قائلاً:

ـ لا أعبر نهرًا، ولا أقترب من بحر... سأتّجه إلى الجنوب.

يشخص الدليل إلى الفراغ، وهو يردّد كلمات الصنهاجي، ثم ينهض كمن تذكّر شيئًا فجأة. يختفي وسط جموع الناس، يرجع بعد فترة وهو متأبّط ذراع رجل ضخم البنية، أسود البشرة، يلتحف بعباءة رماديّة تختفي في أسفلها ترهّلات جسده البدين، من تحت جلباب من الصوف، ينحشر رأسه في جوف عمامة كبيرة بيضاء، تظهر بعض الشعيرات الهاربة من تحتها أعلى أذنين صغيرتين. ينتعل «بُلْغة» من جلد التسماح، وتفوح من جسده رائحة بخور أفريقي عتيق. يبسط له الدليل طرفًا من عباءته. فاحترام الحاجّ مرتضى، شيخ تجّار السودان، واجب على كلّ من في ساحة التجّار، يشير الدليل إلى الصنهاجي وهو يحدّث الحاجّ مرتضى قائلاً:

ـ الشيخ أحمد الصنهاجي... ابن عمّي و...

لم يدعه شيخ التجّار السوداني يكمل جملته، فانكمش على نفسه متواضعًا، عند سماعه لقب الصنهاجي، يرهف السمع ويبتسم لذلك الشرف الذي ناله، بملاقاة شيخ من الصناهجة. يسكت الدليل ويخفي قلقه بالنظر إلى الأرض، بعد أن فقد حذره، ووقع في خطأ ما كان لمثله أن يقع فيه. يرفع أحمد الصنهاجي عنه الحرج، ويغيّر دفّة الحديث. يسأل الحاجّ مرتضى عن طريق السفر إلى الجنوب. يندهش التاجر السوداني وهو يتساءل عن أيّ جنوب يريد؟



Twitter: @ketab_n

ـ أريد أن أذهب لجنوب مصر.

يجيبه بعد برهة من تفكير بالطرق الثلاثة، للذهاب إلى النوبة في جنوب مصر. إمّا بمراكب في النيل، أو عن طريق البرّ المحفوف بمخاطر قاطعي الطريق، أو بالقطار. تعلو علامات الاستغراب على وجه الشيخ أحمد ويستفسر عن هذا القطار، يضحك الحاجّ مرتضى، وهو يصف له تلك الصناديق الخشبيّة الكبيرة، المربوطة ببعضها بعضًا، تسير على قضبان متوازية من الحديد. تجوب مصر من شمالها إلى جنوبها، حتى مدينة الأقصر أو بلد المساخيط، وعليه أن يكمل طريقه من بلد المساخيط برًّا أو نهرًا إلى بلاد النوبة.

ـ وكيف أسافر في هذا الصندوق؟

ـ متى تريد السفر يا مولانا؟

ـ اليوم إن شاء الله، بعد صلاة العصر.

ـ إذًا فلنصلِّ في مسجد سيّدنا الحسين، وبعدها أوصلك إلى محطّة السكّة الحديد.

لم يفهم أحمد ما هي تلك «السكّة الحديد»، إلّا بعد أن وقف مشدوهًا أمام تمثال ضخم من الجرانيت، لفلّاحة مصريّة تنظر إلى الأمام، تحتضن بيدها اليمنى رأس أبو الهول، يرتكز التمثال على قاعدة كبيرة في وسط ميدان باب الحديد[1]. يدور الشيخ أحمد حول تمثال نهضة مصر، ويلمس قاعدته الجرانيتيّة بيديه ويلتفت إلى الحاجّ مرتضى المبتسم دائمًا في وجوه من يألف صحبتهم، يشدّه من يده إلى

(١) تمثال نهضة مصر قبل نقله من ميدان باب الحديد (رمسيس حاليًا) إلى ميدان جامعة القاهرة عام ١٩٥٥.



Twitter: @ketab_n

داخل المحطّة المكتظّة بأناس من كلّ الأشكال. أناس بجلاليب وعمامات، وآخرون ببدلات إفرنجيّة. يفزع أحمد ويظهر الغضب على وجهه عند رؤيته لأربعة عساكر من الإنجليز، بسحنتهم البيضاء وخوذاتهم الدائريّة، فيترك يد الحاجّ مرتضى. يستتر خلف أحد الأعمدة الفولاذيّة الحاملة للسقف الشاهق الحديدي، المعشّق بالزجاج الملوّن للمحطّة. ينسى اضطرابه وفزعه من الجنود، الذين يمرّون بجواره دون التفاتة، وقد فَغَر فاه من ارتفاع ذلك السقف، يظلّل تلك الساحة الكبيرة. ينتبه إلى يد الحاجّ مرتضى وهي تشدّه من يده مرّة أخرى. يحتار الشيخ السوداني من فعلة الصنهاجي، ولكنّه يتكاسل عن السؤال فيما لا يعنيه. فشهرة الصناهجة وبأسهم تعلمه جميع القبائل. يدسّ في يده ورقة كرتونيّة صغيرة، أتى بها التاجر السوداني من نافذة صغيرة، في إحدى جنبات المحطّة، يخبره بأنّها تذكرته للوصول إلى وجهته، التي سيصلها في الليلة الثانية بعد نهار واحد. يسير الاثنان على رصيف طويل ممهّد بحجارة مستوية، تستقرّ في سكون على حافّته غرفٌ ضخمة من الخشب والفولاذ، محمولة على عجل من الصلب. ترقد على قضبان متوازية. لها نوافذ تظهر من خلالها مقاعد كثيرة، تحمل ركّابًا يتّجهون إلى جنوب مصر... إلى الصعيد. يُجلسه شيخ التجّار بجوار أحد النوافذ، يطمئنه بأنّه سيتحرّك بعد قليل. يترجّل من العربة وهو يتحدّث مع الشيخ أحمد من خارج النافذة. تتعالى أصوات وداع المسافرين، يفزع الصنهاجي عند سماعه صريخ الوحش العملاق وهو يتحرّك ببطء، والذي لم ير مثله في البلاد، إيذانًا ببدء الرحلة. يودّعه مرافقه ويتمنّى له السلامة. يختفي رويدًا رويدًا بزيادة سرعة القطار وتزايد اندهاش راكبه.

بدأ الدوار يتمكّن من رأس المسافر الغريب، لكنّه لم يستسلم



Twitter: @ketab_n

بسهولة لتلك الغفوة الملحّة عليه، فهو مشدوه برؤية ما لم يسمعه أو يراه أو خطر على باله سابقًا، تمرّ الحقول الخضراء وكأنّها تجري عكس اتّجاه القطار، تشقّها مياه تسير في ترع صغيرة وكبيرة، ورجال قد غُرست أرجلهم وأيديهم في طين أسود، تشقّ تربته سيقان خضراء، أبقار وماشية وأطفال وسيّدات يحملن ما لا يعرف كنهه. خطفت بصره عربة تسير من دون حصان، رأى مثيلتها عند دخوله من باب الصفا في القاهرة. انتبه فجأة إلى أحدهم يقف فوق رأسه، يرتدي بدلة سوداء، وطاقيّة من اللون نفسه، يحمل صفّارة معلّقة فوق رقبته، يمسك بقلم يضع طرفه في فمه، كلّما أراد أن يكتب في دفتر ورقي يحمله بيده اليسرى. يطلب منه الرجل «التذكرة» وهو يمدّ إليه يده، تعلو الدهشة وجه أحمد الصنهاجي! فماذا تعني هذه الكلمة، يكرّر «الكمساري» طلبه مرّة أخرى، فيتذكّر أحمد ما أعطاه له التاجر السوداني. يُخرج الورقة الكرتونيّة الصغيرة من «خُرْج» مربوط حول خصره، ويناولها لسائله. يضع «الكمساري» سنّ قلمه «الكوبيا» في طرف فمه، يلطّخه بلعابه ويؤشّر بعلامة على القصاصة الصغيرة ويغادر إلى المقعد التالي.

ينتظم إيقاع سير القطار، تهبّ كلّ فترة سحابة من الدخان الأسود، آتية من مقدّمته بجوار نافذة راكبه المشدوه، المنتفض كلّما سمع صافرته الحادّة. يستسلم أخيرًا لتلك الغفوة، يغمض عينيه على آخر مشهد لقرص الشمس الأحمر، المتّجه إلى باطن الأفق الأخضر بعيدًا. ينتبه من سباته على لكزة في كتفه من يد خشنة، مكسوّة بجلد على عظم، توقظه فجأة، فيفتح عينيه بتثاقل على وجه نحيف شاحب، وأنف أفطس وعين غائرة. يبتسم له رجل عجوز، فتظهر أفاعيل الزمن على ما تبقّى من بعض الأسنان البنِّيّة اللون، يمدّ يده بكسرة من خبز، وقليل من الجبن المالح. يهزّ الصنهاجي رأسه ممتنًّا، ويبادله بتمرات



Twitter: @ketab_n

يلقيها في اليد المعروقة. يتناول الخبز والجبن وبصره شاخص في سواد الليل، وقد ابتلع كلّ شيء خارج نافذة القطار. تهبّ نسمات باردة على وجهه، تجبره على لفّ لثامه، فتظهر عيناه السوداوان فقط. يسأل العجوز عن ميعاد توقّف القطار، لم يفهمه الرجل بتلك اللغة العربيّة الفصيحة، وهذه اللكنة والصوت الحادّ، لم يشأ أحمد أن يكرّر سؤاله، فهزّ رأسه مرّتين وأغمض عينيه ثانية. ينتشله من غفوته صوت أذان قادم من بعيد، ينظر إلى نجوم السماء فيعلم وقت الصلاة. تمرّ عليه صلاتان للعشاء في جوف هذا الوحش الحديدي، ولكنّه لم يجد العجوز أمامه. يبدأ القطار في السير ببطء حتى توقّف تمامًا، يهبط منه بعض الناس، فيفعل مثلما رآهم يفعلون. يقف على رصيف ترابي تقبع خلفه حقول القصب، منتصبة كأنّها أشباح في الظلام، يسير الجميع ناحية بوّابة المحطّة المتهالكة، بغرفتها الخشبيّة المغلقة بقفل صدئ، يجد أحمد نفسه وحيدًا في مكان غريب، بعد أن انفضّ المكان عن مسافريه. هناك مصباح يتيم، يلقي بضوء أصفر باهت في آخر الرصيف الترابي، يسير في اتّجاه الضوء فتصل إلى أنفه رائحة مياه عذبة، يغمض جفنيه. يخطو بضع خطوات وكأنّه يتتبّع تلك الرائحة. يفتح عينيه في الظلام، فتتراقص أمامه صفحة مياه تجري في شقّ ترعة كبيرة، يهبط الصنهاجي جرفها الممتدّ خلف حقول الأشباح. يغتسل ويتوضّأ للصلاة بعد أن خلع رداءه. يفترش عباءته ويصلّي صلاة طويلة، يختمها بإخراج سبحته البيضاء ويردّد وِرده، فتلفحه رائحة الصحراء، يحاول أن ينفضها من عقله من دون جدوى. ينظر إلى السماء مرّة أخرى، ثم يطأطئ رأسه إلى الأرض. يُخرج كتابه ذا الغلاف الجلدي ويقرأ قرآنه. يتناهى إلى أذنيه حفيف آت من حقل القصب خلف رصيف المحطّة. يغلق كتابه بهدوء، ويقف ملتحفًا بردائه ولثامه، يخفي نصف وجهه وينتظر القادم



Twitter: @ketab_n

إليه. يظهر من بين سيقان القصب وجه رجل ضخم، اختفت ملامحه تحت شال من صوف يلفّه حول رأسه ووجهه. يصوّب بندقيّة إليه ويطلب منه أن يسلّمه ما معه من أشياء، يندهش الصنهاجي مَن هذا الملثّم، تذكّره تلك الجرأة بقبائل الطوارق، يشدّ أحمد طرف ردائه حول جسده، يحدّث سارقه بهدوء قائلاً بامتعاض:

ـ أطارقيٌّ أنت؟ كيف لك أن تسرق يا أخي؟!

لم يفهم الرجل كلمة ممّا سمع. يكرّر طلبه مرّة أخرى بصوت أجشّ غليظ، وهو يلوّح بطرف بندقيّته. ينزع أحمد رداءه ويلقيه إلى الأرض. يقف شامخًا بجسده النحيل وجلبابه المشدود حول جسده بأربطة خضراء متصالبة على صدره، لثامه ملفوف حول رأسه ونصف وجهه، لا يظهر منه سوى عينيه، يتدلّى من حزام حول خصره «جراب» منتفخ أزاغ بصر قاطع الطريق. يرفع الصنهاجي يده، ويشير إلى سارقه بالتقدّم، فتنجرف المسبحة البيضاء عن معصمه إلى منتصف ذراعه، يتردّد الرجل قليلاً، فقد حيّرته شجاعة وثبات رجل معرّض للقتل في أيّ لحظة، ولكنّه حسم أمره وتقدّم مصوّبًا بندقيّته إلى صدر الصنهاجي. يأمره أحمد بنزع لثامه، لم يفهم السارق تلك العربيّة المغموسة بلكنة لم يسمعها من قبل. يكشف الصنهاجي عن وجهه. ينزع خنجرًا معقوفًا من غمده، مربوطًا بساقه أسفل بنطاله، ينظر مباشرة إلى عينيّ السارق قائلاً:

ـ لا حيلة لك معي... فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

تتجمّد سبّابة الرجل على زناد البندقيّة. يرتجف من تلك النظرات الحادّة، وبريق الخنجر يهدّد عينيه بلمعانه تحت ضوء القمر، يتقهقر للخلف وتترك يده البندقيّة، فتنزل بجواره ببطء شديد، كمن يأمن مباغتة



Twitter: @ketab_n

مهاجمه. يثبت مكانه عند سماعه الشابّ الأسود يسأله عن مسجد قريب. لم تلتقط أذن قاطع الطريق سوى كلمة «مسجد». يشير إلى الصنهاجي مرتجفًا، ناحية طريق ضيّق بين حقول القصب من دون كلمة، يخرج الشيخ أحمد قطعة من الذهب، يبتسم وهو يلقيها بين رجلي السارق فتلمع عيناه. يجبره وميضها الأصفر على ترك سلاحه يسقط أرضًا، يلتقط قطعة الذهب ويركض حتى يختفي بين الحقول في سواد الليل. لم يجد الصنهاجي مأوى للبندقيّة سوى الترعة المجاورة، فلا حاجة له بها. يتّجه إلى المسجد الذي أشار إليه قاطع الطريق، بعد أن التحف بإزاره وسكن خنجره في غمده وتمتم قائلاً:

ـ لا يجتمع الذهب والإيمان في قلب العبد.



Twitter: @ketab_n

# عابر سبيل

مطر غزير يجتاح قرية «بهجة» في جوف صعيد مصر. كثيرًا ما كانت وفرة الماء مصيبة على أهلها. فمواسم فيضان النيل تجبر ساكني القرية إلى مغادرة بيوتهم لأيّام طويلة، قبل أن تُبنى قناطر وسدود على مجرى النيل بين بلاد النوبة ومديريّة قنا. يسكنون تلالاً مرتفعة على حدود القرية حتى تنحسر المياه، وترجع إلى مجراها في النيل، أو تشربها الأرض الطينيّة السوداء بعد أن تتلف الحرث والزرع. ترتجف قلوب مزارعي القصب الكسالى من أمطار نادرة لم يتعوّدوا عليها. تضرب قطرات الماء الجدران الطينيّة فتذيبها ببطء، تخترق الأسقف المجدولة من جريد النخل وجذوعه المغطّاة بطبقة من حُمرة وطين، ترتفع الأكفّ بالدعاء إلى الله كي يوقف المطر. يتدثّر الشيخ عبد الحميد بعباءته السوداء، يُحكم عمامته الحمراء ذات الزرّ الأخضر حول رأسه، يتّجه إلى مسجد كانت أرضه منذ زمن طويل خرابة، يبوّل فيها الحيوان والإنسان على السواء، قبل أن يستوطن جدّه الأكبر عيسى، النازح من صحراء الجزيرة العربيّة، واضعًا رحاله في تلك



Twitter: @ketab_n

القرية الصغيرة، وإعماره ذلك الجزء القصي منها، ببنائه مسجدًا على أنقاض جدران اكتشفها عند رفعه مخلّفات تلك الخرابة. قيل وقتها إنّها جدران مسجد قديم منذ الفتوحات الإسلاميّة لمصر، تحوّل ـ بعد أن هجره الناس ـ إلى ما صار عليه. أخذ الوافد العجوز على عاتقه بناء مسجد سمّاه مسجد «السبيل»، حتى يكون حرمًا لكلّ عابر سبيل. يتأكّد الجدّ الأكبر عيسى بعد مرور شهور، أنّ مقامه لن يستقرّ إلّا بوجود أرض يزرعها، تكون مستقرًّا ومتاعًا ولمن يأتي بعده من نسله. فيفتح له ذهب صحراء الحجاز أبواب قصور أولي الأمر من الأغاوات والأمراء، ينال بركتهم في الظاهر، ويملأ جيوبهم بدفع الرشا من الباطن. يدفع البرطيل الذي طلبه الآغا، وما تتطلّبه تكاليف تقدير مساحة الأرض بخرائط مساحيّة، سافر من أجلها إلى بندر مديريّة قنا عدّة مرّات، رسمها له مسّاح فرنسي من زمرة مسّاحين آخرين، أتى بهم محمّد علي باشا لإعادة قياس الأرض في عموم البلاد وأنحائها، فالدولة الحديثة الجديدة لا بدّ لها من تنظيم إداري، لم يعرفه المصريّون في ذلك الوقت. يظهر تنظيم القرى في مصر لأوّل مرّة، فتصبح وحدات إداريّة محدّدة، لكلّ منها زمام معلوم، يترأسها عمدة يختاره الباشا عن طريق خشداشيّه وبصاصيه في البنادر والمديريّات، يعلم منهم كلّ شيء عن أرض البلد التي يحكمها، ويحاول أن يجعل منها قاعدة لإمبراطوريّته الحديثة. وفي يوم حارّ من أيّام صيف الصعيد، يتمّ منح الجدّ الأكبر عيسى شهادة ملكيّة الأرض بعد قياسها بالقصبة الجديدة. قُدّرت في حينها بمائة فدّان في زمان الأمير «تكلا».

بدأ العمار يزحف بطيئًا مجاورًا بيت عيسى وأرضه. باتت الأرض تؤتي أُكلها بمساعدة ترعة صغيرة، تحمل مياه النيل القريب، ولكنّ الطريف في الأمرُ أنّ كلّ من جاور الجدّ الأكبر عيسى هم من



Twitter: @ketab_n

«النصارى» كما يطلق عليهم أهل الصعيد. لم يمنع اختلاف العقيدة من وجود روابط اجتماعيّة شديدة بين الجيران الأقباط وعائلة عيسى، على مدار أجيال ممتدّة لأحفاده. فقد زوّج الجدّ الأكبر ابنه الوحيد أبو اليزيد وهو في سنّ الرابعة عشرة. فالعزوّة تثبّت أقدام العائلة في الأرض الجديدة. لم يحد أبو اليزيد عن طريق أبيه عيسى بعد وفاته، فتزوّج الابن سبع مرّات، من أنجبت له يبقيها على عصمته حتى يتوفّاها الله، أمّا من لم يحالفها الحظّ بالإتيان بالولد، فكانت تُستبدل بغيرها، حتى استتبّ الأمر لأبي اليزيد وفي كنفه ثلاث زوجات، وستٌّ من البنات وثمانية من البنين. حاول أبو اليزيد تعليم أبنائه الذكور، إلّا أنّه لم يحظَ به منهم سوى اثنين، الشيخ عبد الحميد، تلميذ الشيخ الضرير أبي الحسن، مقرئ كتّاب القرية. حفظ عبد الحميد على يديه القرآن الكريم، وتعلّم القراءة والكتابة على لوح خشبي، وأقلام مصنوعة من فروع الشجر، يتمّ غمسها في «التواية» المملوءة بطحين الفحم المخلوط بالماء والصمغ. يكبر التلميذ وتراود الأمنيات الأب أبا اليزيد في إلحاقه بالجامع الكبير... الأزهر الشريف... فلا شيء يضاهي كون ابنه عالمًا من علمائه، وبفطنة رجل بسيط خبر شؤون الحياة، أدرك أنّ ابنه في حاجة إلى زوجة ترافقه إلى القاهرة، فلن يترك ولده يذهب إلى برّ مصر دون امرأة، تقوم على أُموره وهو يدرس في الأزهر الشريف. يقضي الأب أمره ويتمّ ما أراده، تتحرّك الأسرة الصغيرة بعد العرس بأيّام في احتفال من الأب المزهوّ، وباقي الأخوة، يتملّك بعضهم الحسد، إلى محطّة القطار في البندر. يودّعون من سيأتي للعائلة بشهادة ستغيّر من وضعها في المستقبل.

يستقرّ عبد الحميد وزوجته في حاضرة البلاد، ينخرط في دراسة علوم الدين، من أصول الفقه والشريعة، ولكنّه يهمل دراسته، وينسى



Twitter: @ketab_n

حلم أبيه. ففي بلد فسيحة، تنتشر فيها كلّ ألوان البشر وما بينهم من الصراعات، والإلهاءات الظاهرة والباطنة، تحت وطأة الاحتلال، والمعارك بين جماعات وطنيّة، ومؤامرات القصر وسطوة الإنجليز، يدرك عبد الحميد خطأه بعد فوات الأوان. فيعود إلى قرية «بهجة» بعد سنوات، دون أن ينهي ما أتى من أجله، وفي رقبته زوجة وثلاثة ذكور. يلازمه لقب الشيخ رغمًا عن ذلك طيلة حياته. فيعمل في المدرسة الابتدائيّة الوحيدة في القرية، بجانب إمامته وخدمته في مسجد «السبيل».

يستقرّ عبد الحميد في دار أبيه مع باقي إخوته الذكور. تزوّجوا جميعًا في سنّ صغيرة كأخيهم الأكبر. يقطن كلّ زوج وامرأته في ركن من أركان البيت الكبير. لم يعرفوا مهنة سوى الزراعة، فلم يفلح أيٌّ منهم في المدرسة، ولم يأتِ تشدّد أبي اليزيد بنتيجة معهم، فغُلب الأب على أمره. تسعهم الدار بأولادهم وزوجاتهم، فالركن الشرقي خاصّ بشهدي وزوجته أمينة وطفليه الصغيرين، يعتمد أبو اليزيد عليه، ويعتبره ساعده الأيمن في زراعة الأرض الشاسعة والممتدّة من قريتهم إلى قرية «قاطور» المجاورة لهم، تدرّ عليهم من زراعتها بالقصب سنويًّا وتوريده إلى شركة السكّر، ما يسمح بالإنفاق على تلك العائلة جميعًا، على مدار عام كامل. يستأجر أبو اليزيد غفيرًا من النقطة الموجودة بالقرية، كي يرافقه إلى الشركة عند استلامه تلك الورقة النقديّة بقيمة المائة جنيه، قبل أن تُلغى بعد قيام ثورة يوليو. يجاوره خليفة في الركن الشرقي نفسه، مع زوجته فتحيّة وابنته الوحيدة. يستقرّ كلٌّ من قناوي وزوجته زين العاقر مع حامد وزوجته رشيدة، وبناته الثلاث في باقي الناحية الشرقيّة من الدار، ويبقى في الركن الجنوبي نصحي وزوجته سيّدة وولداهما، بجوار حسين وزوجته فردوس مع ابنيهما. ويتبقّى عبد



Twitter: @ketab_n

الرحيم.. شقيق عبد الحميد الأكبر.. المبعوث إلى بلاد الإنجليز، بعد أن تخرّج من المهندسخانة، لتحقيق حلمه في إكمال دراسته العليا هناك.

لم يندهش الشيخ عبد الحميد من فضاء المسجد، وخلوّه من المصلّين. ففي الطقس العاصف غير المألوف، يمكث مسلمو القرية في منازلهم، اتّقاء برودة الجوّ وانهمار المطر. يلتفّون حول منقل من النار. يشربون الشاي الأسود الساخن ويستمدّون من مرارة طعمه حرارة تدفّئ أجسادهم. لم يندهش عبد الحميد أيضًا عند رؤيته هذا القابع في آخر المسجد، والجالس جلسة الصلاة، مرتديًا ملابس غريبة، فأيّام عمله كخطيب ومقيم للشعائر عوّدته على رؤية عابري السبيل في أيّام متفرّقة، ولكن ما أثار حفيظته قليلاً، هو لون بشرة الشابّ المقارب له في العمر، فقد كان أسودَ كليلٍ أظلمت نجومه واختفى قمره. تساءل عبد الحميد في نفسه عن هذا الغريب، فهو لم يرَ على مدار حياته القصيرة ذات الخمسة والعشرين عامًا أحدًا مثله، فالوجه نحيل تظهر عظامه من تحت الجلد اللامع، والعينان واسعتان يستقرّ تحتهما أنف صغير مدبّب، تظهر أسفلهما قطع ناصعة البياض تحتضنهما شفتان رفيعتان. يلقي على عابر السبيل السلام بوقار وطيبة ارتبطت به منذ صغره. يردّ عليه الغريب بلكنة غريبة، ولكنّها عربيّة فصحى ذات نغمة حادّة. يتوجّس عبد الحميد من الغريب وتضيء علامات الاستفهام في عقله، لكنّه ينفض هواجسه ويمارس ما اعتاد عليه من شعائر. يرفع أذان الصلاة والإقامة، يدرك الشيخ معرفة الغريب بأحكام الصلاة عندما يراه واقفًا بمحاذاة قدمه، إذًا فهو ليس كمن يتّخذون المسجد مأوى لحين طلوع الشمس من عابري السبيل. يتوقّف عبد الحميد عند باب المسجد بعد أن فرغ من صلاة الفجر، يلتفت إلى الجالس دون



Twitter: @ketab_n

حركة في مكانه، يدنو منه، يتأمّله يتمتم وبيده مسبحة بيضاء. ينتبه أحمد الصنهاجي إلى صوت الشيخ عبد الحميد وهو يبتسم في وجهه، يدعوه إلى تناول الشاي في داره، فينهض ويرافقه دون أن ينبس بكلمة إلى مندرة دار أبي اليزيد.

يهزّ الضيف رأسه في صمت، مبتسمًا بخجل، فتظهر أسنانه البيضاء المنتظمة عند استئذان عبد الحميد منه، دقائق تمرّ على الصنهاجي في مندرة الدار، يأتيه بعدها عبد الحميد حاملاً ما يناسبه من ملابس. بعد أن طلب من زوجته رُقيّة إعداد وجبة من الطعام الساخن لعابر السبيل، وأن تملأ وعاءً بالماء الساخن وتذهب به إلى حمّام «المندرة». تنهض رُقيّة واضعة طفلها الرضيع بجوار أخويه النائمين على سرير عريض من جريد النخل. تفعل ما أمرها به زوجها. تتّجه إلى المندرة، تنقر على بابها الخشبي في إشارة إلى انتهائها من إعداد دورة المياه. يتقدّم عبد الحميد أمام الغريب، يرشده إلى مكان دورة مياه دون سقف ، بجوار المندرة قائلاً:

ـ خذ راحتك... وعندما تنتهي، أطرق على باب «المحلّ» مرّتين من الداخل.

أثار انتباه عبد الحميد كلمات غير واضحة، تمتم بها الغريب قبيل دخوله إلى غرفة صغيرة، ذات جدران طينيّة، يستند إلى إحدى حوائطها «كانون»، يحمل وعاء نحاسيًّا كبيرًا مملوءًا بالمياه الساخنة، يشتعل أسفله قطع من الحطب و«الجلّة»، يرقد على فوهة حفرة قضاء الحاجة، كرسيّ خشبيّ صغير ملامس للأرض، بجواره قطعة مربّعة من الصابون، ولحاء رقيق من جذع نخلة، وضع الغريب ملابسه عن جسد نحيف، ذي ظهرٍ مسطّرٍ بخيوط، كأنّها أثر ليس بقديم لسياط.. وبعد أن أتمّ اغتساله، ارتدى ما كان معلّقًا خلف الباب، وطرق الباب كما أخبره



Twitter: @ketab_n

مضيفه. يأتيه صوت عبد الحميد قائلاً:

ـ تفضل.

يتقدّم الصنهاجي إلى المندرة، ويجلس الاثنان مفترشين الأرض، ينظر كلّ واحد منهما إلى الآخر، فها هو الغريب مهندم في جلباب الشيخ عبد الحميد، وقد تغيّرت هيئته، ولمع وجهه أسفل تلك الطاقيّة الصوفيّة؛ وذلك الجلباب ذو الكنار الأسود حول الرقبة والأكمام، يميّز أصحاب الشأن في العائلات الصعيديّة. يهمّ عبد الحميد بالكلام لولا طرْقات خفيفة على الباب الداخلي، فيستأذن لإحضار الطعام. وضع الشيخ صينيّة نحاسيّة كبيرة، على صفحتها أطباق الأرزّ والمرق الساخن. وطبق عميق ذو سائل أخضر لزج، تطفو على سطحه بقايا ثوم مجروش؛ وإلى جانبه الخبز الأسمر المنتفخ كقطعة من الحجارة وبنعومة القطن. يمدّ عبد الحميد يده إلى وعاء فخّاري أسود. يرفع غطاءه، ويضعه أمام الضيف بما يحتويه من قطع اللحم، قائلاً بابتسامة على وجهه:

ـ سَمِّ الله وابدأ...

وجد عبد الحميد ألفة لم يعرف لها سببًا تجاه ضيفه، يراقبه يتناول الطعام بشهيّة تسعد من يتّصف بالكرم! يتمّان تناول الطعام، فينهض عبد الحميد حاملاً الصينيّة، معطيًا إيّاها إلى زوجته. تنتظره خلف الباب بإبريق المياه الساخنة و«طشته» النحاسي. يجلس الاثنان أمام برّاد الشاي في سكون. يضّجع عبد الحميد على جانبه، والشفق الأحمر السابق على ضوء النهار تغادر ظلاله نوافذ المندرة وجدرانها. تبحث لها عن أرض أخرى. يصبّ عبد الحميد الشاي الأسود في كوب زجاجي صغير، يقدّمه للصنهاجي المثقلة جفونه بالرغبة في النوم،



Twitter: @ketab_n

ولكنّه يجاهد كي يبقى متيقّظًا. يتناول ما بيده في هدوء وبصره شاخص إلى الأرض، قبل أن يباغته عبد الحميد بسؤاله عن اسمه.

ـ اسمي أحمد... الشيخ أحمد الصنهاجي.

يردّد عبد الحميد الاسم بصوت خفيض، وهو ينظر إلى عينيّ الصنهاجي المجهدة. لم يشأ أن يثقل عليه بأسئلة أخرى، يدعه يرتاح قليلاً حتى يرجع بعد الظهيرة من مدرسته كي يكملا حديثهما. يحضّر له ما يتدثّر به ويقيه برد الصباح ثم يذهب إلى منامته. يجد زوجته في انتظاره بأسئلة عن هذا الغريب، ومن أين يعرفه، حتى إذا ما انتهت ينظر إليها عبد الحميد قائلاً في اقتضاب:

ـ عابر سبيل...

لم تلحّ عليه رُقيّة، فهي تعلم طبائع زوجها، آثرت السلامة وأطبقت صامتة، وهي تعدّ له حقيبة صغيرة بها أوراق وكتب يحتاجها في عمله بمدرسة القرية.



Twitter: @ketab_n

# نير الثور

تدبّ الحركة في بيت أبي اليزيد كلّ يوم عند ظهور أوّل خيط للنهار، تبدأ النسوة في الاستيقاظ قبل رجالهنّ. يضعن الأواني النحاسيّة الكبيرة على «كوانين» النار، وتُملأ الأباريق بالمياه الساخنة للإغتسال، يليها إعداد طعام الإفطار لجميع من في الدار، يتحلّقون جلوسًا على الأرض، حول صواني نحاسيّة كبيرة، إلّا أبو اليزيد... لا يغادر جناحه في آخر الدار، تقوم على خدمته رُقيّة ـ زوجة ابنه عبد الحميد ـ بعد وفاة آخر زوجاته الثلاث، فتدلف إليه ملقية بالصباح وهي تحمل بين يديها «ماجور» من اللبن، يتجرّعه أبو اليزيد، ثم يقوم بعدها للإغتسال وتناول الإفطار وحده في غرفته. ينتظره أبناؤه مع مواشيهم أمام بوّابة الدار الخشبيّة الضخمة، يخرج إليهم متقدّمًا الركب على بغلته، حتى يصلوا إلى أرضه الممتدّة إلى حدود القرى المجاورة. تخلو الدار من الجميع وتبقى النسوة، بعضهنّ ينظّف حظائر البهائم الخاوية، وأخريات جالسات أمام أفران الخبيز وكوانين الطبخ.

ولكن هذا اليوم يختلف عن باقي الأيّام. يستيقظ أبو اليزيد على



Twitter: @ketab_n

صوت ابنه عبد الحميد قبل مغادرته إلى المدرسة، يخبر أباه بوجود ضيف في داره، يستريح في المندرة حتى يرجع من عمله بعد الظهيرة. يصمت الرجل العجوز. يتأمّل ابنه الواقف أمامه، شاخصًا بصره إلى الأرض وكأنّه ما زال طفلاً صغيرًا. يسأله أبو اليزيد قائلاً بتهكّم:

ـ ده شيخ من المشايخ أصحابك يا ولدي؟

يجيبه عبد الحميد بهدوء بأنّه غريب عن بلادهم. يصمت الأب قليلاً مرّة أخرى، قبل أن يهزّ رأسه بالموافقة على بقاء الغريب في داره، فينصرف عبد الحميد إلى عمله، بعد أن طلب من زوجته توخّي الحذر، وإخبار حريم الدار بوجود ضيف غريب في المندرة، وألّا تعلو أصواتهنّ. ويبقى ابنه طٰه تحت إمرة الضيف إن احتاج شيئًا بعد استيقاظه، كما أمره أبو اليزيد.

تهدأ الدار بعد خروج الرجال وانشغال النساء بعملهنّ المعتاد، يدلف طٰه كلّ فترة إلى المندرة بهدوء. يطمئنّ على ضيف أبيه.. حتى إذا اشتدّت حرارة ما قبل الظهيرة، ينهض الصنهاجي. يفتح عينيه على الجدران المطليّة بالجير الأزرق، يتأمّل مكانه، الذي شقّ ضوء النهار طريقًا له بين فرجات الأبواب والنوافذ. يُرهف السمع وهو ينظر إلى الباب الداخلي. ثمّة دبيب أقدام صغيرة تقترب بهدوء وحذر منه. ينفتح الباب عن طفل صغير، مستدير الجسد، يبلغ من العمر سبعة أعوام، عرفه الصنهاجي من ملامحه الشبيهة بملامح عبد الحميد، عرف بعدها أنّ تشابه نسل أبي اليزيد في تلك الملامح الثابتة هو ما يميّزهم جميعًا. يلقي الصغير بالسلام، فهو رجل في غياب أبيه كما عوّده دائمًا. يخفي اضطرابه عند رؤيته للشابّ الأسود يشير إليه بالدخول. يصافحه الطفل الصغير ويخبره باسمه. يربت الصنهاجي على كتفه. يطلب منه أن يتقدّمه إلى المسجد، يغادره طٰه من دون كلمة وكأنّه لم



Twitter: @ketab_n

يسمع شيئًا. يأتي بعد برهة بإناء من اللبن وخبز ساخن وطبق من الجبن. وقر في قلب الصنهاجي أصل أصحاب البيت، فتلك التقاليد يعلمها عن كرم قبائل يعرفها في صحراء قاحلة. يتذكّر نصيحة شيخه التيجاني بأن يستقرّ في جنوب مصر، فعاداتهم تتطابق مع عادات الأعراب. يتناول الصنهاجي إفطاره ثم يرافق الصغير إلى المسجد. يلحق بهم عبد الحميد بعد أن رجع من عمله. يسلّم على الصنهاجي، ويأمر ابنه بالرجوع إلى البيت ليأتي ببغلته، وعليها طعام غداء إخوته وأبيه في أرضهم.

يتفرّق أبناء أبي اليزيد بين الحقول. يؤدّون أعمالهم التي اعتادوا عليها كلّ يوم، ويبقى الأب مفترشًا الأرض في عشّة من الخوص، منصوبة أسفل شجرة نبق بجوار الساقية، يحضّر له ابنه خليفة النرجيلة، وبرّاد الشاي. يذهب بعدها إلى الساقية، يربط نير الثور بعمودها الخشبي، فتبدأ المياه بالتدفّق في مجرى صغير. يسير بين سيقان الزرع الأخضر مع ضربات بطيئة بخيزرانة خليفة على مؤخّرة الثور معصوب العينين. يمرّ عبد الحميد والصنهاجي في طريقهما إلى عشّة أبي اليزيد بباقي إخوته، المنكبّين بجذوعهم إلى الأرض، منهم من «يعزق» أو يغرس أو يسقي الأرض، فيفتح لها قنايا الماء. يلوّح لهم من بعيد وهو يسير بجوار الغريب. يحمل «مقطفًا» به بعض الخبز الساخن والجبن المالح والبيض المسلوق، يدخل إلى أبيه ويقبّل يده، يلقي العجوز بالسلام على هذا الشابّ الواقف أمامه وهو مضطجع إلى الأرض. يتفحّصه مليًّا، يشير إليه بالجلوس جواره، فما كان ليجلس الصنهاجي قبل أن يؤذن له، بعد أن علم مكانة الأب من أوّل نظرة نظر إليه بها. ردّد أبو اليزيد عبارات الترحيب باقتضاب، مع دخول الأخوة مسرعين إلى «الخصّ»، يتناولون غداءهم بعد أن أطعموا مواشيهم. يتحلّقون



Twitter: @ketab_n

حول أبيهم في صمت. ينظرون إلى الشابّ الأسود خفية بأطراف أعينهم. يرتشفون الشاي الأسود بتلذّذ. فلا أفضل منه كي يُذهب رائحة البصل الأخضر من أنفاسهم! يبادر الأب بسؤال الصنهاجي عن اسمه ومن أين أتى؟ يجيبه الصنهاجي بأنّه قادم من بلاد بعيدة عنهم، تُسمّى «السنوغال»، وأنّه قد أتى في قافلة متّجهة إلى الحجاز ولكنّه أراد البقاء في مصر. تظهر خيالات سخرية على وجوه الحاضرين من حروف كلماته الممطوطة، ولهجته الحادّة غير المألوفة لهم.

ـ الشيخ أحمد الصنها.. ممم.. السنغالي. ممم. من السنغال... أهه.

يردّد أبو اليزيد كلمة «السنغالي» وهو ينظر إلى عبد الحميد، متسائلاً إن كان يعلم شيئًا عن تلك البلد. ولكن إجابة الابن عن جغرافيا تلك البلد لم تشبع فضول الأب، ففراسة الأمّي أنبأته بوجود خطب ما في هذا الوافد الجديد.

ـ تنوّر دارنا يا سنغالي.

ينهي أبو اليزيد الحديث بلقب ارتبط بالصنهاجي طيلة حياته. فيغادر الأبناء إلى الحقول. يتمّون أعمالاً اعتادوا عليها كلّ يوم من أيّام متشابهة. تنتهي وقت غروب الشمس. يرجعون إلى الدار وقد أعدّت نساؤهم المياه الساخنة والطعام الذي لا يخلو من طيور أو لحوم تجود بها حظائر البيت الكبير.



Twitter: @ketab_n

# يوم آخر

يعلم عبد الحميد ما يدور في ذهن أبيه، فلن يقبل العجوز بوجود شخص في داره لا يعلم عنه شيئًا، والأقوال تنتشر في القرية الصغيرة بسرعة الريح، وهو لا يريد أن يخوض أهل القرية في سيرته، ويدخل في دائرة من الإشاعات، يمكن أن تحملها ألسنة مشايخ وعمد القرى والمديريّات، إلى أذان أولي الأمر في قصورهم. ولن تفلح معهم نقوده، أو رشاه من المواشي أو أجولة الغلال في إسكاتهم، كما كان يفعل في الماضي، كي يغضّوا الطرف عن أبنائه في مرّات كثيرة، كان يمكن أن يفقد أحدهم في أعمال السخرة أو الالتحاق بالجيش، يساقون إلى حروب في بلاد بعيدة، لا يرجع في الغالب منها أحد. يعزم عبد الحميد أمره، يتأبّط ذراع السنغالي بعد صلاة العشاء، يسير به في دروب وأزقّة القرية النائمة، يشير إلى شارع ضيّق خلف دارهم، يحكي له عن بيوت جيرانهم المقامة على أرض تنازل أبوه لهم عنها. تأخذه قدماه إلى الجانب الجنوبي من القرية. يسكن حواريها قوم فقراء الحال، يعملون بالكرْي في مواسم جنْي القطن أو كسر القصب،



Twitter: @ketab_n

غالبيّتهم مجهولو الأصل، أو يمتهنون أعمالاً لا يقبل بها غيرهم، فها هو درب «المغسّلين» أو من يعملون في تغسيل الموتى وتكفينهم، يليه درب الحلّاقين، ثم الطوّابين، وآخر للكلّافين، والقفّاصين والفواخريّة...

يسمع السنغالي بإنصات واهتمام إلى تصنيف القرية الهادئة، يصطدم بصره ببوّابة خشبيّة ضخمة، لا يميّز ملامحها في الظلام، تتوسّط سور حجري عال، يمنع رؤية ما خلفه. يضحك عبد الحميد وهو يرى السنغالي قد فَغَر فاه من الدهشة. فيخبره عن كنيسة «العذراء». أكبر كنيسة في نواحي قنا كلّها. بناها البرنس داوود باشا، بعد أن أتمّ بناء مدرسته الشهيرة والوحيدة في المديريّة كلّها.. تلفحهم نسمات من ليل شتاء قارص البرودة، فيتدثّران بعباءتيهما ويسيران بمحاذاة الترعة في طريقهما إلى المندرة. يشير عبد الحميد إلى طاحونة مجاورة لدارهم، يؤجّرها والده إلى جيرانهم في الدرب، فهو ائتمن جيرتهم منذ زمن، ولن يبخل عليهم بمورد رزق لهم.

يصبّ عبد الحميد الشاي ويقدّمه إلى السنغالي. تدبّ الحرارة في جسديهما، ويعمّ الصمت المكان، قبل أن يقطعه عبد الحميد بسؤاله عمّا يدور في ذهن ضيفه، وما سبب تركه للقافلة، والترحال إلى قرية مجهولة في باطن الصعيد. يعلم سكّانها بعضهم بعضًا؟ ولا يمكث الغريب فيها أكثر من ليلة ونهار. يبدأون بعدها في البحث والتنقيب عن فصله وأصله؟ وهو الآن ليس في أيّ دار بالقرية... إنّه في دار أبي اليزيد النجدي. رجل ذو نفوذ وسطوة، يعرفه أبناء الليل قبل أهل البلد. فهم يحرسون أرضه من الغجر، في مواسم موالد يجوبون لها بلادًا كثيرة، ولا يستنكفون عن سرقة أهلها.

ينصت السنغاليُ إلى كلمات عبد الحميد، مع رشفات من كوب



Twitter: @ketab_n

الشاي مرّة أخرى بصوت مزعج، وقد صدق حدسه في تلك العائلة. يعطيه عبد الحميد وعدًا وكلمة شرف، بأنّ ما سيقوله لن يخرج إلى أحد سوى أبيه، قليل الكلام وكاتم الأسرار. يبدأ السنغالي في قصّ حكايته منذ قدوم الاحتلال إلى بلاده، وهروبه إلى تلال المرابطين وأخذ العهد والوعد من شيخه التيجاني... يستمع عبد الحميد مذهولاً. لم يرمش لعينيه الجاحظتين من مقلتيهما جفن، حتى انتهى السنغالي من قصّته قائلاً:

ـ ويشهد الله أنّني لم أهرب من خطأ يعاقبني عليه.

ـ الخطأ كلمة نصف بها فِعْلة، لنهوّن على النفْس من خطيئة تؤرق ضمير المؤمن.

يعمّ السكون المندرة الواسعة المضاءة بكلوب أبيض. يتدلّى بسلسلة معدنيّة من سقفها الخشبي المجدول بجريد النخل، يرتشف عبد الحميد آخر ما في كوب الشاي، يبتسم في وجه السنغالي. يطمئنه بأنّه في مكان آمن، لا يمكن أن تصل إليه مثل تلك الأخبار. يطلب منه الراحة والصبر حتى يخبر أباه، فينظر في الأمر.

يغادر عبد الحميد إلى جناح أبيه في هدوء، حتى لا يشعر به باقي إخوته، النائمين كالأموات بعد انتصاف الليل. يطرق بنقرات خفيفة على الباب، حتى إن سمع سعال أبيه يدخل إليه، منفرج الوجه، تعلوه طمأنينة بادية على ملامحه. يلحظ الأب الممدّد على سريره حال ولده، فيعتدل وقد علم أنّ حديثه مع ابنه سيطول. يرتدي ملفّه كي يدفّئ عظامه العجوزة. يجلس على حصير من الحلف الأصفر الجافّ، ويعدّ له عبد الحميد نرجيلته، وبرّادًا من الشاي. يبدأ حكاية السنغالي، فينصت أبو اليزيد، الذى لم يكن بأحسن حال من ابنه عندما سمع ما



Twitter: @ketab_n

حكاه له السنغالي. دهشة وحيرة أصابت الأب. أنصت أبو اليزيد باهتمام لكلّ كلمة ينطق بها الابن، لم يتوقّف عبد الحميد عن حكي ما عرفه إلّا قبل الفجر بقليل. يعده العجوز بكتمان السرّ، وما كان الابن في انتظار وعد من أبيه. ينهض عبد الحميد إلى المسجد. يرفع الأذان فيبدأ يوم جديد. صباحه بارد، اعتادت عليه عائلة أبي اليزيد...في وجود أحمد السنغالي.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الفصل الثاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# دهاء العواجيز

ترتفع أصوات حوافر الماشية، وهي تخرج من حظائرها، مع نسمات باردة مشبعة برائحة روثها المختلط بندى النبات، يتقدّم أبو اليزيد أبناءه على بغلته ككلّ يوم، يسوقون بهائمهم لترعى في أرضهم الممتدّة حتى أطراف القرى المجاورة. ولكن أيّامهم التي اعتادوا عليها تغيّرت منذ شهور قليلة، بوجود أحمد السنغالي، هذا الوافد الجديد. يسكن مندرة أبي اليزيد وسط ترقّب من الأبناء. يفاجأ السنغالي بخليفة يدخل إليه ذات صباح، ينقل له رغبة أبيه في أن يرافقهم إلى الحقل كلّ يوم. يبقى السنغالي في عشّة أبي اليزيد بعد أن تفرّق الأبناء للزرع والحرث والسقيا. يعد خليفة الشاي والنرجيلة كما تعوَّد وكأنّها شغله الشاغل. يتفرّس أبو اليزيد في ملامح الجالس قبالته قليلاً، ثم يطلب منه أن يحتطب بالفأس، عند آخر أشجار الجازورين المحيطة بالغيط، يطيع السنغالي أمر أبي اليزيد، ويشمّر عن ساعديه، ويبدأ في قطع فروع الأشجار إلى أن ينتصف النهار. يأتي لهم عبد الحميد بالغداء، فيتجمّع الأبناء في «خصّ» الأب.



Twitter: @ketab_n

يعلم أبو اليزيد مكر أبنائه، فهم لا يتحدّثون مع السنغالي في حضرته، يرفضون وجود غريب بينهم. عيونهم مصوّبة إلى ما يستأجره النصارى من أرضه وطاحونته. يخشون أن يهب هذا الأسود أرضًا مثلهم، فتقتطع من نصيبهم في إرثهم بعد مماته. تتوارد تلك الأفكار تباعًا في عقل العجوز وهو ينفث دخان النرجيلة بهدوء. وقد وضع كلّ ما يقوم به السنغالي تحت عينيه. تستأذن الشمس من أرض أبي اليزيد في المغيب، فيرجع الجميع إلى الدار، ويدلف السنغالي إلى المندرة، يستقبله طه بإناء من الماء الساخن، وملابس نظيفة كما أمره أبيه.

تفوح في جنبات الدار رائحة الثوم المجروش بالسمن البلدي المقدوح، وأبخرة المرق واللحم. يجلس الجميع حول صواني نحاسيّة مستديرة، يغيب عنهم عبد الحميد في أيّام عديدة. يتناول فيها غداءه مع صديقه الجديد في مندرة الدار، ويبقى أبو اليزيد وحيدًا في جناحه أمام طعامه. يتّجه الجميع إلى المسجد لصلاة العشاء، يؤمّهم الشيخ عبد الحميد. يلتفّ المصلّون حول الشابّ الأسمر بعد انتهاء الصلاة، يسلّمون عليه. وعلامات الحيرة تعلو وجوههم. يلاحظون طول فترة بقائه في دار سيّد قريتهم. يرون شيخهم وإخوته يسلّمون عليه ويتّجهون جميعًا إلى دارهم، وكأنّه واحد من عائلة أبي اليزيد. يفاجأ الأبناء بأبيهم في مندرة الدار، في إحدى الليالي الشتويّة الباردة، يجلس أمام منقل من النار يستدفئ به، يضطجع بجانبه على حُصُرٍ ومساند من صوف الغنم الملوّن، فرشها له أحفاده الذكور المحيطون به. ترتسم علامات الراحة على وجوه الأبناء. ويعلمون أنّ أباهم في مزاج طيّب، وسيتحفهم بحكاياه عن أصولهم العربيّة، وعن مواعظ يتناقلها الكبار على مرّ أجيال عائلته. يلقون السلام ويقبّلون يد الأب. يجلسون في حلقة كبيرة عن يساره ويمينه، يجلس السنغالي قبالته، فيبادره أبو اليزيد



Twitter: @ketab_n

وهو يشير إلى أحفاده، يخبره باسم كلّ واحد منهم واسم أبيه. تظهر ابتسامة صافية على وجهه المنحوت فيه كهوف الزمن، قبل أن يكمل بفخر يعلمه أبناؤه عنه عندما يتحدّث عن عزوة عائلته وسطوتها، وكيف لا يكون الرجل رجلاً دون زوجة تملأ داره بالأولاد، ودون أرض يشقّ تربتها ليبذر فيها وتملأ بيته بالخير، فلا يمكن للرجل أن يكون حكيمًا أو مسموع الكلمة وهو بين الناس أعزب، الزوجة تهبه الحكمة، والمال يهبه القوّة، والإيمان يهبه الهيبة.

ينصت السنغالي باهتمام إلى محدّثه. يعلم أنّ هناك آتيًا يمهّد له العجوز، يتناول أبو اليزيد كوب الشاي من يد عبد الحميد، وينظر إلى باقي أبنائه الصمّ البكم، فلم تنفرج شفاههم بكلمة منذ رأوا السنغالي. يرجع أبو اليزيد ببصره إلى الشابّ الأسمر. يبتسم في ودٍّ ويخبره بأنّ وجوده في داره مرتبط بزواجه. لم يتمالك الأبناء أنفسهم. بدأت النظرات ترسل الكلمات فيما بينهم. تجاهلهم الأب متفرّسًا ملامح السنغالي، علّه يقرأ ما في جوفه. يُجيبه السنغالي بتردّد قائلاً:

ـ ولكن يا حاجّ...

لم يدعه أبو اليزيد يكمل جملته. تبدّلت ملامحه فجأة إلى العبوس، فكلمة «ولكن» غير معتاد على سماعها من أحد. يلقي على مسامع الحاضرين قراره بالزواج من ابنة صديقه الحاجّ أمين السماعني، وقد اختار أختها زوجة للسنغالي. يشتدّ الارتباك وسط الحاضرين، يهمّ السنغالي بالكلام إلّا أنّ نظرة أسكتته من عيني عبد الحميد. فهو يعلم أنّ أباه أعدّ كلّ شيء سلفًا، سيبني دارًا لصديقه من باكر، واسم أحمد السنغالي سيكون موجودًا في سجلّات رسميّة. لا يمكن الشكّ فيها، أو الاستقصاء عنها في ظلّ توحّد مصر والسودان. بعد نفحة لأحد كتبة المديريّة بقنا، لم يجرؤ أحد من الأبناء أن يبدي حتى امتعاضه ممّا



Twitter: @ketab_n

سمع أمام الأب، ولكنّ المرجل ينفجر خلف جدران الغرف المغلقة بعد انتهاء جلستهم. يفتك السخط بمزاج من يرون في هذا الأسود تهديدًا لملكهم.

ـ أبوك ناوي على إيه مع الغريب ده يا شهدي!؟

باستنكار شديد مشوب بالغضب، تساءلت أمينة وهي تدثّر كلًّا من ابنيها الصغيرين، الراقدين على سرير عريض من جريد النخل، بلحاف سميك من القطن، تتراقص على صفحته صور الورود الخضراء والحمراء، تدلّ على مسحة بسيطة من الأناقة الريفيّة، في الغرفة ذات الجدران الطينيّة المطليّة بالجير الأصفر. ينظر إليها شهدي والشرر يتطاير من عينيه، محذّرًا إيّاها، فمزاجه لن يحتمل النكد، وطباع حماها ليست بخافية عليها. فعجْز أبناء أبي اليزيد في مراجعة قراراته معلوم للجميع. وكزوجة أمّيّة لا تعرف عن الحياة سوى زوجها وأبنائها وميراثهم، لم تكف عن إظهار امتعاضها وحنقها على والد زوجها المعتوه، الذي يعطي أرضه لكلّ من هبّ ودبّ، أرضًا ستكون في يوم من الأيّام ملكًا لأطفالها. يعنّفها شهدي مرّة أخرى، يحاول أن يخفي عجزه أمام أبيه قائلاً:

ـ دي أرضه... يعمل فيها ما بدا له.

يتجنّب شهدي النظر إلى أمينة. يوليها ظهره هربًا ممّا يفضح عجزه وضعفه. يعبر بابًا يفصل حجرة طفليه عن حجرة نومه. تلحق به زوجته وتغلق الباب خلفها. تكمل تحريضه فتذكّره بما وهبه أبوه لنصارى الدرب، من أرض، ستنتقص من نصيبه وأولاده في إرثٍ تنتظره ممّن بات مماته وشيكًا بين يوم وآخر... لمن قارب السبعين من العمر. لم يدرِ شهدي بماذا يجيب على زوجته. فكلماتها وجدت هوى خفيًا في



Twitter: @ketab_n

نفسه يداعب طمعه، على الرّغم من قسوتها وقلّة احترامها لمن يأويهما وأبنائهما في داره، يصمت وهو مطرق الرأس، عاقدًا حاجبيه في وجه زوجته المنتصبة أمام صندوق خشبي صغير، باحثة في جوفه عن قميص أبيض قصير، يشبه جلاليب أهل النوبة، تلقيه في وجه زوجها. وتجهز عليه بإهانة تعوّد عليها. تصفه بالجبن والخوف وقلّة الحيلة. لم يحتمل، فينفجر فيها قائلاً:

ـ كفاية... عاوز أتخمد.

تتحوّل أمينة بسرعة إلى زوجة خانعة. يتغيّر صوتها، على نقيض ما كانت عليه منذ برهة، تضحك بدلال أنثوي وتقذف بجسدها إلى جوف السرير بعد أن صبّت غضبها من حماها على ابنه.

وفي مخدع حامد، كان يدور حوار من نوع آخر، بينه وبين زوجته رشيدة، أمّ الثلاث بنات، طافت على شيوخ البلاد كي يرزقها الله بالأولاد، فلم يتمّ لها ولزوجها ما أرادت، إلّا بعد أن نصحتها إحداهنّ بالذهاب إلى مقام الشيخ سليم. رضيت أخيرًا بما أعطاه لها الله من بنات. ترى ببساطة ساذجة أنّ ما يفعله حماها مع الغرباء هو بدافع من أخلاقه الحسنة. وكرم أخلاقه. وأنّ دخوله الجنّة سيكون بسبب ما يقدّمه من عون للغريب والقريب. دائمًا ما تدعو له أن يحميه من مكر إخوة زوجها. فالحنق والغضب يأكل قلوبهم من تآكل أرض أبيهم. ينتظر بعض منهم مماته كي يحصل على نصيبه منها وكأنّها أرض الفردوس. لم يُعنَ حامد بما يفعله أبوه، هذه أرضه وهذا ماله، يفعل بهما ما يشاء، فيكفيه هو وزوجته وباقي إخوته وزوجاتهم ما تجود به الأرض عليهم! ولكن ما استوقف رشيدة، وأوقعها في حيرة هو رغبة حماها في الزواج، واشتهاؤه النساء بعد هذا العمر، تتّكئ برأسها على ساق زوجها، تردّد عليه ما سمعته من زوجة أخيه قناوي، تتبدّل سحنة



Twitter: @ketab_n

حامد، ويظهر الغضب على وجهه، فكيف لها أن تردّد مثل هذا الكلام الفارغ، وهي تعلم سبب كره قناوي وزوجته للجميع، حرمه الله من نعمة البنين والبنات، فنهش الحسد قلبه. يزداد وجهه سوادًا عندما يرى أبناء إخوته حول آبائهم في صحن الدار. تطأطئ رشيدة رأسها خجلاً، وتهرب من كلمات زوجها، فتسرع إلى غرفة بناتها تطمئنّ عليهنّ، تدثّرهنّ من برد الشتاء القارص، ترجع إليه حاملة في يدها طبقًا من التين المغسول، تضعه بينها وبين زوجها، على حصيرة، مجدولة من نبات الحلف الملوّن. يتناوب الاثنان إطعام أحدهما للآخر. حتى يفرغ ما في الطبق من تين، ترقد رشيدة مستلقية على الأرض، تضع كفّيها خلف رأسها. تنظر إلى عينيّ حامد. فيقترب منها مضطجّعًا بجوارها. يفزعهما فجأة صوت النقرات الخافتة المتسارعة على الباب، عكّرت عليهما صفو خلوتهما بعد حبّات التين. ينهض حامد منتفضًا فاتحًا الباب، يفاجأ بزين زوجة أخيه قناوي. تتلعثم مرتعشة. تطلب المساعدة في إفاقة زوجها الغائب عن الوعي، يسرع حامد إلى منامة أخيه، ومن خلفه رشيدة في إثر زين. يجده راقدًا على الأرض من دون حراك، يتصبّب عرقًا، ضامًّا ساقيه إلى صدره كطفل في رحم أمّه. يزعق حامد باسمه. فيمتقع وجهه وهو يشعر ببرودة جسد قناوي. يقلب رأسه بين كفّيه متسائلاً عمّا حدث له، تهزّ زين رأسها ببلاهة وعلامات الفزع بادية على بدنها المرتعش، يطلب من زوجته أن تأتي له بكوب من العسل الأسود، وآخر من الماء، وعدد من حبّات الليمون. يحمل جسد أخيه بمساعدة زين واضعًا إيّاه على سريره، تأتي له رشيدة بما طلب منها، فيخلط العسل بالماء. يعصر حبّات الليمون في الكوب. يسكب الخليط ببطء في فم أخيه الغائب عن الوعي، يحني رأسه ليتأكّد من وصول السائل إلى جوف قناوي. وعلى الرّغم من الحركة السريعة



Twitter: @ketab_n

والمفاجئة في جنبات الدار، إلّا أنّ أحدًا من قاطنيها لم يشعر بما يدور في منامة قناوي وزين، حرصًا على عدم إيقاظ الأب، ليس احترامًا بقدر ما هو خوف من ثورته، والتي في أحيان كثيرة يضرب الأب ابنه البالغ والمتزوّج أمام الجميع وكأنّه خادم في الدار.

جلس كلٌّ من حامد ورشيدة وزين متحلّقين حول جسد قناوي الممدّد على السرير، في انتظار أن يستفيق، ولكنّه فاجأهم بانتفاضة سريعة، أعقبها بإخراج ما في جوفه مرّة واحدة، موجّهًا رأسه إلى الأرض. تهمّ زين بمساعدته على الاستلقاء مرّة أخرى. فتمنعها إشارة من يد حامد، حتى ينتهي أخيه من إفراغ جوفه ممّا فيه من سائل أصفر قانٍ ذي رائحة نفّاذة. تصمت زوجة قناوي، وقد علت وجهها علامات الخوف والخجل. تلاحظ نظرات رشيدة المصوّبة إليها، كأنّها تعاتبها دون كلمات عن شيء ما. يعمّ السكون الغرفة لحظات قليلة، إلى أن يقطعه سعال قناوي، يعتدل من رقدته، وقد بدأ يدرك ما يحيط به. تنتظم أنفاسه ببطء.

ـ أنا بقيت كويس الحمد لله... ما تقلقوش...

قالها قناوي بوهن، ينمّ عن استرجاع بعض عافيته، بعد أن أخرج ما في جوفه. يطلب حامد من زوجته رشيدة الذهاب إلى حجرتهما للاطمئنان على البنات. ويلتفت إلى زين سائلاً إيّاها كوبًا من الليمون الساخن، تفهم المرأتان رغبة حامد في الانفراد بأخيه، فتغادران.

ينظر حامد إلى قناوي بحنق بدا على صوته، وغضب يتطاير من عينيه. يعنّفه وهو جالس بجواره على السرير، فقد اعتاد على تلك الحوادث الليليّة كلّ فترة. لم يتوقّف قناوي عن الإتيان بكلّ شيء، حتى وإن بدا غريبًا خارجًا عمّا يألفه البشر. يعطيه «كوفي» الحلّاق



Twitter: @ketab_n

وصفة من وصفاته. فتفعل بجسده كلّ مرّة أفاعيل يمكن أن تفضحه بين أهل الدار. ولكن قناوي لا يلقي لها بالاً، فرغبته في إنجاب أبناء تعمي بصيرته وعقله المحدود عن تقدير سوء عاقبة أفعاله، يستمع لوصفات وطرق في المعاشرة من مكاريين وفلّاحين. لا يستنكف من الجلوس معهم والتحدّث إليهم في أمور يعتبرها ذوو العقول مشينة.

تظهر علامات الانكسار على وجه قناوي. فيشيح بوجهه عن أخيه. يردّد حامد على مسامعه كلمات فقدت معانيها من كثرة تكرارها عن الصبر، فهو لم يتمّ عامًا على زواجه، وذلك نصيب ومقدور من الله. لم يحتمل قناوي أن يسمع في كلّ مرّة عظة عن التمسّك بالصبر، والرضا بما قسمه الله له، فكيف له أن يصبر وهو يرى أبناء إخوته يتقافزون حولهم، وهو يتناول طعامه وحيدًا مع امرأة عاقر، لا تلقِ بالاً لنظرات الشماتة المحيطة بهم من باقي إخوته كما يتوهّم! كيف له أن يرضى بنصيبه وأبوه سيتزوّج للمرّة السابعة، ربّما من فتاة يمكن أن تكون أصغر من أصغر أبنائه! أحلالٌ له وحرام عليه!!

لم يستطع قناوي إخفاء لهجته الحاسدة، أو بعض الحنق والغيرة البادية على صوته من دون جدوى. تقلّص وجه حامد، وظهرت عليه علامات الغضب والشفقة في الوقت نفسه. فحبّ حامد الشديد لأبيه يعرفه جميع إخوته. ينهض وقد يئس من قناوي، فقد تأكّد من أنّ الغيرة تبدّلت بحقد لا علاج له في قلب أخيه، ولن يفلح معه نصح أو كلام. يغادر إلى غرفته، فيجد رشيدة غطّت في نوم عميق، يضع يده على مؤخّرتها محرّكًا إيّاها، سائلاً لها عن حبّة من التين، يأتيه صوتها الناعس قائلة :

ـ ما فيش تين الليلة دي..



Twitter: @ketab_n

ـ الله ينكّد عليك يا قناوي.

قالها حامد وهو يتنهّد في حسرة. يلقي بجسده على السرير، لاعنًا كلًّا من كوفي الحلّاق وأخيه قناوي وزوجته زين، لم يدر أنّ هناك عينًا تتلصّص على ما حدث، من ثقب باب مغلق على نصحي وزوجته سيّدة، فوقع الأقدام في صحن الدار مهما كان خافتًا، لكنّه أيقظ الزوجة النائمة بنصف عين، بجوار زوجها الغارق في نومه بشخيره العالي. تترك فراشهما وتنصت من فرجة الباب، تشاهد حركة ظلال الأجساد في منامة قناوي، تعود بعدها إلى جوار كتلة اللحم المتكوّر. تمصمص الشفاه بشماتة على حال سلفتها العاقر، تغمض عينيها وتغطّ في نومها. وابتسامة صفراء تعلو وجهها حتى الفجر.



Twitter: @ketab_n

# دنانير السلطان

تتدفّق المياه العذبة من باطن الأرض عند تحريك يد الطلمبة الحديديّة صعودًا وهبوطًا. فمها ممدود وكأنّه فم إنسان ذو شفتين من الصلب، تنتصب في أعلى بئر عميق. يُجمع فيه فائض المياه المتدفّقة من ذلك الفم، تتوسّط الطلمبة ساحة بين «صحن» الدار وغرف النوم، وبين حظائر الماشية والدواجن وقاعة خزين الغلال والسمن والدقيق. تعوّدت نسوة الدار على صوت صرير حركة اليد المعدنيّة المعقوفة، يبدأ صراخها منذ ارتفاع صوت الشيخ عبد الحميد بأذان صلاة الفجر، من فوق المئذنة الخشبيّة لمسجد السبيل، تستيقظ النسوة قبل أزواجهنّ، يبدأن ما تعوّدن عليه منذ قدومهنّ إلى بيت أبي اليزيد، تملأ إحداهنّ أوعية النحاس بالماء. تضعها على الكانون الضخم، وتضرم النار أسفلها بأقراص من الجلّة وأعواد الحطب.. وأخرى تعصب رأسها بمنديل، تحمل ماجورًا من الفخّار الأسود إلى حظائر البهائم، تحلب الجاموس والأبقار.. وتحمل أخرى ماجورًا أحمر اللون وأكبر في الحجم، تملأه بدقيق القمح من قاعة الخزين، وتبدأ في العجن



Twitter: @ketab_n

والخبز، تساعدها سِلفة لها، تتسلّق السلّم الخشبي إلى سطح الدار، تلقي بأحمال من القشّ الجافّ، لمن تجلس أمام فرن ذي قبّة طينيّة، يستوي أسفلها باطن الفرن البلدي.

تحمل رُقيّة ماجور اللبن الدافئ، وتقف به أمام غرفة أبي اليزيد، حتى تسمع سعاله، فتنقر الباب. تدخل ملقية بتحيّة الصباح، فيتناول حموها الماجور قبل أن يردّ صباحها. يصعد به إلى فمه حتى وإن تجرّع ما فيه مرّة واحدة، ينظر إليها ويردّ التحيّة، مصحوبة بصوت تجشّؤٍ كريح مكتوم، وقطرات السائل الأبيض تتساقط من طرفي شاربه. تسرع زوجة الابن إلى صندوق خشبي ضخم، يرتكن أسفل جدار غرفة مطليّة بالجير الأزرق، ذات نقوش قصبيّة خضراء، تخترقها كوّة واسعة بأسياخ حديديّة كنافذة. تبدأ من أعلى الصندوق حتى آخر سقف الحجرة الشاهق، يقابله جدار يستند إليه سرير نحاسي. تحيطه ستائر شفّافة حول قوائمه الأربع، يتربّع أبو اليزيد في وسطه، منغرسًا في فرشته المخمليّة. ترقد بجوار جدار الغرفة نرجيلة طويلة من النحاس المشغول، ذات مخرجين للشاربين. لها قاعدة من الزجاج. مرسوم على أحد وجهيها شيخ عجوز، باسم الوجه، يعتمر طربوشًا أحمر ووشاحًا أزرق، يقابله على الوجه الآخر راقصة عارية تمامًا، إلّا من بنطال فضفاض يكشف أكثر ممّا يخفي، كجواري العصور القديمة، ينسدل شعرها الأسود مُخفيًا الجزء الأيمن من صدرها، تاركًا نصفها الأيسر عاريًا.

تفتح رُقيّة الصندوق ذا الحليات النحاسيّة العتيقة، تُخرج منه ملابس بيضاء، وجلبابًا من الصوف. تضعهم على منضدة بجوار المرآة الضخمة. تحتلّ حوافّها المعدنيّة الجدار الثالث من الغرفة، تجاورها «علّاقة» تتدلّى منها عباءتان، إحداهما سوداء اللون والأخرى بنّيّة بلون



Twitter: @ketab_n

العسل الأسود، تسكن تحتها بضع أزواج من «المنتوفلى». وأحذية مختلفة من جلود التماسيح والجاموس. اشتراهم أبو اليزيد من تجّار سودانيين يستقلّون مراكب تخترق بهم نهر النيل، ويمرّون على بنادر وقرى في طريقهم إلى سوق الجِمال في مصر.

يتفقّد أبو اليزيد حريم أبنائه في الصباح، كي يترك فسحة من الوقت لزوجتي ابنيه، المنهمكتين في نقل الأوعية النحاسيّة، المملوءة بالماء البارد والساخن، والصابون المعطّر إلى الحمّام الخاصّ به. يتجوّل العجوز في جنبات البيت، يستند بعصاه الغليظة بجوار طلمبة المياه، فتقف حريم الدار عند رؤيته. يستحثّهنّ على الانتهاء من إعداد أحمال الزيارات السنويّة لبناته المتزوّجات في بلاد مجاورة. يرسل كلّ واحد من أبنائه لزيارة إحدى بناته، محمّلاً إيّاه بالخبز والسمن البلدي والسكّر والجبن واللحم ومبلغ من المال، وكلّ ما يستطيع حمله من طيور. يتّجه كلٌّ منهم ممتطيًا حماره، تتبعه بغلتان حاملتان بـ «المقاطف»، في توقيت معلوم، مقدّر بمسافة الذهاب والعودة. فطرق القرى غير مأمونة ليلاً.

ينهض قناوي إلى بغلته يشدّ لجامها. بعد أن تناول الإفطار مع إخوته، وقد وُثِّقت أحماله على بغلتين أخريين، يخرج من بوّابة الدار الخشبيّة العتيقة ذات الأعمدة الحديديّة، وكأنّها باب من أبواب الحصون في العصور الوسطى يتحسّس طبنجته أسفل الصديري المحكم على صدره، يتّجه إلى جزيرة «الشيب» في وسط نهر النيل، يذهب إلى أخته سعاد وزوجها عيسى، يليه في الخروج بفترة وجيزة أخوه شهدي. يفعل مثل ما فعل أخوه، متّجهًا إلى فهيمة ـ كبرى بنات أبي اليزيد ـ وزوجها عبد الفضيل، القاطنين بقرية «مدرة». يغادر بعدهم نصحي إلى أخته عايدة وزوجها فخري بقرية «بنجة»، يرافقه حسين إلى فاطمة



Twitter: @ketab_n

وزوجها عامر بقرية «السلام»، يعقبهم خليفة إلى كلٍّ من أختيه إحسان وزوجها أحمد، وخديجة وزوجها جمال، القاطنتين في قرية «السدّ». وكعادة مثل هذا اليوم السنوي، فأوّل من يرجع هو نصحي، إذ المسافة قريبة من قرية «بنجة». وآخر من يرجع هو قناوي وخليفة. يعمّ السكون الدار مرّة أخرى، بعد يوم مشحون بزيارات سنويّة اعتاد عليها الجميع.

يستند أبو اليزيد إلى كتف طه. ينتظر رجوع أبنائه. يدخل مندرة بيته محييًا السنغالي، يمازحه على غير عادته. يسأله إن كان يعجبه الحال في داره؟ لم ينتظر إجابة منه، بل حوّل بصره إلى عبد الحميد. يأمره وصاحبه بمتابعة الحمّالين، كي ينقلوا التراب من أرض الطاحون. يبدأ الطوّابون في صنع معاجن لدقّ الطوب، ويحمل المكاريّون التبن والقشّ على ظهور البغال والحمير. فتتحوّل الأرض التي ستقام عليها دار السنغالي، إلى برك من معاجن الطمي المغمور بالماء، تتخمّر فتنتشر رائحتها النفّاذة، ويتحوّل لونها إلى الاخضرار، يصبّون ذلك الطين اللازب في قوالب خشبيّة، تشكّل حجم الطوب اللازم للبناء، تساعدهم شمس الصعيد الحامية في جفاف تلك القوالب بسرعة، تصبح بعدها جاهزة للبناء. يعدّ البنّاؤون آخر معجنة من الحُمرة والتبن والطمي، إنّها «المونة» التي توضع بين قوالب الطوب فتتماسك بقوّة بعد جفافها. كانت دار السنغالي سبب رزق للأجيرين من أهل القرية. فأهلها لا يبنون بيتًا كلّ يوم. بدأ النجّارون في صنع أبواب ونوافذ للدار، يجهّزون ألواح من خشب مطليّ بالجير الحيّ، كي يغطّي السقف قبل طبقة من الحمرة وجريد النخل.

لم يظهر أبو اليزيد طيلة الظهيرة، بعد هذه اللحظات الخاطفة في مندرة داره، حتى في وقت الغداء. لم يعرف السنغالي السبب في اختفاء أبي اليزيد. إلى أن أخبره عبد الحميد بصوت خفيض، وكأنّه



Twitter: @ketab_n

يفشي سرًّا، فأبوه يختفي كي يخفي ما يثقل قلبه من قلق على أبنائه، فلا يراه أحد إلّا حين رجوع آخرهم. يتعجّب السنغالي من ذلك الرجل، الذي يخشى أن يُظهر عاطفة فطر الله بها الإنسان، ويعتبرها ضعفًا وقلّة حيلة، فيستتر خلف جدار من الصرامة والجبروت، بعيدًا حتى عن أعين أقرب الناس إليه. لكنّه لم يشأ أن يسأل فيما لا يعنيه، فأطرق ساكنًا. يتناول لقيمات مع صديقه عبد الحميد وأخيه نصحي في صمت. ينهض ثلاثتهم بعدها إلى موقع الدار. يتابعون البنّائين وهم يشيّدون على أرض أبي اليزيد بيتًا للشيخ أحمد السنغالي.

بدأ أولاد العجوز في الرجوع من رحلاتهم واحدًا تلو الآخر، حتى وصل آخر الأبناء... قناوي. فيدخل إلى أبيه المفترش الأرض في غرفته، وقد اتّكأ على وسادة صوفيّة، ممسكًا بفم النرجيلة ينفث الدخان الكثيف من منخاره. يجلس الابن بين يديه في خنوع، يسأله أبوه عن أحوال أخته وأطفالها وزوجها؟ كما سأل باقي إخوته من قبل. يجيبه الابن باقتضاب بأنّ أحوالهم بخير. ويقبّل الجميع يديه. يغادر بإشارة من أبيه، فتدخل بعده زوجة عبد الحميد بصينيّة من الطعام، فحموها لن يتذوّق طعامًا إلّا بعد أن يرجع آخر ولد من أولاده، تضع الطعام أمامه وتسأله إن كان يريد شيئًا آخر؟ يبتسم لها ويسألها عن أطفالها، كجدّ يشتاق إلى أحفاده. تشعر رُقيّة دائمًا برقّة قلب حماها دون غيرها من زوجات الأبناء. يرغب في رؤية أحفاده، فيطلب منها أن يبسطوا له الحصر في المندرة، ويعدّوا له المنقل. وجودهم حوله يشعره بعزوة افتقدها وهو الوحيد الذي عاش حياته من دون أخ أو أخت.

يخرج الأحفاد من مهاجعهم، يحملون الحصير المجدول من الحلف الجافّ وسعف النخيل الملوّن. ترصّ البنات الصغيرات



Twitter: @ketab_n

الوسائد المنتفخة بنتف من القطن، يعلو صوت الأحفاد الصغار في رحابة المندرة الواسعة بألعابهم وأحاديثهم. لا يسكتون إلّا بدخول الكبار إليهم. يرجع كلٌّ من عبد الحميد وأحمد من المسجد، يتفاجأ السنغالي، فهو لم ير جلسة مثل هذه منذ أتى إلى عائلة أبي اليزيد إلّا مرّة واحدة، يجلس أبناء أبي اليزيد حول «المنقل» الكبير في دائرة واسعة، متّكئين على جنوبهم، يتجاذبون أطراف الحديث، يتلاعب الصغار، صبية وفتيات، كلٌّ مع من تروح له نفسه بالجلوس إلى جوار من يحبّ، حتى سكت الجميع عن الكلام والحركة مع سعال أبي اليزيد القادم من خلف الباب، ينفرج عنه بمشيته التؤدة، متّجهًا إلى تلك الحلقة في وسط المندرة، ينهض كلّ من كانوا جلوسًا. يهرول الأطفال تباعًا إلى جدّهم. يقبّلون يده الواحد تلو الآخر في انحناءة بسيطة. يلتفّون حوله، ويجلسون عن يمينه ويساره، يداعبهم الجدّ والصمت المطبق يلجم الكبار.

لم يعكّر صفو الجلسة سوى تململ قناوي. يحاول أن يظهر ابتسامته الصفراء، ولكنّها أبت إلّا أن تظهر عابسة على وجهه، يتجاهل أبو اليزيد تلك السحنة الجالسة بينهم، يسأل عبد الحميد عن ابنه الأكبر.. عبد الرحيم. فقد طالت غيبة خطاباته. ينتبه السنغالي عند سماعه بوجود ابن آخر لأبي اليزيد، لكن حيرته تبدّدت مع صوت أبي اليزيد قائلاً:

ـ عبد الرحيم ده يبقى الكبير... هو اتعلّم وأخد الشهادة العالية وبعدين سافر بلاد الخواجات يتعلّم منهم.

بدأت الأحداث تختفي من أبي اليزيد. لم يستطيع أن يكمل حكيه. فجهله بما يفعل ابنه أسكته! يرفع عبد الحميد الحَرَج عن أبيه، ويتلقّف الخيط من فمه. يحكي عن أخيه... عبد الرحيم، الذي أنهى



Twitter: @ketab_n

دراسته في مدرسة المهندسخانة الخديويّة بمصر، يساعده تفوّقه في السفر لبعثة إلى بلاد الإنجليز. يدرس علم الميكانيكا منذ خمس سنوات، يتواصل معهم عن طريق رسائل بريد تصلهم في أوقات اعتادوا عليها، في الأوّل من كلّ شهر. تبدأ معالم تلك العائلة المتشابكة تتّضح رويدًا لأحمد السنغالي. يتأكّد ممّا وقر في قلبه منذ دخل دار عائلة أبي اليزيد، فالاحترام والترابط القوي نسجه أبو اليزيد بالقوّة مع أبنائه، ولكنّه عجز عن ترويض مشاعر تقفز من مكامنها في غياهب وجدانه، فتظهر على بعض أفعاله اللاإراديّة؛ ثم ترجع بعد مطاردتها خلف الستار الحديدي الذي يحيط أبو اليزيد به نفسه. يتبدّل الحديث عن عبد الرحيم الغائب إلى حكايا متفرّقة، يتسامر بها أبو اليزيد في ساعات الصفا القليلة مع أبنائه وأحفاده. يتنبّه السنغالي من تأمّل حال قوم يعاشرهم ويخالطهم بمَثَل نطق به أبو اليزيد:

ـ إنت عارف إنّ الفقري دايمًا يعيش طول عمره فقري... زيّ جدودنا ما كانوا بيقولوا. الفقر ليه ناس يعرفها، إن ماتوا يفضل في خلايفها...

تعلو الضحكة وجه السنغالي بعد أن انتزعه أبو اليزيد من شروده.

ـ الرزق بيد الله يا حاجّ... يرزق من يشاء بغير حساب..

يولي أبو اليزيد نظره إلى عبد الحميد، فيجيب والده باسمًا:

ـ مكتوب لابن آدم إن كان سعيدًا أم شقيًّا قبل أن يولد...

يضحك أبو اليزيد حتى يتملّكه السعال، ينظر إليهم بتعال، فعلمهم لا يضاهي علم حياته كما يعتقد. يضطجع على جانبه الأيسر باسطًا رجليه أمامه، يرشف من كوب الشاي الساخن بصوت مرتفع، علّه يبرد قبل أن يصل إلى جوفه. يحكي عن رجل فقير الحال، كان



Twitter: @ketab_n

يجوب البلاد صارخًا «شوفته بعيني ما حدّش قال لي... شوفته بعيني ما حدّش قال لي»، حتى إذا دخل إلى مدينة، وهو يردّد مقولته، يسمعه سلطان تلك البلد.. ولسوء حظّ الفقير فقد كانت ابنة هذا السلطان تستحمّ، فنادى على حرسه وأمرهم أن يأتوا بهذا الرجل، اعتقد السلطان في بادئ الأمر أنّ هذا المجذوب قد رأى ابنته وهي عارية. يخرج الحرس ويأتون بالرجل بعد أن انهالوا عليه ضربًا وركلاً، يرمونه تحت قدمي السلطان. يسأله عن هذا الذي رآه ولم يخبره به أحد، ينظر إليه الرجل دامعًا، ويخبره بأنّه قد رأى رزقه بعينيه ولم يخبره أحد به. يتعجّب السلطان ولم يفهم منه شيئًا. يسأله عن أمره مرّة أخرى، فيحكي له الرجل بأنّه كان يعمل حدّادًا في بلدة أخرى. ولكنّ رزقها الشحيح أجبره على هجرتها. يبحث عن رزق أوسع في بلاد الله، يسافر على قدميه في الصحراء وهو يندب حظّه، حتى انغرست قدمه فجأة في الرمال، فأخذ في حفر ما وقعت فيه قدمه. يجد بابًا خشبيًّا صغيرًا، فرح به في بادئ الأمر. فقد ظنّ بأنّه كنز مدفون، ينكشف له الباب تمامًا، يجد سلّمًا طويلاً خلفه، يهبط درجاته فيفاجأ بسرداب طويل لا يصل بصره إلى نهايته، وعلى جداره ثقوب متجاورة يسيل منها ماء عذب رقراق. منها ما يسيل بغزارة ومنها ما ينساب ببطء. محفور في أعلى كلّ ثقب اسم صاحبه. بحث عن اسمه في أعلى الثقوب. فيصل إليه بعد عناء، والمياه تنزل منه ببطء نقطة بعد الأخرى. يصيبه الحزن ويبحث عن عود خشبي يوسع به الثقب، يبدأ في حشر العود في فوهة الثقب، ولكنَّ عود الحطب ينكسر ويسدّه تمامًا. فتتوقّف قطرات الماء من النزول. يلطم الرجل وجهه بعد أن تسبّب في انقطاع رزقه بيده. وهو ما كان أمامه بأمّ عينه. تعاطف السلطان مع الحدّاد الفقير، وأمر طبّاخي القصر أن يعدّوا وليمة كبيرة،



Twitter: @ketab_n

تشبع جوع الرجل الفقير. وأمرهم أن يعدّوا له ديكًا حبشيًّا يدسّوا فيه دنانير ذهبيّة كي يأخذه معه من دون أن يخبروه. يوصي السلطان الرجل الفقير أن يأتي إليه عندما يحتاج شيئًا آخر، يقبّل الحدّاد يد السلطان ويحمل الديك الحبشي في «جرابه» ويغادر القصر.. وبعد يومين يسمع السلطان صوت الحدّاد يردّد مقولته أمام باب القصر «شوفته بعيني ما حدّش قال لي... شوفته بعيني ما حدّش قال لي»، يضحك السلطان، يستدعيه فيقف الحدّاد بين يديه. يسأله عمّا فعل بالديك الحبشي، يخبره الحدّاد بأمر رجل قابله بعد أن غادر القصر، سأله عن تلك الرائحة الزكيّة التي تفوح من «جرابه»، ويعرض عليه أن يشتري هذا الديك الحبشي بخمسة دنانير. فيبيعه له على الفور. وبعد أن صرف الدنانير الخمسة، أتى إليه كما أمره سابقًا، يضحك السلطان وهو ينظر إلى حاشيته. يأمر الطبّاخين أن يصنعوا له مثلما فعلوا في المرّة السابقة. يغادر الحدّاد، ثم يأتي بعد يومين ويفعل مثل سابقتها، يتململ السلطان ويستعجب من أمر هذا الحدّاد، فيأمر حاجبه أن يعدّ جوالاً مملوءًا بدنانير من الذهب، يصرخ الحدّاد فرحًا بهذا الكنز ويخرّ ساجدًا يقبّل قدمي السلطان. يحمل جوال الذهب خارجًا من القصر، ولكنّه يقع على درجه ميتًا، يهرول السلطان إلى الجسد الممدّد على سلالم قصره وقد تناثرت الدنانير حول الجثّة الهامدة، وهو يقول.. «الفقر له ناس يعرفها.. لو ماتوا يفضل في خلايفها».

ضجّ الجالسون بالضحك، حتى الصبية الذين شدّتهم حكاية جدّهم. يربت أبو اليزيد على أكتاف من يجاورونه منهم كلّ فترة. يشير إليهم بالنهوض والانصراف، ليستيقظوا باكرًا. فمدرستهم الصباحيّة أوْلى من جلساتهم في المساء كي يسمعوا حكايا سيغيّرها الزمن. يقبّلون يد العجوز وهم وقوف صفًّا واحدًا، يُخرج الجدّ كيسًا قماشيًّا



Twitter: @ketab_n

من جيب جلبابه. يُعطي كلّ واحد منهم ملّيمًا أحمر، فيقبّلون يده مرّة أخرى. يقف أبو اليزيد يتمطّع وقد غلبه النعاس هو الآخر. فيقف الجميع احترامًا له، يلتفت إليهم وهو عند باب المندرة، يخبرهم أن يستعدّوا في الغد الباكر. فغدًا سيطلب يدي ابنتي صديقه الحاج أمين السماعني للزواج، بقرية الفارُقيّة.



Twitter: @ketab_n

# لأولياء الله شؤون

تستيقظ النسوة فجرًا كعادتهنّ كلّ يوم، وبرتابة عوّدتهنّ عليها سنون قضتها زوجات أبناء أبي اليزيد في داره، يملأن الطناجر النحاسيّة بالماء من الطلمبة، يحملنها إلى الكانون. يجهّزن المياه الساخنة لرجال البيت، ويحلبن الجاموس ويعددن الإفطار. ينهض الرجال بتكاسل يذهب عنهم عند الاغتسال. يجلسون حول صواني الطعام، بجوار الصبية الأكبر سنًّا، تفترش النساء والأطفال الصغار الأرض بجوارهم على صواني أخرى، ويمكث أبو اليزيد في غرفته. يتناول إفطاره وحيدًا، إلّا في بعض أوقات يطلب أن يفطر مع أحفاده، يشاركونه طعامه في صباحات نادرة. يتبع ذلك الذهاب إلى الحقل على ركوبته، يسير خلفه أبناؤه على بغالهم في أوّل النهار. وترجع في آخر النهار محمّلة بالبرسيم و«الجراو» و«القالوح» طعامًا للبهائم الممتلئة الدار بهم، يسير راكبوها أمامها صباحًا وخلفها مساءً. ينتصف النهار، فينضمّ عبد الحميد إلى أبيه وإخوته والسنغالي بعد أن ينتهي من عمله في المدرسة الابتدائيّة.



Twitter: @ketab_n

يرجع أبو اليزيد وعبد الحميد والسنغالي مبكرين في هذا اليوم. يستعدّون للذهاب إلى قرية «الفارُقيّة». فخطبة ابنتي الحاجّ أمين السماعني لها أصول واجبة. يرتدي كلٌّ منهم جلبابًا صوفيًّا، وأبو اليزيد يتدثّر بعباءة ثقيلة تقيه من برد الليل، فعظامه العجوزة لا تحتمل البرد. يمتطي ثلاثتهم البغال ويمرّون على البنّاء. فقد أنهى عمله ولم يتبقَّ إلّا دقّ طلمبة المياه العذبة. يتطلّع أبو اليزيد إلى الدار الجديدة وما تمّ فيها. ثم يشدّ لجام بغلته مغادرًا، يرفل وراءه عبد الحميد والسنغالي ببغلتيهما، يتجاذبان أطراف الحديث، وقد بدا الوجوم على وجه عبد الحميد. يترجرج بدنه على ظهر مطيته، فشيخه الطيّب أتاه في المنام ليلة أمس، ولكنّه لم يحدّثه أو يبتسم في وجهه، أيقن عبد الحميد بوجود خطب ما، يعلم بعد أن اختلى بنفسه سبب افتقاد الودّ الموصول بشيخه، يتذكّر أنّ ضيفه وصديقه هو الآخر حاملٌ لعهد شيخه التيجاني كما أخبره سابقًا، واختلاف طرق شيوخ المتصوّفة تفرض قيودًا، تمنع حاملي العهود من استضافة أحد يخالف طريقتهم، من دون إذن من الشيخ الأكبر. يشعر السنغالي بما يدور في خلد صاحبه، يبتسم له ويسأله عن آخر مرّة زار فيها العارف بالله! يجيبه عبد الحميد بأنّه لم يره منذ أكثر من عام مضى. يطلب منه السنغالي زيارته، فوجوده في دارهم مرّ عليه أكثر من عام أيضًا.

يسمع أبو اليزيد ما يدور خلفه بين ابنه وصديقه، يظهر على صوته الغضب. يستنكر أن يستأذن أحد أبنائه شخصًا غريبًا ليضيّف آخر. حتى وإن كان هذا الشخص شيخًا له عهد ووعد ومريدون. يشرح له السنغالي آداب أصحاب الطرق وأولياء الله. فهم يتقرّبون إلى الله بأفعال لا يقدر عليها سوى الخواصّ. يسأله أبو اليزيد وهو يؤخّر مسيرة بغلته، فتحاذي ركب السنغالي وعبد الحميد، عن جدوى أن يتّبع



Twitter: @ketab_n

المسلم طريقة الشيوخ في عبادة الله والتقرّب إليه، فما المانع أن يصلّي ويصوم العبد دون وساطة من أحد؟ فكلّما يضيّق الإنسان على نفسه تضيق عليه حياته، الدين يسر وليس عسرًا، ينظر إلى ابنه سائلاً بتهكّم:

ـ هاتعمل إيه لو الشيخ بتاعك قال لك لأ... ما تضايفش السنغالي؟

تعلو ضحكة ساخرة منه تتردّد بين سيقان القصب المحيطة بهم يمينًا ويسارًا، ينظر السنغالي إلى عبد الحميد، ثم يرجع ببصره إلى أبي اليزيد قائلاً:

ـ ولكن يا حاجّ هذه عبادة الخواصّ... يعني «التخلية قبل التحلية» كما يعلم العارفون... فما هو الفارق بين أحد يصلّي ويصوم، وآخر يقوم الليل، ويدعو الله ويحاسب نفسه على ما تراوده من أفكار؟.. هؤلاء هم الخواصّ الذين يختصّهم الله بكرامات.

يشعر السنغالي بعدم إدراك أبي اليزيد لما يقوله، فيشرح له أنّ العبد المؤمن لا بدّ له أن يتخلّى أوّلاً عن الصفات السيّئة في نفسه، ثم يبدأ في التحلّي بالصفات والسلوك الحميد، يكلّف نفسه بعبادات يتقرّب بها إلى الله من دون الآخرين. يزمُّ أبو اليزيد شفتيه، فهذا الكلام لا يجد له قبولاً في عقله البسيط، فهو دائمًا يردّد على مسامع أبنائه أنّه طالما كان قلب العبد عامرًا بذكر الله فإنّه في أمان دائم. يشدّ لجام بغلته، فتسرع ويتقدّم عليهم، إشارة منه بانتهاء الحديث. يفكّر السنغالي فيما قاله أبو اليزيد، فتلك الكلمات البسيطة هي ما تشكّل حياة رجل أمّي، لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنّه عرف الله فَعَبده. يعمّ السكون إلّا من صوت حوافر البغال على الأرض المستوية، تنحسر سيقان القصب المرتفعة ذات النهايات الخضراء رويدًا رويدًا.



Twitter: @ketab_n

تكشف عن بيوت متلاصقة، تعلوها قباب من القشّ، تفوح من شوارعها الترابيّة الضيّقة رائحة التراب وثمار أشجار الجمّيز المنتشرة في طرقاتها. ينهض الرجال الجالسون أمام أبواب ديارهم في وقت الغروب، يردّون تحيّة أبي اليزيد ومن معه، يتوقّفون أمام دار ذات جدران من الطين المطلي بالجير، مرسوم على صفحة أحدها الكعبة السوداء، تحيط بها أربعة مآذن خضراء، تعلوها كتابة بالخطّ الأحمر «حجّ مبرور وسعي مشكور» يليها مباشرة اسم أمين السماعني يسبقه كلمة الحاجّ. يترجّل الراكبون، يتقدّمهم عبد الحميد من باب الدار. ينادي على الحاجّ أمين. يُفتح الباب عن شابّ في مقتبل العمر، يتّجه مباشرة إلى أبي اليزيد الذي ما زال راكبًا على بغلته، محييًا إيّاه، يسأله عن أبيه بعد أن ردّ تحيّته.

ـ جاي حالاً يا عمّ الحاجّ... اتفضّل...

يشير الشابّ إلى باب المندرة المجاور لباب الدار. يساعد كلًّا من عبد الحميد وأحمد أبو اليزيد في الترجّل عن بغلته. يخرج الصبية الصغار ساحبين لجام البغال الثلاثة، وكمن يعرف ماذا يجب أن يُفعل بهم، يحلّ كلٌّ منهم سرج البغل. يربطه في عمود خشبي مجاور للمندرة، ويضع أمامها وعاء من الماء وآخر من التبن. يسبق الأب عبد الحميد والسنغالي إلى المندرة، يهبط درجة عن مستوى الشارع فيصبح داخلها. يفترش أبو اليزيد كنبة طويلة تمتدّ لمسافة عشرة أمتار، من بداية الحائط المجاور للباب الداخلي إلى نهايته، يستغرب السنغالي وهو يفكّر، كيف أدخلوا هذه الكنبة الكبيرة من ذلك الباب الضيّق الصغير! يتلفّت في أركان المندرة مستكشفًا المكان بحرص شديد، من دون أن يلفت نظر أحد. يراقبه عبد الحميد بهدوء، وهو يجلس بجواره على الكنبة المجاورة لأبي اليزيد، المفروشة بسجاجيد مغزولة من



Twitter: @ketab_n

صوف الغنم الملوّن، كُتب على طرفيها بصوفٍ مختلفة ألوانه اسم صاحب المكان.

ـ السلام عليكم... يا أهلاً وسهلاً يا حاجّ أبو اليزيد.. يا مرحب يا شيخ عبد الحميد..

خرجت الكلمات من فم رجل قصير القامة، يرتدي جلبابًا صعيديًّا فضفاضًا، تعلوه عباءة سوداء زادت من بياض وجه صاحبها، ويعتمر عمامة كبيرة تخفي رأسه، ويلفّ حول عنقه شال كشمير ذا نقوش بنِّيّة اللون، يمسك عصا من الأبنوس وقد بدا الثراء على هيئته، يمدّ يده مسلِّمًا على أبي اليزيد، فينهض من جلسته واقفًا وقد انحسرت عباءته عن كتفه الأيسر. يلتفت المضيف إلى عبد الحميد، فيتقدّم خطوة مسلّمًا عليه، ينحني ليقبّل يده، لولا أن سحبها الحاجّ أمين مادًّا إيّاها إلى الضيف. يرحّب به قائلاً ببطء وقد أخفى دهشته من ملامحه الغريبة:

ـ مرحبًا بالضيف.

يومئ له السنغالي برأسه، ويردّ تحيّته. يجلس أبو اليزيد بجوار أمين السماعني على الكنبة الطويلة، يقابلهم على الجانب الآخر الشيخ عبد الحميد والشيخ السنغالي، تنتهي عبارات الترحيب والتحيّات الطويلة. يضع ولد صغير صينيّة الشاي بالنعناع بأكوابها الصغيرة على منضدة تتوسّط الضيوف، ويبدأ الكلام مع صوت الرشفات المزعجة، من الأفواه المعتادة على طعمه المرّ. يحكي أبو اليزيد وهو يربت على يد الحاجّ أمين قصّة زواج سيّدنا موسى عليه السلام من ابنة الرجل الصالح، الذي لم يعرف سيّدنا موسى من قبل، بل توسّم فيه المروءة والشهامة عندما أخبرته ابنتاه عنه، وكيف سقى لهم عند البئر، مشفقًا



Twitter: @ketab_n

عليهنّ من الاختلاط وسط الرعاة ذوي الخشونة والفظاظة. يصدّق الحاجّ أمين على كلمات صديقه أبي اليزيد، فلا بركة في رجل ناقص الشهامة والمروءة. ينتهز أبو اليزيد مسايرة السماعني له، ودون مقدّمات يطلب منه الزواج من الابنة الكبرى، ولتكن الصغرى من نصيب الشيخ أحمد السنغالي. يضع أبو اليزيد كوب الشاي أمامه، ينظر إلى أمين السماعني متأمّلاً ملامح وجهه. يدور الحاجّ أمين ببصره على الحاضرين في هدوء، يلتفت إلى محدّثه بعد أن تفاجأ بطلبه، ليس زواجه من ابنته، فهو يعلم به منذ أن بدأ أبو اليزيد يتحدّث عن زواج سيّدنا موسى، بل ما أثار حفيظته هو أن يطلب يد الصغرى لهذا الشابّ الأسود، فهو يعرف أنّ السنغالي ليس بأحد أفراد عائلة أبي اليزيد من قريب أو من بعيد. يقع الحاجّ أمين السماعني في حيرة من أمره، يحاول إخفاء تلك الحيرة باصطناع الهدوء والابتسام في وجوه ضيوفه، يبدأ كلامه موجّهًا إيّاه لأبي اليزيد، ويطلب منه أن يعرّفه بهذا القادم معهم، ينتقل ببصره إلى عبد الحميد والسنغالي، ثم يرجع به إلى أبي اليزيد، الجالس بجواره. يقرأ أبو اليزيد ما يدور في عقل الحاجّ أمين. فأمين السماعني لا يرغب في أن يردّ لصديقه طلبًا، ولكنّه أيضًا لا يعلم عن أحمد السنغالي شيئًا، يتأكّد حدس أبي اليزيد في تلك الابتسامة المتردّدة على وجه السماعني، فيكمل حديثه عن الشيخ أحمد، ويعدّد خصاله الحميدة، فهو على أيّة حال ابن له كعبد الحميد، يحكي له ما يعرفه عنه باقتضاب، وكيف أنّه يعمل معه في أرضه، بعد أن ترك قافلة التجارة المتّجهة إلى الحجاز، ونزوله ضيفًا عليهم، فتوسّم فيه المروءة والشهامة، وعادات يحافظون عليها حتى الآن، بنى له دارًا بجوار داره وكأنّه أحد أفراد عائلته. فمجاورة أولاد الكرام واجبة. لم يشأ أبو اليزيد أن يكذب وهو الرجل الحرّ، فالكذب



Twitter: @ketab_n

صفة رجال خائنين، وما كان له أن يشين نفسه ويخون صديقه. ولكنّه ترك لأمين السماعني أن يخمّن من أيّ بلاد أتى منها هذا الجالس في داره، فلن يذهب عقله أبعد من بلاد السودان، فهي جزءٌ من مصر، وكُثُر من عائلات تلك البلاد لهم نسب ومصاهرة في جنوب الصعيد، وطالما استقرّ هذا الغريب بين عائلة أبي اليزيد، يأتي به إليه يطلب له يد إحدى بناته، ويصبح «عديله»، فكلّ هذا يطمئنه على مصير ابنتيه، وتأكيد لرابط نسب قوي بين عائلتين لهما من السطوة والنفوذ ما تحسدهم عليه باقي العائلات الأخرى.

ـ الشيخ السنغالي ولدي يا حاجّ أمين.

قالها أبو اليزيد ضاحكًا ممسكًا بيد صديقه مرّة أخرى، ضاغطًا عليها بودٍّ زاد مع مرور السنين الطويلة الماضية. لم يبدِ الحاجّ أمين موافقته إلّا بعد أن قطع عليه أبو اليزيد التفكير قائلاً:

ـ مهر الأختين فدّانا أرض.. والعزال والزواج أوّل الشهر.. قلت إيه يا حاجّ؟

ـ ما فيش كلام بعد كلامك يا خويْ...

ـ خلاص نقرا الفاتحة...

يرفع الحضور أكفّهم، تتمتم شفاههم بالقراءة، ويصدّق الحاضرون، تخترق طلقات الرصاص السماء خارج مندرة الشيخ أمين، فالفرح لا يكتمل إلّا بإشهاره بصوت الرصاص من بندقيّة ابنه المنتصب أمام الدار، ينضمّ إليه عبد الحميد متباريًا معه من طبنجته. بعد أن استأذن من صاحب الدار. يلتفّ أهل البلد حولهما. يباركون لأبي اليزيد وحميّه. تنفضّ مظاهر الاحتفال بالخطبة، وينظر أبو اليزيد إلى عبد الحميد والسنغالي إيذانًا بالرحيل. يهبّ واقفًا مستأذنًا، حتى لا



Twitter: @ketab_n

ينتصف عليهم الليل في طريق عودتهم، يعتذر أبو اليزيد للحاجّ أمين وابنه عن تناول العشاء، يؤجّل قبول الدعوة إلى وقت مبكر في يوم آخر. يخرج ثلاثتهم يشيّعهم الحاجّ أمين وابنه، تنتظرهم البغال الثلاثة أمام الباب وقد سُرِّجت برادعها، يتّخذون طريقهم رجوعًا إلى قرية «بهجة».



Twitter: @ketab_n

# كرامة لا تزول

ـ خير إن شاء الله؟

تسأل رقيّة زوجها وهي تعدّ له كوبًا من الشاي. بعد هذه الرحلة الليليّة الشاقّة إلى قرية أمين السماعني، ينزع عبد الحميد عنه عباءته ويرتمي متّكئًا على وسادة منفوشة، يستند إلى جدار الغرفة، يفترش الأرض، يتنهّد والسعادة يلمع بريقها في عينيه، تنصت إليه زوجته باهتمام، يحكي لها ما تمّ في قرية الفارُقيّة، فقد وافق الحاجّ أمين على ما طلب أبوه، فكيف يرفض طلبًا من صديق دارت الأيّام على كليهما ولم تفرّقهما نوائب الدهر؟ يضحك وهو يذكر لامرأته كيف كان أمين السماعني يتفحّص الشيخ السنغالي، يراقب حركاته وطريقة كلامه، تنبسط سريرة الحاجّ أمين وهو يرى سماحة السنغالي تضيء وجهه الأسمر. يتفاخر عبد الحميد أمام زوجته بأبيه ومكانته، يخبر رُقيّة بأنّ لأبي اليزيد كلمة يثق فيها الجميع، حتى الحاجّ أمين السماعني. تومئ رُقيّة برأسها فرحة بتلك الأخبار. تؤكّد على طيب أصل السنغالي، فحبّ أبنائها له يزداد يومًا بعد يوم، يتابعهم ويصحّح لهم ما يتلونه عليه



Twitter: @ketab_n

ممّا حفظوه من قرآن، في المدرسة وكتّاب القرية. تذكّره كلمة «الشيخ» بما عزم عليه فعله، وسفره إلى الأقصر. فشيخه الطيّب في انتظاره بعد تلك الرؤيا. يرتشف الشاي بسرعة ثم ينهض إلى فراشه، فميعاد قطاره قبل الشروق. يلحق بأوّل يومه قبل الفجر، يغتسل ويرتدي ما أعدّته له رُقيّة، يتناول إفطاره على عجل، ويخرج بعد أن يتّشح بعباءته مع أوّل ضوء للشفق الأحمر، ثم يحثّ الخطى نحو محطّة قطار القرية، في طريقه إلى مدينة المساخيط.. إلى شيخه الطيّب.

يصل القطار إلى محطّة الأقصر قبل أذان الظهر بقليل، يترجّل عبد الحميد وسط الزحام إلى الرصيف الترابي، خارجًا من المحطّة، يتّجه نحو مسجد أبي الحجّاج في ميدانه الفسيح، تحيط بالمسجد من إحدى جوانبه زراعات خضراء على امتداد البصر، تظهر من خلفها خيالات تبدو للناظرين أحجارًا ضخمة متراصّة، ولكن بالتدقيق فيها، يلاحظ أنّها جدران المعابد المنتصبة فوق جبال شامخة في البرّ الغربي، يحيط به الشحّاذون والمتسوّلون، والباعة الجائلون، يحملون الأكواب والأباريق المملوءة بالبوظة وكِسر الثلج. لا تمنع قدسيّة المكان من وجود مكان للمكارين، يحملون الزائرين إلى ضريح الشيخ على عربات تجرّها الحمير. تنتهي الجلبة، ويصمت الصخب بمجرّد الدخول من أحد أبواب المسجد الثلاثة، ذات النقوش الخشبيّة الحاملة لاسم الله، وسقفها المرتفع تتدلّى منه كلوبات معلّقة بسلك معدني يسير على بكرات، ينتهي طرفها في قرص حديدي مدفون بالحائط، وتخرج منه يد خشبيّة. تتدلّى الكلوبات عند دوران اليد الخشبيّة بواسطة خادم المسجد. يغيّر الخادم شبكة «الراتينة» فتتوهّج بضوء أبيض. تلقي به عند إشعالها بالكاز، فتنير أركان المسجد الواسع.

يلج عبد الحميد إلى مكان الوضوء. يزيح عن بدنه غبار القطار،



Twitter: @ketab_n

يتوضّأ ثم ينتظم في صفوف المصلّين، يضع حذاءه تحت إبطه بعد أن أنهى صلاة الظهر. يزور ضريح الشيخ أبي الحجّاج، ويقرأ له فاتحة الكتاب. يهمّ بالخروج لولا يد خشنة صغيرة تمسك بكتفه. قال صاحبها بصوت واهن، ينمّ عن عمر تجاوز الثمانين:

ـ أعطني ممّا أعطاك الله.

يخرج عبد الحميد قرشًا من جيب جلبابه أسفل عباءته، يدسّه في يد العجوز الحاني أمامه.

ـ صَدَقة ومحبّة في الله.

ينظر عبد الحميد في عينيَّ العجوز، فيجد بريقًا لا يتناسب مع ضعف الواقف أمامه، ينصرف الشحّاذ من دون كلمة أخرى، تاركًا عبد الحميد يردّد ذكر الله وهو يهبط سلالم المسجد إلى الشارع. ينادي على صبيٍّ يمسك برسن حمار، يطلب منه إيصاله إلى ساحة شيخه، فهي معروفة لكلّ أهل الأقصر باسم «الساحة»، يتّفق معه على الأجرة، يركب عبد الحميد ركوبته. يسحب الصبي الرسن. يسيرا بين المزروعات تارة، والبيوت الطينيّة تارة أخرى، حتى يصلا إلى أرض فسيحة، ترسم حدودها يمينًا ويسارًا أشجار الصنت والجمّيز العتيقة والشاهقة بشكل متتالٍ، تحيط أرض «الساحة» ببُسط مفروشة بين أشجار قصيرة، تمتلئ بالمريدين والمحبّين والصائمين الفاطرين. يتحلّق المريدون والمحبّون في حلقات واسعة للذكر والإنشاد، يردّدون أشعار الحلّاج، ومناجاة رابعة العدويّة، ومنهم من يتمكّن منه الشوق فيلهج لسانه بابتهالات ينصت إليها الجميع. يتمايلون يمينًا ويسارًا إلى أن يذهب بهم التعب، ويسقطون أرضًا في غيبوبة صوفيّة تتجلّى عليهم بأشياء لا يفهمها الآخرون. ينفصلون فيها عن عالم الأرض، فتتطهّر



Twitter: @ketab_n

أرواحهم ويتقرّبون بها إلى الله.

يسير الشيخ عبد الحميد بين حلقات الذكر المتتالية. تنتهي به إلى بداية ممرّ، يؤدّي إلى المضيفة ذات الجدران الطينيّة المطليّة بالجير الأخضر ببابيها الاثنين، أحدهما يدخل منه المريدون إلى المضيفة، والآخر يدخل منه الشيخ الطيّب. يقترب من باب المضيفة، فيصغي السمع لابتهالات تجبره على الإبطاء في سيره، ثم يقف تمامًا وهو يستمع إلى كلمات تأتيه من إحدى حلقات الإنشاد، يتغنّى بها أحد المريدين. قصيدة لم يعلم إن كانت لأحد العارفين السابقين أم هي وليدة لحظة تجلٍّ أصابت قائلها، فجعلته ينشد ابتهالاً غير معروف، يرهف الشيخ عبد الحميد سمعه، تعلو محيّاه الدهشة والرهبة ممتزجتين، يشعر معهما بشيء لم يَخبرْه سابقًا. يسمع صوت قائلها الرخيم:

مَنْ شَاَقهمْ حُبّ الإلٰه يُصِيبهم

فهل لي في رِضَاك نَصِيبُ

عَطفًا عليّ يا مَنْ أنَا مِلْكَه

وارحَمْ عِبَادًا نَالَ منها شُحُوبُ

ينظر الشيخ عبد الحميد إلى المبتهل، فيراه مصوّبًا بصره إليه كأنّه يختصّه هو بحديثه، يكمل إنشاده قائلاً، وهو يشير بسبابته إلى قلبه:

اسمعْ بقلبكَ لِمَنْ أتاكَ مسافرًا

وانظرْ بعَقلِك فالتميّزُ موجُودُ

أوْدَعَ سِرّه عِندَ ذي كَرَمٍ

والسرُّ عِندَ أبي اليزيدِ مقْبُورُ



Twitter: @ketab_n

أَجْهَدَ علّه يَحّلَ بأرضِكمْ

وينَال رُوح سَلام غير مفقود

لَقدْ نَصحتُكَ والنصِيحة واَجبة

فَظنّي فيك يا حَمِيدُ جَميلُ

سَينال ضَيفكَ عيشًا لا اِنقطاع له

وتنَال أنتَ كَرَامة لا تَزُولُ

تسري رعشة في جسد الشيخ عبد الحميد، ينتفض لها قلبه. يطأطئ رأسه قليلاً إلى الأرض، ويضمّ يديه خلف ظهره. يذكر اسم الله ثم يتّجه إلى المضيفة، يتقدّمه شابّ يفتح له الباب، ويشير إليه بالدخول.

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قالها عبد الحميد ناظرًا إلى الأرض باستحياء. يقترب ببطء من شيخه الراقد على دكّة خشبيّة مبسوط عليها بساط من القشّ الجافّ، وآخر ملقى على الأرض للصلاة، يرتدي الشيخ عباءة وغطاء رأس أبيض يلفّ وجهه الأكثر بياضًا من ملابسه، تحيط وجهه لحية كثيفة غير مهذّبة. يمدّ عبد الحميد يده، يسلّم على شيخه بخجل من فعلَ فعلة. يمدّ العارف بالله يده الملفوفة بوشاح أبيض مصافحًا مريده القادم إليه معتذرًا نادمًا.

ـ من وقف مع مقامٍ حُجِب به. وإنّك لتعلم لماذا أتيت؟

بادره الشيخ الطيّب وهو يعبث بسبّحته.

لم يدرِ عبد الحميد بماذا يجيبه، فأطرق رأسه إلى الأرض صامتًا.



Twitter: @ketab_n

ـ أتكرم ضيفًا لخمسة عشر شهرًا يا شيخ عبد الحميد؟ أنت تعلم أنّ الشيخ السنغالي صاحب طريقة العارف بالله التيجاني.

علقت كلمة الشيخ السنغالي التي نطقها العارف بالله الطيّب في أذن عبد الحميد. تتجمّد ملامحه، يرتبك وتتملّكه الحيرة من استباق اسم السنغالي بلقب الشيخ. أنسته المفاجأة من الحذر والتأدّب فيما يفكّر العقل به أمام شيخه.

ـ إنّ الشيخ السنغالي من خواصّ الخواصّ يا عبد الحميد.. وحسنًا قد فعل والدك من مجاورته.

يذهب القلق العاصف عن عبد الحميد، عند انبساط قسمات وجه العارف بالله الطيّب.

ـ وِرْدُكَ كما هو ولكن خلوتك شهرًا، صيامًا وقيامًا مثله.. فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب يا شيخ عبد الحميد. ولولا ذاك ما كان هذا!

يختتم الشيخ كلامه مع عبد الحميد بدعاء اعتاده في كلّ زيارة وبالصلاة على الرسول. يرافقه عند خروجه ذلك الشابّ مرّة أخرى، والواقف خارج الباب طالما كان هناك ضيف مع شيخه. يجهّز له طعام الغداء في ساحة المريدين. يتّجه بعدها عبد الحميد إلى محطّة القطار. يصل إلى قريته عند هبوط الليل، يفكّر فيما قاله له شيخه، وماذا سيفعل مع السنغالي عند رجوعه، أيخبره بأنّ عليه أن يغادر بيته؟! ولكن كيف له أن يفعل ذلك مع من ائتمنه على سرّه وحياته؟! ينفض الشيخ عبد الحميد وساوس الشيطان، ويدعو الله أن يلهمه الحكمة في ذلك الأمر، ينتبه عند اقترابه من البيت بظلام المندرة على غير العادة، فأين يكون قد ذهب السنغالي؟ يهرول مسرعًا إلى الداخل، فتستقبله



Twitter: @ketab_n

زوجته رُقيّة، تحمد الله على سلامته، تزفّ إليه خبرًا والفرح بادٍ على محيّاها. لقد انتهى اليوم البنّاؤون والعمّال من دار السنغالي، فأبى الشيخ إلّا أن يبيت ليلته الأولى في داره الجديدة. مشاعر فرح واستغراب تموج في صدر عبد الحميد، يسرع الخطى إلى بيت السنغالي بعد أن اغتسل وتوضّأ وصلّى فرض ربّه. يرى شبابًا صغيري السنّ، يتقافزون بهمّة ونشاط حاملين بعض الفرش والكراسي الجريديّة والكنب الصعيدي الضخم، يدلفون إلى البوّابة الخشبيّة ذات الضلفتين إلى ساحة صغيرة، تتراصّ على جنباتها شجيرات خضراء حديثة الزراعة، يفصل بين واحدة وأخرى فسيلة نخل قصيرة، وصولاً إلى باب آخر يؤدّي إلى جوف الدار، ذات السقف المجدول من سعف النخل وجذوعه، المفترشة أعلى الحجرتين الكبيرتين. جدرانها الزرقاء منقوشة بأوراق شجر بنّي اللون. يتوسّط إحدى الغرفتين سرير عريض وصندوق خشبي في أحد الجوانب، وبالمثل في الغرفة المجاورة لبيت الراحة. يبعد عن تلك الجدران حظيرة واسعة، يجاورها ثلاثة حوائط قصيرة، ترقد أسفلها «جالوس» من الطين ذات كوّة واسعة في الوسط، وأخرى كفرن لإعداد الخبز، وأخرى أقلّ حجمًا ككانون للطبخ.. يضع الشباب ما يحملون داخل الدار، ثم يرصّون الدكك في الساحة الصغيرة، في مواضع محدّدة ومعلومة، مجاورة للشجيرات وفسائل النخل. فرشت السجاجيد الزاهية على الدكك، يجلس الحاضرون لالتقاط الأنفاس. فيسود صمت، لم يقطعه بعد لحظات سوى صوت عبد الحميد ملقيًا بالسلام. ينهض الجالسون احترامًا للشيخ، يتقدّمهم السنغالي فاتحًا ذراعيه. يبارك له عبد الحميد على داره الجديدة، معاتبًا إيّاه مغادرته المندرة قبل قدومه:

ـ كلّها دياركم يا شيخ عبد الحميد.



Twitter: @ketab_n

ـ أهلاً كريم يا شيخ أحمد.

قالها عبد الحميد، والفرحة تزيد من سرعة ضربات قلبه، فقد أتى فرج الله لعقدة لم يدر كيف ستُحلّ. يتّجه إلى أبيه الجالس في صدر المجلس منحنيًا إلى يده مقبّلاً إيّاها:

ـ حمد الله بالسلامة... على الله يكون مشوارك قضى...؟

ـ الحمد لله يا بوي.. ينظر إلى السنغالي ويردّد... كلّه خير وبركة.

أرسل أبو اليزيد أحد أحفاده ليأتي ببرّاد الشاي تحيّة لدار السنغالي الجديدة.. يغادر بعدها الحاضرون المهنّئون، يتركون الشيخ مع صديقه، فيميل عبد الحميد على أذن السنغالي قائلاً بصوت خفيض:

ـ زواجك بعد أسبوع يا أحمد..

يضحك السنغالي وتظهر أسنانه البيضاء، ولكن تلك الحيرة تتمكّن منه. يأتيه شعور يقبض صدره، فيظهر ما تفعله به على قسمات وجهه الأسمر، يراها الشيخ عبد الحميد في عيني السنغالي، فهو يعلم سببها. فشعوره بأنّه مدين لأبي اليزيد واضح في انقباض ملامحه المتوتّرة. يطيّب عبد الحميد خاطره، فأبوه لن يمدّ يده لأحد إن لم يكن على ثقة من أمره، فلولا يقينه من أصله الطيّب ما سمح له أن يكون «عديله»، وما سعى أن يثبّت له أقدامه في أرض يعلم الجميع أنّها حياته. يغيّر السنغالي رياح الحديث بسؤاله عن الشيخ الطيّب، وكيف كانت زيارته! يطمئنه صديقه من دون أن يفصح عمّا دار بينه وبين الشيخ، فزيارته سارت كما أراد الله. يداعبه السنغالي قائلاً:

ـ الطرق إلى الله على عدد أنفاس البشر.



Twitter: @ketab_n

يردّ عبد الحميد دعابة صديقه ضاحكًا:

ـ ما بين الأحباب أسرار، فإن شاع السرّ فسد الحبّ.

يشدّ عبد الحميد على يدي السنغالي، ويستأذنه كي يتركه في أوّل ليلة في داره الجديدة، مع أوّل سجدة على أرضها، تطول به وهو يناجي ربّه، ينتهي من صلاته ويخرج كتابه الأزرق وسبّحته البيضاء. يرحل إلى عالمه، تغفو عيناه، لا يدرِ إن طالت به أم قصرت. ولأوّل مرّة منذ أن غادر وطنه، يرى أهله وصديقه «سينجور» في منامه، هل يشتاق إليهم إلى حدّ استحضارهم في غفوته؟ ينتبه إلى صوت الشيخ عبد الحميد وهو يؤذّن لصلاة الفجر، يلتحف بملفّه الصوفي ويتّجه إلى المسجد. يرجع الاثنان بعدها إلى الدار، يلحق بهما طٰه.. الابن الأكبر لعبد الحميد.. يترنّح أسفل صينيّة تعلو رأسه الصغير، يحمل طعام الإفطار للسنغالي وأبيه، يبتسم السنغالي في وجه الصغير، يشير إليه كي يشاركهم طعام الإفطار، ينظر الولد إلى أبيه في خجل، كمن يستأذنه في أدب، يشير أبوه إليه بالجلوس قائلاً:

ـ اقعد يا طٰه افطر مع عمّك السنغالي..

يبدأ الثلاثة في تناول طعامهم، يتجاذب السنغالي الحديث مع طٰه متسائلاً عن دراسته، وكم حفظ من القرآن، يتحدّث الصغير من دون خجل، فحبّه للسنغالي أزاح رهبة تصيب الصغار تجاه الكبار. يربت السنغالي على كتف الصغير، ويمسح بيده رأسه قائلاً:

ـ ما شاء الله.. ما شاء الله.. إنت يا طٰه هايكون ليك شأن كبير.. ألله يحفظك!



Twitter: @ketab_n

# احذر الفرح

تغوص قدما قناوي إلى ما تحت ركبتيه بقليل، في مجرى مائي صغير، يسير بين زراعات أرض أبيه، يروي محصول القصب الذي بدأت سيقانه الخضراء ترتفع قليلاً عن سطح الأرض السوداء. ينحني أخوه خليفة في آخر مرمى بصره، يحمل فأسًا يعزق بها أرضًا غزتها الحشائش، فتمنع أشعّة الشمس من اختراق تربتها، فتصبح مرتعًا لآفات يخشى المزارعون منها. يشاركهم أخوهم شهدي في رشّ السماد من «مقطف» معلّق في وسطه. تتابعهم عين أبيهم متّخذًا جلسته المعتادة في «الخصّ» تحت شجرة النبق العتيقة، يتصبّب الجميع عرقًا تسيل حبّاته على جباههم وأجسادهم من حرارة شمس الظهيرة المتعامده فوق رؤوسهم. يفزع كلّ مكبٍّ على الأرض واقفًا فجأة، يترك الجميع ما بأيديهم على صوت انفجار كالرعد، اهتزّت له سيقان القصب القصيرة، يهبّ أبو اليزيد خارجًا من «عشّته» متلفتًا يمينًا ويسارًا، يتراءى له عمود من الدخان الأسود يمخر السماء صعودًا، هُيّئ له أنّ الدخان يتصاعد من داره، يهرول مسرعًا حافي القدمين من دون بغلته



Twitter: @ketab_n

من فزع أصابه، ينضمّ إليه على مسافات من بين الحقول الخضراء على جانبي أرضه تباعًا، أحد أبنائه، يجرون خلفه فلا يلحقون به، يصلون إلى ما قبل الدار، فتصطدم أعينهم بأشلاء من اللحم متناثرة على الطريق، وقد تهدّمت جدران الطاحونة العتيقة المجاورة لدارهم، وأعضاء بشريّة ترقد في قاع الترعة أمام الطاحونة، مخلّفة وراءها بقع دماء قانية، تجمّع الناس حول المكان، وعيون النسوة من خلف الأبواب والشبابيك الضخمة متّسعة على محاجرها. لم تمض فترة حتى أتت قوّة من نقطة الشرطة بالقرية، وبدأ الرجال والشباب في لمّ أشلاء الضحايا من الطريق، ومن على الأشجار المحيطة بالطاحونة.

دخل عبد الحميد وإخوته إلى الدار، يطمئنّون على من فيها، والتساؤلات والتفسيرات تخرج من الأفواه المرتعبة عن الحادث. لم يتحمّل المقدّس عازر رؤية أشلاء من يعملون معه في الطاحونة. فرقد إلى الأرض يولول كالنساء. مات كلّ العاملين في الطاحونة، انفجر مرجل الضغط لماكينة الطحين الضخمة، مزّق كلّ الأجساد المحيطة بها. تخرج نسوة الدرب يلطمن الخدود على أبنائهم، يتعالى صراخهم ونحيبهم على أزواجهم. تجمّعت بقايا الجثث فوق ملاءات أمر أبو اليزيد أبناءه بها من الدار، يعاين فريق النيابة من البندر المكان، ويأخذ أقوال الشهود. تزعق سارينة عربات الإسعاف وهي تحمل الجثث إلى المستشفى المركزي اليتيم، تنتهي إجراءات وتصاريح الدفن، ويبدأ أهل الضحايا في استلام جثمان الابن أو الزوج أو الأب. يتّجهون إلى كنيسة القرية... تلك الكنيسة العتيقة والأولى في محافظة قنا، شيّدها مهندس إيطالي أتى به الباشا خصّيصًا لها، رسم قبّتها المجوّفة بصورة السيّد المسيح رسّام لبناني، واستغرق سنتين لإنهاء صورة السيّدة مريم العذراء، وملائكة صغار يحيطون بالسيّد المسيح. زُيّنت جدرانها



Twitter: @ketab_n

بتماثيل كالكنائس الأوروبيّة على يد نحّات فرنسي.

شيّع أبو اليزيد وابنه عبد الحميد موتى جيرانهم النصارى، بعد أن أمر بعض أبنائه بوضع «الدكك» أمام داره. تستقبل مندرة داره المعزّين من أهل القرية. يذهب ابنه شهدي إلى قرية «الفارُقيّة». يبلغ الحاجّ أمين السماعني بتأجيل ميعاد الزفاف لآخر الشهر، فاحترام الموت واجب تتوقّف أمامه متطلّبات الحياة. تمتلئ المندرة بالمسلمين والمسيحيين، يستمعون إلى عظة القمص حنّا.. كاهن كنيسة العذراء.. يقيم القمص بعد ذلك صلاة في دار كلّ متوفٍّ من أهل الدرب، عسى أن تخفّف صلاته من أحزان المكلومين. ينفضّ العزاء، وينزوي المقدّس عازر منفردًا بأبي اليزيد، يشكره على تعبه وأبناءه، وقد بدا على صوته الوهن والضعف حزنًا على من ماتوا. يقاطعه أبو اليزيد معاتبًا بانفعال، فكيف يشكره وهم جيران منذ زمن بعيد! يعرض عليه مساعدته على إرجاع الطاحونة كما كانت، يعتذر له المقدّس عازر شاكرًا له حسن كرمه معهم، فقد حسم أمره وعزم على الرحيل مع عائلته إلى قرية «بخاني»، عند أخواله. هناك سيشعر بالراحة، وربّما ينسى تلك المصيبة التي حلّت بجميع قاطني الدرب. يصافح الحاجّ العجوز، ويترك أبناءه من شباب درب «الرجولة» ينقلون «الدكك» إلى مكانها السابق. ينتصف الليل، فيهجع كلّ ساكن إلى منامته، بعد هذه الحادثة المشؤومة في القرية الهادئة.

ومع فجر يوم جديد، ينقشع الضباب كزغب أبيض، نثره الحرّ. وتجلّت الشمس فوق الدار بأشعّتها الذهبيّة في سماء صافية. تدبّ الحركة في دار أبي اليزيد وكأنّ شيئًا لم يكن. تعدّ النسوة صواني الطعام لأزواجهنّ، وأخرى يحملها طه إلى بيت السنغالي. يطبع اليوم نفسه على اليوم التالي من دون اختلاف، إلّا من انعزال عبد الحميد



Twitter: @ketab_n

في خلوته بعد صلاة العشاء، وقيامه الليل في المندرة كما أمره شيخه، وبالمثل يفعل السنغالي في داره. دائمًا ما يفكّر السنغالي في دَين أبي اليزيد وعائلته. أمّنوه من خوف، وسدّوا رمقه بعد جوع. جميل طوّق به أبو اليزيد عنق السنغالي إلى يوم معلوم.

انتظر أحمد السنغالي إلى ما قبل انتصاف النهار في راحة الغداء، بعد يوم شاقّ في زراعة وريّ الأرض، و«حشّ» البرسيم و«الجراو» لبهائم الدار.. يجلس السنغالي بجوار أبي اليزيد، يعرض عليه أمر الطاحونة المهجورة، أو ما تبقّى منها، ينتبه إليه أبو اليزيد وقد أصاخ السمع لكلّ كلمة ينطق بها السنغالي. فهو يرغب أن يبني مكان الطاحونة عصّارة للقصب، بعد أن يقيم جدرانها المتهدّمة من الحادثة السابقة، فتستفيد منها العائلة، عوضًا عن هجرانها فتسكنها هوام الأرض. تعجب الفكرة أبو اليزيد، ولكنّه لا يأمن خوض أمرٍ لا يعرف عنه شيئًا، فتحويل طاحونة غلال إلى عصارة للقصب، يحتاج من له خبرة ودراية بتلك الأمور، فليس تجهيز ماكينة العصر أو شراء «نحاسة» طهي العصير فقط هو ما تعتمد عليه العصّارات، بل مهارة وحرص العاملين في تلك الصنعة. يطمئنه السنغالي، فكلّ شيء أعدّ له سلفًا. ولكنّه يرغب في أن يشاركه بالثلث مقابل مجهوده، ولصاحب المكان الثلثان.

يُعجب أبو اليزيد من فكرة السنغالي، ولكنّه يصمت قليلاً، يدير الكلام في رأسه قبل أن يعطي كلمة. تضيق حدقتا عينيه وهو يفكّر في أمر أبنائه، سيستنكرون على هذا الغريب أن يكون شريكًا في ما يملكه. وجوده على قيد الحياة ضمانة للسنغالي، ولكن بعد مماته ستتبدّل الأحوال، ويكشف الأبناء عن ضمائر نخرها سوس الطمع. يداعب مَبْسِم النرجيلة بشفاهه، يسحب نَفَسًا عميقًا، فيخرج دخان



Twitter: @ketab_n

كثيف من أنفه وفمه. يرتشف من كوب الشاي الساخن بصوت مزعج. لم ينطق السنغالي بكلمة في حضرة العجوز، فهو يعلم أنّ أبا اليزيد يتدبّر أمرًا عسيرًا يحسب له حسابًا. يفتح أبو اليزيد عينيه على وجه السنغالي، يفاجئه بعرضٍ ألجمه لثوان، فأبو اليزيد سيبيعه الطاحونة القديمة يفعل بها ما يشاء، يسدّد له كلّ عام ورقة بمائة جنيه على مدار أربع سنوات. يرتشف أبو اليزيد رشفة من كوب الشاي، يمتصّ السائل المرّ بتلذّذ، يضحك وهو يرى السنغالي متجمّدًا في مكانه، وقد باغته ذاك الشعور المؤرّق، ينغّص عليه فرحته. يزيده أبو اليزيد حيرة، يخبره بأنّ العقد سيكتبه عبد الحميد من باكر دون حاجة لدفع مال الآن. يُشقّ الأمر على السنغالي. يدير الأمر في رأسه هو الآخر، أيعطيه بعض ما يملك من الذهب؟ ولكن في ذلك مخاطرة لا يحب أن يخوضها الآن. فكلمات الدليل ما زالت عالقة في ذهنه، «الذهب عندهم أغلى من حياتهم ونهرهم هذا»، وربّما يحتاجه في أمر آخر يدفع به بلاءً لا مفرّ منه. يتنهّد أخيرًا ويوافق على كلام الشيخ العجوز. يرفع أبو اليزيد يديه ويقرأ الفاتحة، ففاتحة الكتاب عهد يتأكّد بها العقد الشفوي بينه وبين السنغالي. يدخل عليهم عبد الحميد، ينتظر أن تنخفض الأكفّ من قراءة الفاتحة. فيلقي السلام عليهما. يحكي له أبو اليزيد ما اتّفق عليه والسنغالي، يطلب من ابنه كتابة عقد بهذا الاتّفاق، يبصم عليه بعد العشاء، دون أن يخبر أحدًا من إخوته. ينتهي اليوم برجوع المزارعين عند غروب الشمس، يغتسلون ويتهيّأون ويملأون بطونهم. يسهرون في مندرة الدار من دون الشيخين. فقيام ثلاثين ليلة بالتمام والكمال ستنتهي غدًا، قبل ليلة زفاف أبي اليزيد والسنغالي.



Twitter: @ketab_n

# غراب في السماء

نزل السنغالي يرافقه نصحي ضيوفًا على الحاجّ أبي سباق، صديق أبي اليزيد، في قرية «أولاد يحيي» بسوهاج، يتّفقان معه على شراء ماكينة العصارة الجديدة، بعد أن ألقى ابن أبي اليزيد بتوصية أبيه على مسامعه. يرى السنغالي التروس الحديديّة الضخمة ساكنة في ساحة كبيرة تحت مظلّة خشبيّة تحميها من المطر وأشعّة الشمس، فالطبيعة يمكن أن تنهش عمر تلك الوحوش الحديديّة بالصدأ الزاحف على أجزائها. يشعر السنغالي بصغر حجم الأشياء عند رؤيته الأوعية اللامعة، باصفرارها المنعكس على العيون تحت أشعّة الشمس. إنّها لا تختلف عن أطباق الطعام في شيء سوى حجمها، فقطر الطبق الواحد يقترب من خمسة أمتار. يلاحظ الحاجّ أبو سباق اندهاش السنغالي. ينظر إلى نصحي بهدوء علّه يخبره بأمر هذا الأسود. فكيف يريد أن يمتلك عصّارة وهو لا يعلم عن ماكيناتها شيئًا. إلّا أنّ فضول نصحي، وهو يجول بعينيه في أرجاء الساحة الكبيرة، والحسد يأكل صدره، منعه من الانتباه إلى نظرات مليئة بالأسئلة، تموج في صدر مالك أكبر



Twitter: @ketab_n

«شونة» من المعدّات الحديديّة في جنوب الصعيد. يعود الحاجّ أبو سباق ببصره مرّة أخرى إلى السنغالي، يسأله إن كان المكان معدًّا أم لا؟ فماكينات العصر تحتاج جدرانًا تحتمل وزنها الثقيل. يهزّ السنغالي رأسه بالنفي، يعرض عليه أبو سباق أن يرسل إليه بعمّال متخصّصين في بناء أفران الطهي، وأبار العصير والتي تسمّى بـ «بالدنّ»، قبل وضع ماكينات العصر وأطباق النحاس في أماكنها. يعده أبو سباق بانتهاء البنّائين من تجهيز المكان بعد أسبوع واحد، يليه إضرام النار في «المَحْمَى» مدّة ثلاثة أيّام متتالية، حتى تجفّ الجدران، وتصبح صمّاء تحت أوعية النحاس الكبيرة، يليها تركيب تروس العصر، وتجريبها بمرور خامّ العصير في المجرى الصغير المؤدّي إلى «الدنّ» تكون بعدها مهيّأة لاحتواء العصير الخام، فيُنقل إلى أطباق النحاس أعلى الفرن.. يغلي إلى أن يتحوّل إلى عسل أسود، بعد فترة يعلمها الطبّاخ أو العامل على الأفران. لا يبخل عليه الحاجّ أبو سباق بما يعرفه عن أمور لا يعرف خباياها إلّا من عمل بتلك المهنة، لا يدري لماذا يتكلّم بأريحيّة مع هذا الغريب، يتخلّى عن تحفّظه الشديد في التعامل مع الغرباء. ربّما السبب في رسالة أبي اليزيد، التي نقلها له ابنه نصحي. لم يفكّر كثيرًا في هذا الأمر، فهو تاجر مخضرم، علّمته الأيّام أنّ الشاري له أقدام، إمّا أن تكون أقدام خير وسعد أو أقدام شؤم، وهذا الغريب له أقدام سعد، ظهرت كرامتها سريعًا. يأتيه تاجران آخران، يشتريان تروسًا وأطباقًا نحاسيّة بعد مغادرة السنغالي، ففي يوم واحد باع الحاجّ أبو سباق ما يبيعه عادة في شهر. يحمد الله ويرسل البنّائين كما وعد ضيف أبي اليزيد. يوصيهم بإتقان ما يفعلون، فهذا العمل يخصّه هو شخصيًّا. يصدق وعده ويعمل البنّاؤون بوصيّته، وقد انشغل عنهم مالكها الجديد بزفافه و«عديله» أبي اليزيد.



Twitter: @ketab_n

لم تهدأ الحركة في الدارين بقرية «بهجة» وقرية «الفارُقيّة». يتجمّع أطفال شوارعهما، يجرون خلف ثيران تجوب طرقات القرية قبل الذبح. يبدأ القصّابون في نحرها أمام دار الحاجّ أمين، يوزّعون لحومها على أهل القرية، ويشعل الطبّاخون نار المواقد. يطهون. يعدّون وليمة تكفي مدعوّين وأعيان وأصدقاء أبي العروستين. يجلس أمين السماعني في مندرته مزهوًّا بزفاف ابنتيه الاثنتين في وقت واحد. يضع يده في يد الحاجّ أبي اليزيد بجلبابه الصوفي الرمادي ذي الكنار الأسود الفاخر، يلتحف عباءته السوداء. يتوسّطهما المأذون الشرعي بدفتره الكبير، يعلو المنديل الأبيض كفّي الصديقين، يتلو المأذون صيغة عقد الزواج بصوت يسمعه جميع من في المندرة. يشهد الشيخ السنغالي وابن الحاجّ أمين على العقد. ويأتي دور أحمد السنغالي. يتبادل الأماكن مع أبي اليزيد بجوار المأذون. ويشهد على عقد زواجه صديقه الشيخ عبد الحميد. تنطلق بعدها أصوات طلقات الرصاص ابتهاجًا بمصاهرة تعني الكثير لكلا العائلتين.

تتحرّك الجِمال من أمام منزل الحاجّ أمين، يحمل الجمل الأوّل العروس الأولى وأمّها، ويحمل الثاني العروس الثانية وعمّتها. يليهما جِمال تحمل القريبات، ثم جِمال أخرى تحمل صناديق من خشب الجوز المحلّى بالصدف، بداخله أمتعة العروستين، «القبقاب» تنتعله العروس صغيرة السنّ ليلة الزفاف، كي تبدو أطول من غيرها، ومرآة ذات إطار نحاسي، وعلبة الزينة المليئة بمحارم من حرير، ومكاحل وزيوت، و«منديل» النقد، توضع «النقطة» فيه عند زيارة العروس في يوم الصباحيّة من الأقارب والمعارف. يحيط بالموكب الأخوة والأب والأعمام، تسبقهم إلى دار أبي اليزيد عمّات الفتاتين، يجهّزن فُرُش إقامتهما بمساعدة حريم دار أبي اليزيد، ويعددن عشاء المهنّئين. يبدأ



Twitter: @ketab_n

الجزّارون في نحر العجول بقرية «بهجة». ينشغل فريق من الصبية في دقّ أوتاد كمرابط لبغال المدعوّين وحميرهم. فُرشت المندرة ورُشّت المياه أمامها، ونُصبت «الدكك» بطول الشارع الفاصل بين الدار والترعة، يصل الركب مع أذان العشاء، تسبقه طلقات ناريّة، بعد استئذان إخوة وأعمام العروسين من أبي اليزيد كعادات أهل الصعيد.

يترجّل المهنّئون أفرادًا عن بغالهم، تاركين لجامها للصبية. يربطونها في الأوتاد المنغرسة أمام الترعة مقابل البيت، يميّز كلّ «ركوبة» عن الأخرى برسم على فخذها أو زندها، بحلاقة شعر جلدها السميك، بأشكال تحدّدها عائلة تلك «الركوبة» أو صاحبها، بهلال أو هرم أو علامات مختلفة. يقف أولاد أبي اليزيد في ساحة أمام الدار. يستقبلون المهنّئين، يرشدونهم إلى أماكن جلوسهم، تمتلئ المندرة وساحتها أمام الدار، بأناس تحلّقوا في دوائر سداسيّة، حول طبليّات خشبيّة، تراصّت صواني الطعام عليها، يليها أدوار الشاي المتتالية. يغادرهم أبو اليزيد إلى غرفته والسنغالي إلى بيته بعد تلقّي التهاني، يعمّ السكون المكان، إلّا من صوت حكي الضيوف ومناقشاتهم الخافتة. لم يبدأ الصخب مرّة أخرى إلّا بخروج أخت عروس أبي اليزيد بالإشارة البيضاء الملطّخة بالدماء، معطية إيّاها إلى أخيها، فيبدأ في إطلاق النار من سلاحه بدفعات متتالية. ينهض الحاضرون، يؤكّدون التهاني بإطلاق الأعيرة الناريّة، يصيبهم الهياج مع قدوم إشارة عروس السنغالي من الناحية الأخرى، فتنطلق الزغاريد من الدارين. تبدأ أطباق الأرزّ باللبن تمرّ على الجميع، إيذانًا بخروج العريسين بجلاليبهما البيضاء، يسلّمان على الحاضرين، وقد اصطفّوا صفًّا واحدًا. يحتضن السنغالي جسد أبي اليزيد وهو يهنّئه بعروسه ويدعو له.. يبادله أبو اليزيد الدعاء، ويهمس في أذنه بنصيحة علّمته إيّاها زيجاته الستّ السابقة، يضغط على



Twitter: @ketab_n

كفّه وينظر إلى عينيه كي لا ينسى. يلقي على سمعه كلمات لم يفهمها السنغالي في حينها. يخبره أبو اليزيد أنّه لا ضير من أن يكذب الرجل على زوجته. نصيحة غريبة في ليلة حافلة، لم يشعر أحد من الملتفّين حولهما بما همس به أبو اليزيد في أذن السنغالي. ينفضّ العرس بطقوسه المعتادة منذ القِدم. تمكث العمّة في بيت أبي اليزيد مع الإبنة الكبرى، وتبقى الأم مع الابنة الصغرى، في الغرفة الثانية في بيت السنغالي. فللمكان الجديد وحشة وغربة، تشعر بها العروس في ليلتها الأولى. خلف باب الغرفة الأولى يقترب السنغالي من زوجته آمنة، تحاول أن تخفي خجلها واستغرابها من لون بشرته المختلفة عنها، يخرج من طيّات ملابسه خاتمه الفضّي ذا الفصّ الأحمر، ينظر إلى عينيها العسليّتين قائلاً:

ـ هذا عِرْضي فحافظي عليه.

يتذكّر فجأة نصيحة الحاجّ أبي اليزيد. حسب العجوز أنّ فرحته يمكن أن تلهيه عن حذره، فيبوح الرجل بأسراره. يضحك من أفكار لم ترواده سابقًا، فتظهر أسنانه البيضاء أمام آمنة، لم تنبس بكلمة وهي تسلّم يديها إلى السنغالي. يضع في إصبعها الخاتم، ويتوسّم خيرًا في زوجته ذات الخمسة عشر عامًا، بجمالها الأبيض وجسدها النحيل فيُقْبِل عليها باستحياء، فلم تدر إلّا والسَكينة تغشاها، وهدوء لم تعرفه سابقًا ينطلق فيضًا من عذوبة، وسعادة لم تألفها من قبل. يفجّر في قلبها حبًّا له، أيقنت به أنّها قد فازت بزوج لن تعرفه نساء الأرض بعدها منذ الليلة الأولى.

تمرّ الأيّام الثلاثة من دون خروج الزوجين من الدار، يأتي أبناء السماعني في اليوم الرابع. فالزيارة فرض في هذا اليوم. يحملون الذبائح وأرطال السمن البلدي ذي الرائحة النفّاذة، والخبز الأسمر



Twitter: @ketab_n

وذكائب القمح والشعير وأقفاص الطيور. تبدأ الحياة بطقوسها المعتادة من جديد كما كانت في السابق، إلّا من انشغال السنغالي مع البنّائين، القادمين من «شونة» الحاجّ أبي سباق، يرفعون جدران العصّارة مكان الطاحون القديم. ينتهي العمّال من بناء أماكن النحاستين الكبيرتين، أعلى الكانون الضخم، يرسل لهم أبو سباق ثلاثة تروس ضخمة، ويدخل أوّل حمل من أحمال القصب على ظهر جِمال أبي اليزيد. ينزع السنغالي جلبابه، ويشمّر عن ساعديه السوداوين، متمتمًا باسم الله، يقبض على بضعة أعواد من القصب، دافعًا إيّاها بين الترسين الكبيرين المتلاصقين رأسيًّا، ومع أوّل ضربة من خيزرانة في يد الصبيّ، على مؤخّرة الثور المعصوب العينين، والمقيّد بحبلين طويلين، يلتقيان في دائرة حديديّة، تعلو عمودًا من الصلب، ينتهي بترس معشّق في آخر، ينقل حركة الثور الأفقيّة إلى حركة رأسيّة، فتدور معها أسهم العصر الحديديّة، فتخرج من الناحية الأخرى كورقة ممضوغة بالية، بعد أن تخلّصت أليافها من سائلها الحلو الأخضر. يسقط الخام في بركة صغيرة أسفل السهمين، يسير في ممرّ ضيّق، حاملاً في طريقه التراب إلى أوّل حوض.. أو «دنّ». تتوالى أحمال القصب بعدها من أرض أبي اليزيد فيمتلئ الدنّ الثاني، يتبعه الدنّ الثالث، حتى امتلاء آخر دنّ، مع آخر حمل من القصب، أتى به «الجمّالة» وقت أذان المغرب. يتمتم السنغالي بأدعيته ويردّد العاملون خلف صوت أذان الشيخ عبد الحميد. يلتفت إليهم السنغالي، يدعو لهم بالبركة في سرّه. ويشير إليهم بانتهاء عمل اليوم، على أن يعودوا مبكرًا. ففي الغد سيبدأون المرحلة الثانية والأصعب، مرحلة طهي الخام حتى ينضج ويصبح عسلاً أسود.

يعرج السنغالي إلى المسجد قبل الصلاة بقليل. المسجد خالٍ إلّا



Twitter: @ketab_n

من بعض عجائز القرية. يسأل السنغالي صديقه في طريق عودتهم عن أحوال أبيه. يضحك عبد الحميد، فلا قلق على أبيه في زيجته السابعة. يفترق الصديقان كلٌّ إلى داره. يجد الشيخ السنغالي زوجته في انتظاره، وقد أعدّت له مياهًا ساخنة وملابس نظيفة من صندوقه الخشبي. أروقة الدار نظيفة ومرطّبة بالماء في جنباته، وحول الشجيرات الخضراء القصيرة، تلفح وجه السنغالي نسمة باردة، تحمل رائحة زهر مسك الليل، تفوح في ساحة البيت الصغيرة.. يحمد الله بصوت خافت، ويبتسم في وجه آمنة. فتومئ برأسها إلى الأرض في خجل ظهر جليًّا في احمرار وجهها الأبيض. يفترش السنغالي بعد اغتساله الحصير الملوّن على الأرض، تفوح رائحة شهيّة يسيل لها لعابه قبل أن تأتيه زوجته بالطعام. تتوقّف يده أمام فمه، يلحظ سكون زوجته الواقفة خلفه، يسألها ما بها؟ ألا ترغب في مشاركته الطعام؟ يخرج صوتها الهادئ على استحياء، فهي سوف تأكل من بعده، تتعالى قهقهته وهو يطلب منها أن تنسى تلك العادات القديمة منذ عصور بالية، كما أخبرها في أوّل ليلة لهما. يسحب يدها. يُجلسها بجواره بحنوّ، يحكي لها ما دار في عصّارته اليوم. تنصت له بفرحة طفل ظاهرة على وجهها. تحمل الصينيّة بعد انتهائهما من الغداء. يتلقّفها زوجها وينهض خلفها حاملاً عنها الطعام إلى قاعة الطهي، يشير إليها كي تأتي له ببرّاد الشاي. تحكي له آمنة ما حدث في يومها، وهما جالسان أمام برّاد نحاسي وكوبين صغيرين، يتربّعان قبالة بعضهما على الأرض. بعد أن لملمت آمنة بعض قوالح الذرة الجافّة وأضرمت فيهم النار، يتناول السنغالي بعض أعواد النعناع الأخضر، النابت بين الشجيرات الصغيرة أسفل الجدار. تحكي له عن زيارة نساء دار الحاجّ أبي اليزيد، من دون أختها. فيحظر على العروس الخروج إلّا بعد أن تتمّ خمسة عشر



Twitter: @ketab_n

يومًا. تعجبها كثيرًا زوجة الشيخ عبد الحميد، تشعر في حديثها بألفة وطيبة قلب يعلمها السنغالي جيّدًا.. فهي زوجة الشيخ عبد الحميد...

ـ الطيّبات للطيّبين.

قالها صادقة من قلبه في وجه آمنة. ينهض إلى دار أبي اليزيد، ويصحب صديقه عبد الحميد إلى المسجد.. فيرافقهما قناوي وهو منكّس الرأس كعادته، يتسمّع في خنوع إلى سؤال السنغالي عن حال أبيهم، فهو لم يره منذ ليلة الزفاف. يقتحم قناوي فجأة الحديث، وقد أصابته ضحكة أراد لها أن تخرج من فمه ساخرة من أبيه قائلاً:

ـ أصله عريس جديد.. والبنت صغيرة عليه...

لم تعنِهِ نظرات أخيه عبد الحميد القاسية، فهو كمن تخلّص من حجر يسدّ حلقه، قذفه من جوفه في وجه أيٍّ كان، حتى وإن كان أخوه الأكبر. يلتفت عبد الحميد إلى السنغالي متجاهلاً كلمات أخيه قناوي، يدعوه إلى السهر معهم في المندرة بعد الصلاة، فأبوه يرغب في رؤيته والتأنّس بوجوده.

تمتلئ المندرة بالقادمين من المسجد. يهمس السنغالي في أذن عبد الحميد، فلن يستطيع إطالة السهر معهم، ويترك زوجته بمفردها في الليل. يداعبه عبد الحميد، يفضي إليه بصوت خفيض وكأنّه سرّ، فالزواج له أثار تتمكّن من الرجال سريعًا. يتّخذ الحاضرون جلستهم المعهودة حول نار المنقل في ليالي الشتاء، يعلوه برّاد الشاي على جمراته الحمراء. يدخل عليهم أبو اليزيد ملتفًّا حوله أحفاده، فينهض أبناؤه قيامًا حتى يجلس، بعد أن صافح السنغالي. يبدو عليه الشرود، وقد مسح الوهن وجهه وجسده النحيل. لاحظ عبد الحميد نظرات الرأفة المشوبة بقلق بدا في عينيّ السنغالي، فأراد أن يخفي مشاعر لا



Twitter: @ketab_n

يرغب أن يراها أبوه في عيون أحد. راح يتحدّث عن ابنه طه، فقد أتمّ حفظ جزء من القرآن الكريم! تصل الإشارة إلى السنغالي فيجيبه قائلاً:

ـ عال يا شيخ عبد الحميد.. ربّنا يطرح فيهم البركة.

يشرب السنغالي الشاي الساخن على عجلٍ. يستأذن أبي اليزيد ويلقي السلام على الحاضرين ثم يغادر. يرافقه عبد الحميد مشيّعًا إيّاه، وفي الطريق يتحدّث السنغالي محاولاً إخفاء قلقه على أبي اليزيد، يشعر عبد الحميد بما يدور في صدر صديقه، فيطمئنه. فأبوه يصيبه السكوت بعد كلّ زيجة. يصارحه السنغالي بأنّه يرى خفوت ضياء عينيّ أبيه، يشخص إلى الأرض في حزن. يغمغم عبد الحميد بعد برهة قائلاً:

ـ الأعمار بيد الله...

يشدّ السنغالي على يد صديقه أمام باب بيته، ويرجع عبد الحميد إلى مندرة دار أبيه. لم ينبس الحاجّ أبو اليزيد بكلمة طيلة الجلسة الصامتة. ولم يجرؤ أحد من أبنائه على الكلام. يخرج كيس نقوده من «سِيّالة» جلبابه. يعطي ملّيمًا لكلّ حفيد من أحفاده كالعادة، ثم يغادر إلى مخدعه، متأبّطًا ذراع كلٍّ من خليفة وقناوي، حتى ما قبل غرفته، يلتفت إليهم قبل ولوجه إلى الغرفة، آمرًا إيّاهم أن ينقلوا باقي قصب الأرض الشرقيّة غدًا إلى عصارة السنغالي. يرجعا إلى المندرة بعد أن أغلق أبو اليزيد بابه، ويغادر الأحفاد تاركين آبائهم وأعمامهم يكملون سهرتهم. يبدأ قناوي كلامه بالسخرية من أبيه الذي يأكل الأفيون كشابّ صغير السنّ، يريد أن يضاجع من الحريم مائة. وهو لا يعلم أنّ جسده العجوز لن يحتمل ذلك. يؤكّد نصحي على خرَف عقل أبيه فكيف لرجل قارب الثمانين أن يرغب في الإنجاب! يقلّب نصحي



Twitter: @ketab_n

جمرات النار على المنقل بعصا حديديّة صغيرة، يرمق أخاه قناوي بطرف عينه بخبث ومكر. يحاول أن يرى وقع كلماته المهينة على أخيه العنّين. يحمرّ وجه قناوي غضبًا. يجاهد كي يخفي حنقه على أخيه صبحي، فيصبّ غضبه على هذا الأسود الغريب، يصفه باللئيم الماكر، استطاع أن يدخل دارهم، ويخدع أباهم، ويستولي على أرض بنى عليها بيتًا، وعصارة، ثم يتزوّج أخيرًا ويصبح عديلاً لأبيهم.

يقطع الشيخ عبد الحميد متعة شماتة باقي إخوته في أبيهم. بعد أن انتظر انتهائهم من تقيّؤ ما في جوفهم. يسألهم إن كانوا حقًّا خائفين على صحّة أبيهم؟ أم أنّهم يخشون على أرض، من ريعها يفتحون بيوتهم ويطعمون نساءهم وأطفالهم، ويرتدون منها ملابس تستر أجسادهم؟! يجهز عليهم وقد ارتفع صوته غضبًا وحنقًا. ينكّسون رؤوسهم خوفًا من غضبة أخيهم، وما يمكن أن تؤدّي إليه. يربت حامد على يدي الشيخ عبد الحميد ويطلب منه الهدوء، فإخوته لا يستحقّون منه كلّ هذا الغضب واللوم، ولن يفلح ذلك في تهذيب نفوسهم الخبيثة. يحوّل حامد بصره إلى الجالسين، يبصق عليهم، وينعتهم بالذئاب التي لا تفرّق بين يدٍ تطعمهم ويدٍ تقتلهم. يُخرج بصقة من صدره مرّة أخرى. فناكرو الجميل لا يستحقّون سواها، يوزّع لعناته عليهم، ويذكّرهم أنّ الأرض والمال ملك لأبي اليزيد... أبيهم... وطالما كان هو على قيد الحياة، فليفعل بماله وأرضه ما يشاء، حتى إن وهبه لعابر سبيل!



Twitter: @ketab_n

# الأقارب عقارب

ـ جهّزتِ زيارة بيت الحاجّ أمين يا رُقيّة؟

يسأل أبو اليزيد زوجة ابنه عبد الحميد، وهو مرتكن إلى جدار «الصباط». يرتشف الشاي من كوب قد أعدّته له هانم... زوجته السابعة. يطمئنّ أبو اليزيد على حمولة البغال، فبعد قليل سترحل نسوة عائلة الحاجّ أمين السماعني، متّشحات بالسواد الملفوف على أجسادهنّ، يتحرّك الركب المنتظر أمام الدار، يُساق بينهم عدد من الخراف يحاوطهم عبد الحميد وقناوي على بغلتيهما، يشقّان الطريق إلى قرية الفارُقيّة في حمى ابنيْ الحاجّ أبي اليزيد. تجلس الأختان مع نساء الدار، بعد مغادرة الركب، ووداع الأمّ والعمّات، والدعوات تخرج دافئة من أفواههنّ، بالستر والرزق بالذُرِّيّة الصالحة لبناتهنّ. ترحّب زوجة الشيخ عبد الحميد بالفتاتين، تدعو لهما بالهناء والسعادة في دارهنّ الجديدة، فتمصمص زوجة قناوي بشفتيها وهي تتصنّع الدعاء بهداية سرّهما. ترمق باقي النساء اللاتي انقسمن إلى فريقين، فريق يجد في قدوم هاتين الوافدتين رزقًا للبيت والعائلة، ويجمع رُقيّة وفتحيّة



Twitter: @ketab_n

ورشيدة زوجات عبد الحميد وخليفة وحامد، وفريق يرى أنّهما ستكونان وبالاً على الدار وفرقة بين الأخوة، وانتقاصًا من ميراث الأحفاد، كما ترى كلٌّ من زين وفردوس وسيّدة وأمينة، زوجات قناوي وحسين ونصحي وشهدي. تشعر الفتاتان بهذا الانقسام من أوّل مرّة تجلسان فيها مع حريم الدار، فصدْق حديث الفريق الأوّل واضح في كلامهنّ، والتأكيد على أنّ الدار ملك لهما كما هو الحال مع باقي الساكنات، والتواء الشفاه ونظرات الأعين من باقي النسوة كان سببًا في نفور آمنة وهانم من الفريق الآخر، فكلامهنّ يحمل التهديد ورائحة الحقد والحسد، على الرّغم من سكوت فردوس ورشيدة، فلم تنبسا بكلمة وهما تراقبات بناتهنّ الصغيرات اللاهيات بألعابهنّ مع أبناء وبنات عمومتهنّ، وكأنّ تلك الأمور لا تعنيهما ما دام أطفالهنّ بخير.

لم تكن الحريم تملك حرّيّة الجلوس والحديث في وجود الحاجّ أبي اليزيد بالبيت. فعصّارة السنغالي في الناحية المجاورة لدرب الرجولة، كانت مكانًا يرتاح أبو اليزيد في التواجد فيه. يرحّب السنغالي بأبي اليزيد، يتركه «عديله» مع أحد التجّار. ويدور في جنبات المكان. يتذكّره متهدّمًا في السابق، ولكنّه تغيّر وتبدّل وامتلأ صخبًا بحركة العمّال والصبية والجمّالين، يتقدّمون إلى الحاجّ أبو اليزيد، ينحنون ويقبّلون يديه احترامًا وتبجيلاً وخوفًا، يتأمّل أبي اليزيد أحمال القصب وماكينة العصر وغرف طهي الخام، ويراقب السنغالي من بعيد، فقد أصبح عليمًا بأمور تجارة العسل الأسود، وشؤون المزارعين والتجّار ومصطلحاتهم التي بدأ يتكيّف معها ويحفظها.. فميزان العسل الأسود بمكيال يسمّى القنطار. يتمّ الاتّفاق بين مالك العصّارة والتاجر والمزارع، إمّا بأن يأخذ المالك نسبة من العسل، أو أن يقبض ماله النقدي بعد بيعه، ودائمًا ما يترك السنغالي الاختيار للفلّاحين البسطاء،



Twitter: @ketab_n

بما يناسبهم هم وليس بما يناسبه هو، فالمزارع ينتظر بفارغ الصبر موسم القصب، حتى يقبض تكاليف معيشته على مدار عام كامل، هو عمر المحصول بطيء النمو. ينتشر صيت عصّارة السنغالي في أنحاء القرى المجاورة لقرية «بهجة»، فيأتي إليه غالبيّة من يزرعون محصول الكسالى. يتعاملون، ويتحامون فيه من جشع تجّار، يجوبون العصّارات الأخرى. يشترون قناطير العسل ويبيعونها في محافظات شمال مصر. تنبسط أسارير أبي اليزيد وهو يرى الحركة الدؤوب في المكان. يقترب منه السنغالي بعد أن أجهده التاجر في فصال ونقاش، وهو يعلم أنّه لن يخرج من بوّابة العصّارة الضخمة إلّا بعد أن يقرأ الفاتحة تيمّنًا بما استقرّ عليه. يحمل السنغالي «سطلاً» من عصير القصب البارد الرائق. يمدّ به يده إلى أبي اليزيد، يجلسان على فروش من صوف الغنم، يمدّد أبو اليزيد قدميه، وهو يبدي رضاه عمّا وصل إليه حال الطاحون القديمة، تبدّلت أركانها، فأصبحت عصّارة تعلو أصوات ماكينتها في أرجاء المكان. يشعر السنغالي بأهمّيّة وجود تلك العصّارة عند أبي اليزيد، يعلم أنّها أمانة في عنقه، حتى بعد أن يسدّد دينه. يُخرج أبو اليزيد من تحت عباءته حزمة من الأوراق الخضراء، ملفوفة ومربوطة بشريط من الكتّان الأسود. يعطيها للسنغالي قائلاً:

ـ وباقي الورق هايوصل في خلال يومين من البندر مع صاحبك عبد الحميد.

يغمز بطرف عينه مداعبًا السنغالي. فتفلت منه ضحكة، لم يستطع أن يكبحها داعيًا بالصحّة وطول العمر لأبي اليزيد. يستأذن العجوز متعلّلاً بحاجته إلى الراحة، يتّجه إلى داره، فينفضّ اجتماع النسوة بمجرّد سماعهم لسعاله إيذانًا بقدومه.. تتّجه كلّ واحدة منهنّ إلى مخدعها، يدخل أبو اليزيد مخدعه، تستقبله زوجته هانم، تعدّ له



Twitter: @ketab_n

الشاي والنرجيلة الخاصّة به، يبتسم فتظهر الرغبة في عينيه، تناوله جلبابًا أبيض ذا أكمام قصيرة، يرتديه ويجلس متّكئًا إلى الأرض. . يفتح كفّه عن قطعة بنّيّة لزجة، تنضح زيتًا قاني اللون، يضع نصفها تحت لسانه والآخر في كوب الشاي، يتحوّل بعد برهة إلى لون فاتح، كمن سكب لبنًا أبيض على الشاي الأسود، يتجرّع رشفات منه مع أنفاس الشيشة المتتالية.



Twitter: @ketab_n

# الذين ماتوا... أحياء

يخيّم السكون في جنبات دار أبي اليزيد، إلى أن يرتفع صرير البوّابة الخشبيّة. تنفتح على مصراعيها، ويدلف كلٌّ من قناوي وعبد الحميد ساحبين زمام بغلتيهما إلى زريبة البهائم. يريحا ركوبتيهما، ينادي عبد الحميد ابنه طٰه كي يضع الماء للبغال بعد رحلة شاقّة، إلى قرية «الفارُقيّة» في الطقس السيّئ. شيّعا نسوة الحاجّ أمين السماعني بعد أن اطمأنّن على بناتهنّ في دار أبي اليزيد، فلا يهدأ لأبيهم بال حتى يرجع أبناؤه من كلّ رحلة يقومون بها إلى بلاد خارج حدود قرية «بهجة». يسأل عبد الحميد ابنه عن جدّه! وقبل أن ينطق الصبي بكلمة، ينشقّ هدوء ما بعد غروب الشمس، عن صرخة عميقة، تأتي من حجرة أبي اليزيد، يسرع الإبنان، وينفتح الباب عن هانم، وقد صبغ الاحمرار وجهها الأبيض، وتوتّر شوّه ملامحها المنقبضة يهزّ جسدها بعنف ارتعاشات متتالية. تجمّد لسانها في حلقها. يلج عبد الحميد وأخوه، يفاجأون بأبيهم ممدّدًا على الأرض من دون حراك. تحوّل لون وجهه إلى بياض الموتى. تهرول النسوة وباقي الأبناء يتملّكهم الفزع



Twitter: @ketab_n

والارتباك. يصطدم الكبار بالأطفال، يلتفّون حول عبد الحميد الجالس على الأرض، ورأس أبيه في حجر جلبابه بين كفّيه صامت، تخترق ولولة الحريم وصراخهنَّ جدران البيت، حتى تصل إلى مسامع الجيران، ينتفض السنغالي مسرعًا إلى داخل الدار لأوّل مرّة، منذ أن استقرّ به المقام في قرية «بهجة»، يخرّ إلى الأرض هو الآخر، بجوار الجسد الممدّد، تخرج حروف الكلمات متحشرجة مختنقة بالدموع.

يأتي قاطنو درب «الرجولة» أفواجًا. لا يعرفون ما حدث. يصيبهم الوجوم من خبر بوفاة أبي اليزيد، فالجميع إلّا من بعض أبنائه، قد نسي أنّ الموت يمكن أن يباغت الرجل العجوز. يتجمهرون أمام البوّابة الخشبيّة العتيقة في انتظار خروج جثمان أبي اليزيد. أتت نسوتهم يواسين حريم الدار. يُخرج عبد الحميد زوجته وزوجات إخوته من الغرفة، وقد تهوّشت شعورهنّ وضرب السواد وجوههنّ في لحظات قليلة. يشمّر السنغالي عن ساعديه مع عبد الحميد، يبدأ الشيخان في تغسيل الجسد النحيف. يذهب قناوي إلى «المنجّب»، ينفحه أكثر من أجرته. يدور «المنجب» في البلاد المجاورة، يحمل طبلة كبيرة معلّقة حول رقبته، ينقر على جانبيها بعصا من الخيزران، يعلن وفاة أبي اليزيد، يعاونه في إعلان خبر الوفاة في البلاد البعيدة بعض أبنائه، فمهنتهم تتوارثها الأجيال، تُعلم القرى التي يسكنها أزواج بنات الراحل وكلّ أعيانها بالخبر. ويبدأ الأحفاد الصغار، يساعدهم من هم في مثل أعمارهم من صبية الدرب، في دقّ أوتاد كمرابط لبغال المعزّين، فتلك مشكلة تؤرّق العائلات الكبيرة، ممّن لها سمعة وصيت. يستمرّ العزاء بها مدّة سبعة أيّام، تتقدّم خلالها كلّ قرية برجالها ونسائها بواجب العزاء.

ينشغل عبد الحميد والسنغالي في تغسيل البدن النحيف الراقد



Twitter: @ketab_n

أمامهما عاريًا، إلّا من بشكير موضوع أعلى وسطه، يخفي سوءته. يسكبان الدموع في صمت، كما يسكبان الماء على الجسد الممدّد على سريرين من جريد النخل، يستقرّ تحته وعاء، يجتمع فيه ماء الغسل. يُلفّ الجسد الخالي من الحياة في كفن أبيض، يُقبّل عبد الحميد رأس والده قبل أن يختفي الوجه تحت غطائه. يدخل ابنا الراحل بصندوق خشبي، أتيا به من المسجد. يضعون به جسد والدهما برفق، يحملانه خارجيْن من الدار، فتتعالى الصيحات والصرخات وكأنّه وداع أخير. لا فرق بين زوجات الأبناء وزوجات الجيران. يتجه الحشد للصلاة عليه في المسجد المكتظّ بأهل القرية جميعًا، ويبقى من لم يجد مكانًا بالداخل، فيصلّي في الخارج. حشد كبير يشيّع جثمان الراحل، فأبو اليزيد سيبيت ليلته الأولى خارج داره، بجوار أبيه وجدّه الأكبر، في مدافن العائلة بقلب الصحراء، التي تبعد عن قرية «بهجة» مسيرة ساعات طويلة. يسير المشيّعون يتقدّمهم المقدّس كُندس، يجاوره أحد الأبناء ممسكًا بكلوب يضيء الطريق، يتحلّق حولهم في نصف دائرة باقي العائلة ورجال الدرب، يحمل مقدّمة النعش كلٌّ من السنغالي وعبد الحميد، يساندهما في حمله من المؤخّرة المقدّس أسعد وابنه الأكبر، وبعض من رجال وشباب درب الرجولة. يحملون كلوبات بعضها مضيء والبعض مطفأ. فالرحلة طويلة في الليل الحالك، يتبادل السائرين حمل «النعش»، حتى تنتهي مهمّتهم أمام مقابر العائلة، ينزل الكفن الأبيض المحمول على الأذرع الأربع من الخلف، يتلقّفه أحدهم داخل تلك الفوهة السوداء، إلى باطن الأرض. أضيء المكان بنور مصابيح، أحالت المكان إلى نهار. يُغلق القبر بالحجارة، ويصبّ عليها الحُمْرة الليّنة والرمال. يخرج السنغالي كتابه ذا الغلاف الأزرق، ويقرأ ما تيسّر له من القرآن، ثم يغرس شجرة صبّار صغيرة أمام شاهد القبر،



Twitter: @ketab_n

يفعل مثله كلّ من أبناء أبي اليزيد. يتلو الحاضرون حول القبر بعض سور القرآن الكريم، ينتظرهم في ركن آخر غير بعيد، المقدّس كندس وأصحابه يلفّهم الصمت، احترامًا لشعائر رفاقهم. يودِع الأبناء في قبر مظلم جسد الأب، ينظر عبد الحميد والسنغالي إلى شاهده، والدموع تباغتهم مرّات ومرّات.

يرجع الموكب سيرًا كما ذهب سيرًا، عند هبوط أوّل أشعّة النهار. تراصّت الدكك وفُرِشَت بجوار بعضها بعضًا، أمام مندرة دار المرحوم أبي اليزيد. قام أبناء الدرب برشّ المياه، والوقوف يدًا بيد مع الأبناء والأحفاد، تأتي أوّل أفواج من القرى المجاورة مع أذان الظهر، ينزل الفرد منهم عن بغلته مناولاً زمامها لأحد الصبية، يسوقها الصغير إلى مربطها. يضع الماء والعليق أمامها. فالاعتناء بركوبة الضيف كإكرامه. تصل بنات أبي اليزيد برفقة أزواجهنّ، وأبنائهنّ الصغار، وبعض من نسوة ورجال عائلات الأزواج. يبدأن دخولهنّ بالعويل والصراخ إشارة إلى قدومهنّ، يردّ عليهنّ بالمثل النسوة الجالسات بصحن الدار. يعلو صوت الشيخ محفوظ إمام المسجد العتيق بتلاوة القرآن. يقف عبد الحميد مع إخوته والسنغالي أمام المندرة، فتشيّع المعزّين لا ينتهي إلّا بعد صلاة العشاء من كلّ يوم.

لم تكن فجيعة المتوفّى لأهله فقط، فلا يبقَى الحزن في داره، بل يمتدّ إلى جيرانه أيضًا. وعلى مدار الأيّام السبعة لا يغادر أيٌّ من رجال وشباب درب الرجولة العزاء. تقوم نسوتهم كلّ يوم بالتناوب في إعداد الطعام وحمل الصواني إلى دار المتوفّى للثلاث وجبات، حتى ولو لم يؤكل الطعام. ينفضّ العزاء في اليوم السابع، ويكون يومًا عصيبًا مهيبًا، يأتي فيه الجميع مرّة أخرى، يقدّمون واجب العزاء للمرّة الأخيرة.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الفصل الثالث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# و بومة في البيت

هواء ثقيل حطّ على جنبات البيت منذ قدوم فهيمة... الابنة الكبرى لأبي اليزيد... لم تدر كلٌّ من الأختين الوافدتين حديثًا إلى دار الراحل سرّ ذلك. ولم تكن حالة الحزن هي ما أثقلت الجوّ المشحون بهذا الترقّب. فالصمت الخانق يخفي غليان قدور توشك على الانفجار. همسات النسوة الخافتة، ثم الخرس فجأة عند ظهور فهيمة، خلق شعورًا قابضًا، أوجد طريقه إلى الجميع. شقاء يعرف الرجال أنّه ينتظر اللحظة المناسبة كي يطفو على السطح، فيزيد من أوجاع أهل الدار. وكانت اللحظة المناسبة هذه أسرع ممّا تخيّلوا جميعًا، فعلى الرّغم من فراسة عبد الحميد، ومكانته كأكبر الأبناء بعد عبد الرحيم، إلّا أنّه لم يكن يتوقّع أن يجتمع باقي إخوته، للحديث عن إرثهم من أبيهم أبي اليزيد بعد انتهاء أيّام العزاء مباشرة. اتّخذ بعض إخوة عبد الحميد الذكور وجميع أخواته البنات جانب الإبنة الكبرى فهيمة. اتّفقت معهم على تقسيم البيت الذي يأويهم، والأرض التي يأكلون من حرثها. كانت تفكّر منذ جنازة أبيها في هذا الغريب، فقد



Twitter: @ketab_n

سمعت عنه الكثير من أخويها، قناوي ونصحي. سخطت عليه منذ أن علمت بقربه من أبيها. لقد تقبّلوا النصارى على مضض، فقد كانوا صغارًا، وخوفهم من أبيهم منعهم من مجرّد الاعتراض. وعندما كبروا بقي الوضع كما هو، لمرور زمن عليه وصعوبة تغييره. أمّا أن يأتي غريب لا يمتّ إليهم بصلة، فيحوز العصّارة وبيتًا جديدًا، فذلك لن يسمحوا به على الإطلاق. تظهر قوّة فهيمة.. كبرى بنات أبي اليزيد.. في خضوع إخوتها لأوامرها. قسّمت فهيمة التركة دون اعتبار لما كان يخطّط له أبوها، فيجب أن تؤول العصّارة لهم، يعمل عندهم هذا الغريب بأجره إن رغب أو يفارقهم، بعد أن يسدّد ثمن البيت الذي يأويه. يتّفق الجميع أن تتحدّث هي بالنيابة عنهم مع أخيها الأكبر عبد الحميد، الجالس الآن مع أخويه خليفة وحامد في دار السنغالي.

يُخرج عبد الحميد مظروفًا كبيرًا من داخل صديري تحت جلبابه، يعطيه للسنغالي. بدت الحيرة على وجه السنغالي وهو يتلقّف الظرف المنتفخ. تتبدّد دهشته عندما يتصفّح الورق الأزرق بداخله، يفاجأ بأوراق تحمل أختامًا حمراء وسوداء بها اسمه، مقرونًا بلقب السنغالي؛ وأوراق أخرى مكتوبة بخطّ اليد، ممهورة بتوقيع عبد الحميد وأخيه خليفة، تحمل بصمة مكتوب أسفلها اسم الراحل أبي اليزيد. يبلّل عبد الحميد طرف قلم الكوبيا، يطلب من السنغالي أن يوقّع باسمه كما هو موجود بأوراقه الرسميّة، بجوار كلمة المشتري. يرى عبد الحميد التردّد على وجه صديقه، فيطمئنه أنّ إباه قد أعدّ كلّ شيء سلفًا، فهو كان يعلم ما سيحدث بعد رحيله، واتّفاقهم في سداد دينه كما هو، لا تغيير فيه، سوى أن يبقى سرًّا فيما بينهم حتى حين. يخبرهم حامد عن مجلس حرب، تتزعّمه الأخت الكبرى، تعدّ فيه الحبائل الآن بمكر، كي تنال وإخوتها الباقون ما يعتقدون أنّه حقّ لهم، أضاعه والدهم



Twitter: @ketab_n

بخبل أصابه في أواخر عمره. يحاول السنغالي أن يجد طريقة يرضي بها جميع أبناء وبنات أبي اليزيد من دون أن يشقّ صفّ تلك العائلة. تشدّ يد عبد الحميد كفّ صديقه.. يرجوه أن يضع اسمه على تلك الورقة. فهي ما ستحميهم جميعًا، قبل أن تحميه هو من طمع وقطيعة تخطّط لهما فهيمة. يذكّره برغبة المرحوم أبي اليزيد، فأبوهم قد استأمنه على ماله وبيته في حياته، ويأتمنه الآن كواحد من أبنائه بعد مماته. يمسك السنغالي بالقلم المرتعش بين أصابعه، يكتب اسمه وذلك الشعور القاسي يراوده ثانية، ولكن تلك المرّة أشدّ قسوة من سابقاتها. يرى صنيع أبي اليزيد بالرّغم من رحيله، وشعور بالعجز عن الوفاء بدين لشخص رحل عنه فجأة، قبل أن يتمكّن من القيام به.

يوقّع السنغالي على عقد ملكيّة العصّارة، يعاهد نفسه أن يحفظ اسم أبي اليزيد وشرف أهله جميعًا، طالما كان حيًّا يمشي على الأرض. يغادر أبناء الراحل إلى دارهم، يشيّعهم السنغالي كي يأتي بزوجته من دار أبي اليزيد، فهي لم تترك أختها طيلة أيّام العزاء، تواسي أختها في وفاة زوجها. يستأذنه عبد الحميد كي تبيت زوجته ليلتها مع أختها، وألّا تتركها في هذا الوقت العصيب. فهو يعلم ماذا يمكن أن تلوكه ألسنة أخواته البنات، من سوء نذر قدوم الأختين إلى الدار، تفضحه عيونهنّ وهمزاتهنّ. يرضخ السنغالي لما يطلبه عبد الحميد. يقفل راجعًا إلى حجرته، ويبدأ قيام الليل والصلاة حتى ما قبل الفجر بقليل.

تغفو رُقيّة وهي جالسة، تسند رأسها إلى عمود السرير. لم يشأ عبد الحميد أن يوقظها، ولكنّها تفتح عينيها عند سماعها حركة زوجها، يفتح صندوق ملابسه. يسألها عن أحوال زوجة أبيه وأختها. تتنهّد رُقيّة بأسى، تجيبه وكأنّ الأختين هما ابنتاها. سوء حالتيهما يوجع قلبها،



Twitter: @ketab_n

وصغر سنّهما وإحساسهما بالخزي يمرض جسديهما. تعتقدان أنّ قدومهما مشؤوم على الدار. يطلب منها عبد الحميد أن تراقبهما جيّدًا، وألّا تغفل عنهما، فما هو آت أسوأ ما ستمرّ به دار أبيه. وجود فهميّة وجماعتها ينذر بهذا، فالخير ذهب برحيل أبيه. ولم يتبقَّ سوى المكر يسكن شقوقًا، يخرج منها فيحتلّ أرجاء البيت. يجلس عبد الحميد على الأرض متّكئًا إلى حافّة السرير، تأتي له زوجته بالخبز واللبن، يتناوله رغمًا عنه. فحلقه يسدّه الجزع. يسألها عن أحوال أبنائه. يلاحظ تترقرق دمعة من عيني رُقيّة، يؤثر الصمت. فأبناؤه تملّك منهم الحزن على جدّهم وكأنّهم رجال كبار رحل عنهم أبيهم، ولوّن اليتم وجوههم، يلوك عبد الحميد اللقمة الأخيرة في فمه وهي تأبى أن تنزل جوفه المحتقن. يجاهد كي لا ترى رُقيّة حالته. تشعر بما أصاب زوجها، تأتي له بكوب من الماء، يتجرّعه مرّة واحدة ثم ينهض إلى فراشه. يتوسّل النوم كي يغشى بدنه، ولكن من دون جدوى. إلى أن يرتفع صوت السنغالي بأذان الفجر من أعلى المئذنة الخشبيّة لمسجد السبيل، يمتلئ المسجد بعبد الحميد وأخويه وأبنائهم الذكور. يسرع طه بعد الصلاة، يفتح المندرة لأعمامه وأبيه بصحبة السنغالي. يفطرون سويًّا كأيّام مضت. تتعلّق عينا السنغالي بمكان جلسة المرحوم أبي اليزيد، يتمتم بقراءة الفاتحة. يدخل صبيّان يحملان صينيّة كبيرة تتراصّ عليها أطباق الفول والبيض المقلي في أواني فخّاريّة سوداء، وأطباق من الصاج الأبيض بورود حمراء على حوافّه، يسكن فيها العسل الأسود وخرطات من الجبن الصعيدي. يبدأ الجميع في تناول الطعام في سكون، يقطعه السنغالي بسؤاله عن أصحاب الأراضي في نواحي البلاد. أيمكن أن يشتري منهم محصول القصب هذا العام؟ يخبرهم بما دار بينه وبين الراحل أبي اليزيد، وفكرته في أن تعمل العصّارة



Twitter: @ketab_n

طوال الموسم. يعطيه عبد الحميد أسماء أصحاب الأراضي الكبيرة، ويعرض عليه أن يتّفق معهم بالنيابة عنه. فهو يعرفهم وهم يعرفونه. يقاطعهم حامد وهو يرسل اللقيمات إلى فمه تباعًا دون التفاتة لما يقولون، برسالة يحملها من أختهم الكبرى. ترغب فهيمة في لقاء العائلة جميعًا بعد صلاة العشاء لأمر هامّ، أمر يعلمه الجميع، ولكنّهم يلتزمون الصمت حتى يكتشفوا ما بجعبة فهيمة.

ـ على خير.. بلّغها أنّنا هانقعد بعد صلاة العشا في الشقّ القبلي..

أجابه عبد الحميد بهدوء، وقد عافت نفسه الطعام. يغادر الجالسون كلٌّ إلى عمله. يفكّرون فيما سيحدث في مواجهة اليوم. يهبط الليل بنسماته الباردة، فتخفّف من حرارة النهار الطويل. يتجمّع الإخوة مرّة أخرى كما اتّفق معهم عبد الحميد، في جناح أبيهم المرحوم أبي اليزيد. تستقبلهم كلمات فهيمة بصوتها الهادئ. تنظر إليهم واحدًا تلو الآخر، تحدّثهم عن الحقّ وعدل الله، وهم إن كانوا من بطون أمّهات مختلفات، إلّا أنّهم أولاد الحاجّ أبي اليزيد في النهاية، يحملون اسمه؛ وعليهم أن يحافظوا عليه وعلى أرضه، كي تبقى سيرته كما كان حيًّا، وما تركه لهم فهو إرث يجب أن يقسّم بحسب شرع الله. تصمت قليلاً في خبث، ترى أثر حديثها الناعم على عبد الحميد وأخويه. ينصت عبد الحميد باهتمام لما تقوله، يتناول رشفة من كوب الشاي بتكاسل، فمكر أخته لا يفلح معه سوى أنّه دهاء العجائز. يخبرهم بهدوء أنّ هناك أمرًا قد أغفلوه تمامًا، وهي أرملة أبيهم، وشرع الله الذي تتحدّث عنه أخته يجب أن يحترموه جميعًا، فالقرآن يسكن دارهم، ورجال البيت يتولّون خدمة أوّل مسجد في قرية عمّرها أجدادهم.. فلا حديث عن إرث حتى تفي أرملة أبيهم عدّتها.



Twitter: @ketab_n

أربكت ملاحظة عبد الحميد حسابات فهيمة التي تلجلجت قليلاً، ثم أردفت محاولة أن تخفي انفعالها:

ـ يعني هاتكون مراته حبله ولّا إيه؟

قالتها باستنكار مشوب بقلق، تحاول إخفاءه بنظراتها يمينًا ويسارًا، في وجوه باقي إخوتها، كأنّها تستمدّ العون منهم، ولكنّهم لم يكونوا أفضل حالاً منها. يؤكّد عليهم عبد الحميد أنّه لا كلام في تقسيم الميراث إلّا بعد أربعة أشهر وعشرة أيّام. يحمرّ وجه فهيمة غيظًا وتفقد حرصها على إخفاء ما تضمره، تسأل عن العصّارة، وكيف يديرها هذا الأسود، وعن البيت الذي يسكنه وزوجته!، ترتفع الهمهمة بين الحاضرين، ونظرات ترقّب بين الأخوة. فاجأتهم أختهم في الإفصاح عمّا اتّفقوا عليه، وما يمكن أن يؤدّي ذلك من إفشال خططهم. يضحك عبد الحميد وتخرج الكلمات هادئة كالعادة وهو يجيبها:

ـ العصّارة والبيت ملك الشيخ السنغالي.. وأنا شاهد على عقد البيع، والورق الأزرق معاي..

انتفضت فهيمة كمن لدغها عقرب في يوم صيفي حارّ، مستنكرة على أبيها الراحل فعلته، تسبّه وتلعنه في عقلها، تحاول أن تكذّب كلام عبد الحميد بسؤالها عن ثمن البيت والعصّارة، فيتحدّث الجميع في وقت واحد ما بين سخرية واندهاش. يصمتون فجأة عند وقوف فهيمة اعتراضًا على ما قاله عبد الحميد، فلا يمكن أن يصدّقوا هذا الكلام رديء المعنى، كيف ترك أباهم البيت والعصّارة لغريب لا يعلمون أصله أو من أين قذفت به إليهم البلاد؟! وكيف لأخيها الشيخ عبد الحميد أن يشهد على عقد بيع، يعلم تمامًا أنّه كلام على ورق،



Twitter: @ketab_n

فلم يقبض أبوهم ملّيمًا أحمر، وإن فعل، فأين الأموال التي قبضها؟! يتدخّل أحد الأخوة من جماعة فهيمة، يؤكّد أنّ أباهم ترك العصّارة للسنغالي عندما طلبها هو منه كي يُعيد بناءها، وأنّ البيت مثله مثل باقي بيوت النصارى في درب الرجولة. يستمع الشيخ عبد الحميد وفريقه إلى أختهم وجماعتها، حتى إذا ما فرغوا من صبّ اللعنات على من وجدوا مكانًا يأويهم من دون حاجة إلى دفع المال، وحماية وجيرة في كنف دارهم، ينطق عبد الحميد أخيرًا، وقد كسى صوته بنبرة حاسمة قويّة. فما أراده وفريقه قد حدث في اجتماعه بفهيمة وإخوتها، فأبوهم باع من دون أن يدفع له أحد ملّيمًا واحدًا، وبالمثل فعل مع الشيخ أحمد السنغالي، وإن لم يكن لهذا الكلام صدى في عقولهم فلا داعي له الآن، ولا حديث إلّا بعد عدّة أرملة أبيهم. ينهض عبد الحميد وخليفة يتبعهما حامد. يتركون فهيمة تنفّس غضبها على نصحي وقناوي، تقرّعهم وتسبّهم على جهلهم بتلك العقود، بعد أن غيّرت مفاجأة عبد الحميد كلّ ما كانوا يخطّطون له منذ أيّام.

يسرع عبد الحميد إلى غرفته، يرسل رُقيّة إلى زوجة السنغالي، تسأله زوجته عمّا دار في جلستهم مع فهيمة. فلا يجيبها، فتلتزم الصمت. تغادر رُقيّة إلى حجرة المرحوم أبي اليزيد، تستدعي آمنة كما أمرها عبد الحميد. تأتي بعد برهة ومعها زوجة السنغالي.

ـ خير يا شيخ عبد الحميد؟

تسأله آمنة والقلق باد على صوتها. تخفي نصف وجهها بشال أسود، وتستمع إلى ما يقوله عبد الحميد. يطلب منها أن تعي جيّدًا ما سيقوله لها، فهي الآن الأمينة على أختها، لا تتركها أو تغفل عنها، ستساندها زوجته رُقيّة. فقد أوقف تقسيم الميراث حتى يعلموا إن كانت أختها هانم تحمل في أحشائها آخر ذريّة أبي اليزيد أم لا. جماعته



Twitter: @ketab_n

تحت أمرها وأمر أختها في أيّ شيء تريدانه، وعليها أن تخبر أرملة أبيه بذلك. أومأت آمنة برأسها. تغادر وتحكي لأختها ما قاله لها الشيخ. ينظر عبد الحميد إلى رُقيّة، ويدعو الله أن يعينهم فيما هو آت، فقد انفرط العقد، وإن لم يتنبّهوا جيّدًا ويحذروا من ألاعيب فهيمة وجماعتها، فسيضيع كلّ شيء. شرّ فهيمة يعمي بصيرتها، ستبيع كلّ شيء، وإن تمكّنت ستبيع البيت ذاته، إلى أن تحقّق مرادها ومبتغاها. ولن يعارضها إخوتها، فقد أحكمت سيطرتها عليهم تمامًا، وهم على شاكلتها بأيّة حال، يكرهون أنفسهم بقدر ما يكرهون الآخرين، يملأهم الحقد والغلّ على ما في يد الغير، من أبناء أو مال أو حتى علم وتقوى. يؤكّد عبد الحميد على زوجته أن تعاون الأختين، ولا تتركهما على مائدة فهيمة، تؤذيهما أو تعبث بعقليهما. تهزّ رُقيّة رأسها، يتملّكها الحزن والخوف، حزن على فرقة الأخوة... وخوف ممّا هو آت. تدعو الله بالستر، ثم تنهض لإعداد العشاء لأطفالها وزوجها.

تسكن الحركة في الدار. يتشبّع الهواء برائحة دخان حطب تحوّل إلى رماد، ينفضُّ الجميع، كلٌّ إلى فراشه، إلّا زوجة قناوي وفهيمة. تتقلّص ملامح الإبنة الكبرى، شفقة وحزنًا على حال أخيها وزوجته، تردّد على مسامعها أمثالاً وحكمًا عن الخلفة والعزوة، فالمرأة تبقى ناقصة طالما لم تنجب. فهي أرض الرجل، يبذر فيها حبًّا، فتنبت له ولدًا. تنظر بعينين مليئتين بخبث واضح إلى وجه زين. تعايرها بعزوة أبيها، وعدد من أنجبهم من ذكور. تتجرّع زوجة الأخ رشفة ماء علّها تخفّف طعم مرارة الخزي، وشعور العار من كونها عاقرًا. ينتشلها صوت فهيمة مرّة أخرى، وكأنّه صوت ناصح أمين: تخبرها عن حلّ لمشكلتها، فهي عالمة بشؤون الحياة! خبرت كيف يكون إحساس مهانة زوجة لم تنجب، وسط حريم ولّادة في بيت عائلة كبيرة، تنصحها



Twitter: @ketab_n

بالذهاب إلى «لولو» الغجريّة، فتبرق عينا زين بحيرة وتردّد من تلك «البلّانة»، بائعة الأقمشة الحريريّة والكريب ورمش العين، كيف لها أن تكون سببًا في حملها!؟ لم يطل اندهاش زين، فقد سكبت فهيمة كلامها المسموم في أذنيها، فكيف لمن يحدّث الجنّ ألّا يعلم بأحوال البشر.. تؤكّد على صحّة كلامها بنسوة عواقر، سمّتهن لها اسمًا اسمًا، ذهبن إلى «لولو» الغجريّة وقد رزقهنّ الله بالولد بعد شهور تسعة.

يداعب الكلام خيال زين. توافق على مرافقه أخت زوجها لتلك «البلّانة»، بعد أن أقسمت لها بكتمان الأمر. تتّفقان على الذهاب إلى الغجريّة في الغد باكرًا، كي تعدّ لها وصفة أو... «صوفة»... من القماش الأسود، المشبع بماء رجال يخدمونها في أفعالها السفيلة. يؤمن بها مريدوها بأنّها حلول ناجعة، لمصائب لا يقوى على حلّها إلّا الجان. تتدثّر كلٌّ من المرأتين بـ «بردة» سوداء تخفي معالمها، وتغادران بحجّة الذهاب إلى ضريح الشيخ «سليم»، تسيران منذ شروق الشمس حتى الضحى، وسط حقول وزراعات، تعبران جداول ماء، تسيران إلى أن تظهر قمم النخل، تمشيان وسط جذوعها الغليظة حتى تصلا إلى عشش من قشّ أصفر، في حيّ الغجر على أطراف حدود قرية «بهجة». تقفان أمام إحداها، تتميّز براية سوداء، تستأذن فهيمة من زين للدخول أوّلاً، ثم تخرج بعد برهة. تشير إلى زوجة أخيها بالدخول، تسلّم زين على الغجريّة، فهي دائمة التردّد على دارهم. تعرض بضاعتها وتتسمّع الأحاديث، تضحك «لولو» فتظهر أسنان بيضاء، تستقرّ واحدة ذهبيّة في ركن فمها الأيسر. ترفع يديها المعروقة. تشير إلى زين بالجلوس. تسألها عن أحوال الفراش مع زوجها، فيحمرّ وجه الزوجة وتنظر إلى الأرض، تحكّ «لولو» بعض خصلات من شعرها، هربت من أسفل



Twitter: @ketab_n

منديل معقود حول رأسها تتدلّى منه قطعًا فضّيّة، تتأمّل حال المرأة، تفحصها من أخمص قدميها إلى قمّة رأسها. تنهض وتغيب عن فهيمة وزين لدقائق. ترجع وفي يدها قطعة مستديرة من الصوف الأسود بحجم ثمرة ناضجة، تفوح منها رائحة السائل القلوي اللزج. تهمس فهيمة في أذن زين، فالوصفة لن تتمّ إلّا بوضع الصوفة في «بيت الولد»، يعمّ سكون القبور في الخيمة. تضطجع زين على ظهرها حتى تستقرّ وصفة الغجريّة في رحمها، تنهض بعد أن ارتدّت إليها أنفاسها. تدسّ فهيمة قرطين من الذهب في يد «لولو»، قبل أن تغادر مع زوجة أخيها. تسير المرأتان المتّشحتان بسوادهما، مطأطأتي الرأس. تلاحقهنّ أعين بعض الرجال من العشش المجاورة وقد علت وجوههم ملامح ساخرة فاجرة.

يعلو أذان العصر عند دخولهما الدار، تهمس فهيمة في أذن زوجة أخيها، أن يتمّ في فراشها الليلة ما أمرتها به «لولو». تبتسم زين مرتبكة، تهرب إلى مخدعها. تعدّ ما يشتهيه زوجها من طعام. تنتظره عند غروب الشمس. يرجع من كانوا في الحقل جميعًا، كلٌّ إلى «منامته». ينزع قناوي جلبابه، فتستقبله زين بالماء الساخن والصابون. تطلب منه أن يتناولا عشاءهما وحدهما، يضحك الزوج ويغتسل. ثم يجلس قبالة زوجته، وقد أصاب الزيغ عينيها، يرمي قناوي بجسده إلى السرير، ولكنّه يشعر بحرارة تحرق جلده، بدأ العرق ينفذ من مسامه كأنّها أبار ماء متفجّرة، ترتبك زين ولا تدري ماذا تفعل! تهرول إلى «منامة عبد الحميد»، فيسرع إلى أخيه، لم يعرفه قناوي، فقد تملّكته الحمّى، وصوت هذيانه غير المفهوم يحيّر عبد الحميد. يتجمّع الأخوة جميعًا حول قناوي. بدأت الهلوسات تخرج من فمه بكلام مقلوب وحروف مضغمة. يدلف طه إلى أبيه، يهمس في أذنه بوجود السنغالي



Twitter: @ketab_n

في «المندرة»، يهرع إليه عبد الحميد، يخبره بما أصاب أخاه. يصمت السنغالي قليلاً، ويطأطئ رأسه. يتمتم بآيات من القرآن، ينهيها بطلب الرحمة للراحل أبي اليزيد، وهو ينظر إلى عبد الحميد قائلاً:

ـ علاج أخيك في يد زوجته.

لم يفهم عبد الحميد ماذا يعني صديقه! يكمل السنغالي قائلاً:

ـ سبع حبّات من بذور الخروع في كوب من الماء المغلي، تشربها زوجته.. ولننتظر أمر الله.

يزعق عبد الحميد على أبنائه ليأتوا له بحبّات من بذور الخروع. يتفرّق الصبية تحت شجراتها المنتشرة على حافّة الترعة أمام الدار، يجمعون ما أمرهم به والدهم. تغلي رُقيّة الحبوب وتضعها في كوب. تتجرّعه زين. تجزع من مرارته في حلقها. تتجمّع النسوة وأزواجهنّ في منامة قناوي الغائب عمّا حوله. تجلس زوجته أرضًا وهي لا تدري شيئًا. يتملّكها الرعب كلّما نظرت إلى وجه فهيمة، والنساء لا يفهمن ما يحدث، وقد بدأت زين في التقيّؤ بعنف. يحمرّ وجهها ثم يزرقّ، يغشاها العرق. تمسك أسفل بطنها، ثم تجري إلى المرحاض، ترافقها رُقيّة وفتحيّة إلى الباب، يسمعن أنينها وكأنّها تضع مولودًا، يتحوّل الأنين إلى صراخ عند خروج قطعة من الصوف مغموسة في دم قان. تقتحم رُقيّة المرحاض، بعد أن قطعت زين الأنفاس. تساعدها على النهوض، فتتأبّط ذراعها إلى مخدعها، وقد غرقت ملابسها في عرق بارد، انتفض له جسدها. تستأذن النسوة الرجال في الخروج كي يبدّلوا ملابس المرأة، ويطعموها قبل أن تذهب في سبات الموت، بجوار زوجها النائم، وقد انتظمت أنفاسه وبرد جسده وكأنّ شيئًا لم يكن!

تستعجب النسوة ويتلمّظن على أفعال الزوجين، وما يتناولونه من



Twitter: @ketab_n

وصفات وأعشاب طلبًا للولد. تصمت رُقيّة وفتحيّة، فهما تنأيان بنفسيهما عن حديث، تنغمس الأخريات فيه حتى الفجر. يسأل عبد الحميد صديقه عن تلك الحادثة، وهم في طريقهم إلى الدار بعد صلاة الفجر. يصمت السنغالي، ثم يبتسم في وجه عبد الحميد قائلاً:

ـ الحمد لله... فهي كرامة من الله، نحفظ بها معروفًا لا ندري كيف سداده.

يجيبه عبد الحميد مندهشًا:

ـ من الأولياء لا يدري الخطاب ولا الجواب.

ملّ إخوة قناوي من أفعاله. فقد باتت عاديّة بالنسبة لهم من كثرة تكرارها. وتوقّفت النسوة في جلساتهنّ الدائمة، في النهارات المتشابهة، عن التندّر والتحدّث عن قناوي وزوجته. فتكرار الفعلة أفقدتها متعة السخرية. تنسخ الأيّام نفسها على الدارين، دار أبي اليزيد ودار السنغالي. بعد عمل يوم شاقّ تتخلّله بعض فترات الهدوء والسكينة في أوقات الصلاة، يرجع السنغالي إلى بيته، يغتسل ويتناول طعامه ويذهب إلى المسجد لصلاة المغرب. يلتقي بعبد الحميد في الطريق، فيتأبّط ذراعه في الغدو والرواح، يتمّ سهرته معه في الذِكر ومناقشة أمور الدين، أو يفترقان عند دار عبد الحميد.



Twitter: @ketab_n

# ذهب يُذِهب الحال

ـ البتّ حامل يا خليفة...

قالتها فتحيّة بفرح واضح على صوتها، ولكنّ الوجوم والصمت هو ما كان ردّ زوجها. يعلم خليفة الآن أنّ قيامة الدار ستبدأ عند معرفة فهيمة وباقي أخوتها بالخبر، ينتشله صوت فتحيّة مرّة أخرى من شروده قائلة:

ـ أكيد مرات عبد الحميد...

لم يتركها خليفة تكمل جملتها، ينهض متلحفًا بعباءته إلى أخيه حامد. يصطدم به في صحن الدار. فقد علم بالخبر من زوجته هو الآخر، يستأذنا بنقرات على باب غرفة الشيخ عبد الحميد، فيأتيهم صوته من الداخل ضاحكًا في وجوههم عند رؤيته لهم، فالخبر عرفه جميع من في البيت. يفترشون الأرض وتلحق بهم زوجتا الأخوين. تعدّ لهم رُقيّة الشاي. فطعمه المرّ لا يستغنون عنه أبدًا مع أصابع «الفايش» الصعيدي. يتّفقون على إخبار السنغالي بالأمر، فهو صاحب



Twitter: @ketab_n

العصّارة الآن. تتساقط قطرات الشاي من قطعة «فايش»، يضع خليفة نصفها في فمه. يحاول إخفاء توتّر بدا على وجهه من دون جدوى. يحذّرهم من مكر الأخت الكبرى. فلن يهدأ لها بال حتى تأخذ ما تريد. يداعب عبد الحميد شحمة أذنه في صمت، فالفرحة بخبر حمل زوجة أبيهم هي فرحة منقوصة، ومؤجّلة لتسعة أشهر إلى أن تضع حملها، وبعدها ستكون المواجهة العاصفة. جنس المولود هو من سيحدّد قسوتها، إن كان ذكرًا أم أنثى. وأوّل ما سيخطر على بال فهيمة هو مال العصّارة والبيت! ذلك هو ما يجب عليهم أن يبحثوا له عن إجابة في تلك المهلة. يطرق الأخوان ساكنين يفكّران في ما يجب فعله الآن، يقطع السكون صوت فتحيّة قائلة باستحياء:

ـ لو قلنا إنّ الشيخ أحمد اشترى من المرحوم بالأجل.. ويبقى الشيخ أحمد يسدّد على مهله!

تدور النظرات الحائرة على وجوه الجالسين. تصبّ رُقيّة الشاي مرّة أخرى في الأكواب الفارغة توًّا، ويخرج صوتها خفيضًا في حضرة زوجها وأخوته، تدلو بدلوها في تلك المشكلة. فحلّها بسيط. طمع فهيمة واضح للجميع، ولن يسدّ هذا الطمع سوى مقايضة البيت والعصّارة بالأرض، كلّ وارث يتنازل عن جزء من ميراثه في الأرض مقابل ما يملكه السنغالي. وليسدّد الشيخ دينه فيما بعد. فالأخت الكبرى ستطلب الدفع الفوري أو إخلاء البيت والعصّارة في الحال، وهذا ما يعلمه الجميع. تهدأ خواطر الأزواج قليلاً. فكلمات رُقيّة بها شيء من الحكمة، مقايضة أرض مقابل أرض هي الحلّ. يتنهّد عبد الحميد وينظر إلى أخويه. يرى الارتياح باديًا على وجهيهما، ولكنّه يرجئ الاتّفاق على التفاصيل حتى يتشاوروا مع السنغالي، غدًا بعد صلاة العشاء. تتّفق النسوة على إعداد وليمة يذهبن بها مع زوجته آمنة.



Twitter: @ketab_n

فرفقتها طالت مع أختها، منذ جنازة الراحل أبي اليزيد. يغادر حامد وخليفة مع زوجتيهما. يستعدّ الرجلان ليوم جديد، يبدأ بهبوط ندى الفجر على الجدران الطينيّة ببرودته اللاذعة، سرعان ما تتبدّد عند أوّل ضوء للشمس. تدبّ الحركة في بيوت القرية، ولا فرق بين صاحب أرض أو أجير. يعرج عبد الحميد قبل ذهابه لمدرسته إلى غرفة أخته فهيمة، يحاول أن يمهل نفسه وقتًا وباقي إخوته حتى يتمّ لهم ما أراده أبوه، يتحجّج بزوجها. فغيبتها طالت عن دار عبد الفضيل، ولن يقبل هو بكسر تقاليد بلادهم، بمكوث أخته إلى ما بعد عزاء أبيها طوال تلك الأيّام. تعلو الفرحة الخفيّة وجه عبد الحميد، وهو يرى تقلّص ملامحها، وامتعاضها من حديثه. توافقه على كلامه رغمًا عنها. تصفه بالعاقل وتمدحه برياء مفضوح. تطمئنه بأنّها تعرف حرصه على مصلحتها، وهو لا يقصد بكلامه هذا أن يطردها من بيت أبيها. لن تجرؤ على مخالفة كلامه الصائب، فلبيتها وزوجها عليها حقّ، وستستعدّ للمغادرة في اليومين التاليين.

يشعر عبد الحميد بأنّه قد اتّخذ دور الحاجّ أبي اليزيد في تنظيم شؤون الدار كلّما استطاع، ينهض مسرعًا تاركًا فهيمة في حيرة من أمرها. لا تدري ماذا تفعل في هذه المصيبة المتمثّلة في زوجة أبيها! أخذت الأفكار السوداء تتقافز في تلافيف رأسها، فماذا سيحدث إن أنجبت ذكرًا؟ يراودها شيطانها عن فكرة، أوقفت شعر جسدها، ماذا لو ماتت تلك الدخيلة؟ تنفض الفكرة بسرعة شديدة، ليس خوفًا من ارتكاب جريمة بقدر خوفها من افتضاح أمرها. فباقي زوجات إخوتها سيراقبن أرملة أبيها، ويعتنين بها، ولن يتركن مكروهًا يحدث لها. يتشتّت عقل فهيمة من كثرة ما يراودها من أفكار وهواجس، تتوالى كموج البحر الواحدة تلو الأخرى، تتذكّر ذلك العبد الأسود وما يحوزه



Twitter: @ketab_n

من أرض العصّارة والبيت، تلعن في سرّها أباها وسذاجته، وإخوتها الكثر، وزوجات أبيها، وجيرانهم النصارى. ضحكوا على أبيها في حياته. أخذوا منه الأرض وأقاموا عليها ديارًا لهم. وضحك هذا الغريب عليه بعد مماته كي يأخذ العصّارة والبيت. لم يسلم أحد من لعناتها السخيّة، حتى زوجها وأبنائها كان لهم نصيب منها. لم تستثنِ نفسها، أخذت تلعنها وتندب حظّها التعيس، منذ زواجها من «عبد الفضيل»، صاحب الأراضي وتاجر المواشي. يكبرها بثلاثين عامًا، أنجبت منه وهي طفلة لم يتجاوز عمرها الثالثة عشرة، فكانت طفلة تحمل طفلاً، ولم تتوقّف عن الإنجاب حتى أصاب زوجها الكبر. أتت له بثلاثة من الذكور وثلاث من الإناث، لم تدر، أتلعب معهم، أم تكون لهم الأمّ. خبرت كيف تتقن دورها بعد أن وجدت نفسها طفلة غريبة في قرية بعيدة. علّمتها الحياة القاسية أن تأخذ ما تريد بالحكمة تارة وبالدهاء في أحيان كثيرة، دفعها إلى ذلك معيشتها كالعادة في بيت عائلة «عبد الفضيل» المكتظّ بإخوته ونسائهم. أحسّت برغبة في «التمضّغ» بنشوقها الخاصّ. فرأسها تدور به الذكريات. أخرجت كيسًا ورقيًّا أبيض في حجم علبة الكبريت، تناولت «الهون» من أسفل السرير، تستند إلى ظهره في جلستها على الأرض. تفرك لفائف التبغ الصغيرة مع حجر صغير أبيض مالح الطعم، يساعدها على امتصاص التبغ في الفم. وضعت التراب البنّي بطرف سبّابتها في جوانب فمها، دابغة جنباته بطعم المسحوق المرّ. تضمّ شفتيها على ترابه. تتلذّذ بمرارته، تمتصّ رحيق المسحوق. انتشت ثم أخذت تتفل وتبصق ما علق بفمها من الأوراق المطحونة. تنتفض فجأة والذعر يهزّ جسدها من هذا الدود الأسود الصغير، يتلوّى من بين شفتيها، يتقافز على الأرض كضفادع صغيرة وضعت في مقلاة زيت مغليّ. جحظت عيناها وذهبت



Twitter: @ketab_n

أنفاسها. تبصق وتسعل بشدّة إلى أن جفّ لعابها وأصابها الاختناق. احمرّ وجهها، ارتفعت يدها كمن يريد أن يمسك الهواء كي يدخله إلى صدره عنوة. أدركت أنّها النهاية، فأغلقت عينيها وبدأ الزبد الأبيض المخلوط بالمضغة البنّيّة يرغي من بين شفتيها. يهتزّ جسدها بعنف على يد تهزّها، وصوت ينطق باسمها انتشلها من كابوسها الخانق. فتحت عينيها على وجه زوجة أخيها قناوي الواقفة أمامها، تمسك «بكوز» من الصفيح، تنثر مياهه على رأسها. تهزّ جسدها وتصرخ فيها كي تفيق. اختنق صوت زين بالدموع، وهي ترى فهيمة تنازع في غفوتها كمن يتشاجر مع ملك الموت. تفتح فهيمة عينيها الحمراوين بتثاقل ووهن، تتشهّد وتوحّد الله، ثم ترتشف الماء من الوعاء الصفيح وتغسل فمها، كمن يريد أن يمحو من فمه طعم شيء كريه ملازم له، تجرّعت الماء وكأنّها في صحراء قاحلة منذ أيّام طوال. تحمد الله، وتحاول أن تتجنّب عيني زين قائلة:

ـ الحمد لله يا زين.. «الخِنْيّقة» جاتني في المنام.

قالتها فهيمة محاولة إخفاء فزعها ممّا رأت، تغادر زين لتعود بعد قليل بكوبين من الليمون، تردّ به الدماء الهاربة من وجهيهما. لم يقرب النوم جفني فهيمة بعد ذلك، فمنذ أن سمعت خبر حمل زوجة أبيها وهي غائبة عمّا يدور حولها، بالها مشغول بمصيبة حطّت على رأسها، ولا تعرف لها حلًّا. تختلي بنفسها مع مسحوق التبغ، تمضغه وتتفله إلى الأرض كلّ حين. يظهر وجه «لولو» البلّانة على إحدى هذه البصقات، فتنفرج أسارير فهيمة، فالمرأة الغجريّة لها كرامات. تعلمها جيّدًا من كثرة ما كانت تراه عند زيارتها لها، منذ أن كانت فتاة صغيرة، في بيت أبيها أبي اليزيد، تصنع لها حجابًا أو تفكّ طلسمًا صنعه لها أحد كارهيها. وها هو صنيعها مع زوجة أخيها قناوي يؤكّد



Twitter: @ketab_n

براعة الغجريّة، لولا مرضه بتلك الحمّى، ولوثة عقله، وإصابة زوجته الغبيّة لكانت الوصفة أتت بمفعولها. يستقرّ رأيها على زيارة الغجريّة. تبحث عمّا تملأ به عين البلّانة، فلم تجد أفضل من الذهب.. فما يزيغ القلوب يزيغ الأبصار. تتّخذ طريقها في ضحى اليوم التالي إلى خيمة «لولو»، ذات الصارية السوداء في حيّ الغجر، تدلف إلى ذات الوجه البرّي، فتستقبلها بضحكة ماجنة. تتناول من يدها الخاتم الذهبي الأصفر، تنظر إليه مليًّا، ثم تقذف به باستهانة في كيس من جلد الماعز، معلّق في عمود الخيمة، تحكي لها فهيمة عن مصيبتها. تطلب العون والمدد، فتضحك الغجريّة مرّة أخرى. تسألها وهي شاخصة بطرف عينها إلى ركن في الخيمة، كمن يرمق شيئًا.

ـ «أتريدينهم الاثنين أم أحدهما»؟

تتلعثم فهيمة. تتردّد قبل أن تسألها بصوت مرتعش، إن كان رحيل الجنين سيؤدّي إلى رحيل الأمّ معه؟ تقترب منها الغجريّة، وقد بدا الحنق يكسو ملامح وجهها. يخرج صوتها حادًّا، تتوعّدها إن هي تلاعبت بالكلمات في حضرتها، فهي تعرف ماذا أتى بها إليها. ترجع إلى جلستها الأولى في منتصف الخيمة، تتربّع على حصيرة من فرو له رأس كبش أسود. تنكمش فهيمة على نفسها. تصيخ السمع إلى طلبات الغجريّة:

ـ خاتم ذو فصّ أحمر، و«خُرْج» من قماش، مربوط بشريط أخضر، وإيّاكِ أن تفتحيه.. إيّاكِ يا فهيمة.

تزوي فهيمة حاجبيها. تستغرب من طلبات لولو، فمن أين تأتي لها بذلك الخاتم؟ وهذا «الخرج»؟ تقترب الغجريّة من أذن فهيمة مرّة أخرى. تتحدّث بصوت هامس كمن يخشى أن يسمعه أحد، وبكلمات



Twitter: @ketab_n

كأنّها فحيح حيّة ترقد في بئر عميق جفّت مياهه:

ـ في داركم يا فهيمة، في صندوق العبد الأسود.

تنبعج ملامح فهيمة، كيف للبلّانة أن تعرف بمكان ما تطلبه منها! نفضت ما في رأسها، فالأمر لا يعنيها بقدر ما ترغب في تحقيقه. لربّما رأت الغجريّة الخاتم وأعجبها عندما كانت تعرض بضاعتها على زوجة السنغالي. ولكن ما حكاية هذا الجراب ذي الشريط الأخضر؟! أيمكن أن تكون قد شاهدته هو الآخر في دار السنغالي؟ لم تلقِ بالاً لما تطلب منها «لولو»، بل انشغلت بالطريقة التي ستحصل بها عليهم.

تنهض الغجريّة إلى «قربة» فارغة من الماء، تخرج منها ثمرة حنظل صفراء اللون، تدسّها في يد فهيمة. تطلب منها أن تشقّها نصفين، وتجفّف بذورها تحت الشمس، ثم تطحنها، وتضع لحمها في ماء بارد طيلة ليلة قمريّة واحدة. تسقي زوجة الأب من مائه، وتضع دقيق بذورها على ما تأكله المرأة الحامل حتى يتمّ لها ما تريده. تغادر ابنة أبي اليزيد مسرعة، ولكن يد «لولو» تستوقفها، تؤكّد عليها بصوت حازم قائلة:

ـ بعد غد يا فهيمة... بعد غد يأتيني ما أمرتك به، وإلّا سيصبح الطالب مطلوبًا!

بدأت الحيل تراود فهيمة طيلة طريق العودة إلى بيت أبيها، تخطّط وتفكّر في حيل وألاعيب، كي تحصل على ما طلبته الغجريّة، تسرع الخطى إلى الدار، تتلمّظ وهي ترى نساء إخوتها الثلاث يتحرّكن بهمّة ونشاط، يطهين طعامًا كغير عادتهنّ بعد العصر، تذهب حيرتها عند معرفتها أنّهم يعدّون زيارة للسنغالي. فتلوي فمها مستنكرة، وتمصمص شفتيها وهي تلعنه وتلعنهم في جوفها. تتركهم وتختفي في حجرة



Twitter: @ketab_n

بالبيت الكبير، تبحث عن طريقة للولوج إلى دار السنغالي. أعياها الفكر، فتغطّ في نوم عميق لا تفيق منه إلّا باختفاء الشفق الأحمر من السماء وهبوط ظلام الليل بسكونه البطيء، فيخفي معالم بيوت القرية الهادئة.

يلاقي الشيخ عبد الحميد صديقه السنغالي في طريقه إلى المسجد قبل صلاة العشاء. يباغته عبد الحميد قائلاً:

ـ اللي فكّرنا فيه حصل يا شيخ أحمد..

يتنهّد أحمد السنغالي. يهزّ رأسه بأسى ليس بخافٍ عن صديقه عبد الحميد. لا يريد السنغالي أن يكون سببًا في فرقة الأخوة، ولا يرغب أن يكون ردّ جميل الراحل بفرط عقد عائلته. يشدّ عبد الحميد على يدي السنغالي، ويخبره بأنّ الخلاف واقع لا محالة، وبعد صلاة العشاء سيجتمعون في داره. ينظرون ما استجدّ من أخبار ستغيّر كلّ ما كانت فهيمة وجماعتها تخطّط له. تعلو علامات الرضا قسمات وجه الشيخ عبد الحميد، فنفسه راضية عن حلٍّ وَجَده وأخوته لمشكلتهم، من دون أن يعلم أنّ هناك مفاجاة تنتظرهم في جوف دار السنغالي، مفاجأة قابعة في صندوق يرقد في غرفة نومه.

تتحرّك رُقيّة وزوجتا حامد وخليفة، عند سماعها صوت زوجها يؤذّن لصلاة العشاء. ترافقهنّ آمنة إلى دار السنغالي. يعددن المكان، فسهرتهنّ قد تطول مع رجالهنّ. يحمل الصبية أواني طعام فخّاريّة تتصاعد منها رائحة الأرزّ واللحم وأطباق «الويكة» الشهيرة والدائمة على موائدهم. تحمل الفتيات الصغيرات أباريق التمر هندي والماء البارد. يصل الرجال الأربعة. تلفح وجوههم نسمة باردة. تستقبلهم رائحة الريحان وعطر الليل النابت في جنبات البيت، وقد فُرشت



Twitter: @ketab_n

بالأبسطة والحصر بين الشجيرات القصيرة. يستقبلهم السنغالي ثم تُنصب مائدة العشاء. تختفي النسوة وآمنة في حجرتها. يتركن مجلس الرجال كالعادة. يفرغ الرجال من تناول الطعام، ويداعب السنغالي الصغار بسؤالهم عن أحوال دراستهم، وأجزاء القرآن التي حفظوها. ينهض الرجال إلى ركن تحت شجرة «الصنط»، يلتفّون حول برّاد كبير من نحاس وصينيّة تسكن فوقها أكواب زجاجيّة صغيرة أعدّتها لهم آمنة. ينقل الصبية الطعام إلى النسوة الجالسات بالداخل.

ـ دايمًا أصحاب واجب زيّ المرحوم ألله يرحمه..

قالها السنغالي، يرفع كفّيه إلى السماء ويبدأ في قراءة الفاتحة، ترتفع الأكفّ بالتلاوة في سكون إلّا من همهمات بحروف القرآن، يبدأ بعدها عبد الحميد في شرح خطّة زوجته وزوجات إخوته. يكمل حامد بعد أن ينهي عبد الحميد حديثه: بأنّ ما اتفقوا عليه سيكون سرًّا. لن يعلنوا عنه حتى تضع زوجة أبيهم مولودها. يسكت الجميع. يتأمّل السنغالي وجوههم بنظرة امتنان.. ثم بانت عليه لمحة حزن قائلاً:

ـ ﴿وَلْيَخْشَ الذينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا الله﴾ ـ صدق الله العظيم.

يستأذن منهم السنغالي. يأتي بعد برهة حاملاً «خُرْجًا» قماشيًا صغيرًا، يضعه في حجر عبد الحميد قائلاً:

ـ مالي بذهب يُذهب الحال. فلتعطوه لابنة المرحوم أبي اليزيد علّه يُرضيها.

يعلو الفزع وجه عبد الحميد عند فتحه للكيس، يفرغ الكيس في حجر جلبابه أمام أخويه. تتبدّل ملامحه رعبًا، وكأنّ حيّة رقطاء سقطت في حجره. تتّسع عينا حامد وخليفة، يرون بريق الذهب الأصفر في



Twitter: @ketab_n

حجر عبد الحميد. قطع كحبّات التمر الناضج.

يحتار أحمد السنغالي بين نظرات حائرة ونظرات خائفة. يردف قائلاً:

ـ إنّه ذهب من بلاده البعيدة، يقايضونه بأرواحهم في صحراء تصبح فيها الحياة أغلى من الذهب بحثًا عن قطرة ماء.

يخيّم السكون على الجميع. عيونهم لا تحيد عن قطع الذهب الثلاث. يشقّ الصمت صوت عبد الحميد، ينظر بحدّة إلى إخوته. يأمرهم بعدم الحديث عمّا دار الآن إلى زوجاتهم. إلى أن يتدبّر أمره. يلحظ السنغالي فزع عبد الحميد، فنظراته مختلفة عن نظرات حيرة أخوته، يبادره قائلاً:

ـ لقد رأيت هذا الذهب من قبل يا شيخ عبد الحميد!

يجيبه عبد الحميد وما زالت علامات الفزع بادية على وجهه، يحاول أن يبقي صوته هادئًا لكي تخرج الكلمات مفهومة: يخبر السنغالي بأنّه قد رأى حبّة من ذلك الذهب منذ زمن، بعد قدومه إلى دارهم بثلاثة أيّام. حيرة وتوتّر أصابت إخوة عبد الحميد. لا يعلمون ماذا يدور حولهم أو عمّا يتحدّث أخوهم. يطلب منهم عبد الحميد مرّة أخرى أن يكتموا الأمر. وليبقَ «خرج» الذهب في حوزة السنغالي حتى يفكّر في طريقة أخرى يرضي بها أختهم فهيمة، من دون أن يثير شكوكها أو يزيد طمعها فيهم. تنتهي سهرتهم التي لم يحسبوا لما حدث فيها حسابًا. يردّد الشيخ عبد الحميد اسم ابنه بصوت عالٍ، كي تعلم نساءهم بالرحيل. يودّعهم السنغالي إلى ما بعد باب بيته. يلتفت إليه عبد الحميد، يخبره بأنّ له «قعدة» أخرى معه غدًا في الوقت نفسه بعد صلاة العشاء. يسلّم عليه ويشدّ على يديه. يختفي وإخوته



Twitter: @ketab_n

ونساؤهم في ظلام الطريق.

يغلق السنغالي باب داره.. يتوضّأ ويصلّي ركعتين في صحن بيته. يدخل إلى غرفته، يرى زوجته آمنة بجلبابها الحريري الأخضر، تنفض شعرها فينسدل على كتفيها. تجلس على حافّة السرير النحاسي المرتفع.

ـ نوّرت دارك يا آمنة.

يحمرّ وجهها خجلاً. تتلعثم الكلمات في فمها وهي تخبره بأنّها حامل. ينتفض السنغالي ويضمّها إلى صدره بقوّة ليّنة، ويتمتم بشكر الله.



Twitter: @ketab_n

# دماء بدماء

تصيب الحيرة زوجة السنغالي من زيارة فهيمة لها في الصباح الباكر، فهي لم تعهد زيارتها لها منفردة، ولكنّها أخفت دهشتها خلف عبارات الترحيب بضيفتها، تنهض بتثاقل وبحرص على ما تحمله. فبطنها لم تتكوّر بعد من نبت زوجها السنغالي. تعدّ لها ما تشربه كواجب ضيافتها. تعتذر منها لانقلاب حال البيت في يوم الغسيل الأسبوعي، بأكوام الملابس بجوار «طشت» كبير في صحن البيت. تبقى فهيمة وحيدة في «قاعة» الدار، برهة من الوقت. تنفرج أساريرها عند رؤيتها للخاتم وهي تنظر إلى جوف مخدع آمنة، ينعكس ضوؤه الأحمر على عينيها. يشعّ من على سطح صندوق الملابس الخشبي القابع بجوار السرير، تهرول إلى الداخل وتقذف بالخاتم في صدرها. تفتح الصندوق فتفاجأ بـ «الخرج» ذي الشريط الأخضر كما أخبرتها الغجريّة، تدسّه هو الآخر أسفل ملفّها الصوفي الأسود وترجع مسرعة إلى جلستها الأولى، تتناول مشروب الحلبة الباردة وتنهي زيارتها بأحضان وقبلات صفراء ودعاء كاذب بالذرّيّة الصالحة. تخرج بعدها



Twitter: @ketab_n

بخطى سريعة إلى بيت أبيها. تتملّكها فرحة الفوز بشيء نفيس. لم يلحظ أحد من أهل الدار تلك السعادة البادية على فهيمة. تختفي عنهنّ في حجرتها حتى ينشغلن عنها بمهامهنّ المعتادة، فمن تخبز أمام الفرن، وأخرى تشعل «الكانون» أسفل طناجر الطبخ، ومن تحمل «مواجير» اللبن إلى قاعة «الخضّ»، فتصنع الزبد والجبن. تدور فهيمة بينهنّ، تتلصّص عليهنّ، حتى وإن تأكّدت من انشغالهنّ، تزحف وفي يدها «قلّة» ماء الحنظل، بمرارته التي سترجع زوجة الأب سببها إلى أعراض حملها. تستبدلها فهيمة بأخرى في مخدع هانم. ثم ترجع إلى النسوة مرّة أخرى، تدور بينهنّ وتلقي بكلماتها الخبيثة إلى زوجات إخوتها، فتعكّر عليهنّ مزاجهنّ.

يعلو قرص الشمس منتصف السماء. تعدّ النساء الغداء لرجالهنّ في الحقل. يأتي عبد الحميد بحمله إليهنّ قبل أن تتحلّقن حول موائد الطعام في صحن الدار. تنهض فهيمة إلى «ماعون» اللحم. تلتقط منه قطعتين، تنثر على أحدهما دقيق بذور الحنظل من كمّ جلبابها، ثم ترجع إلى حلقة الطعام. تتسامر مع زوجات إخوتها، تنظر باسمة إلى أرملة أبيها. تناولها قطعة اللحم قائلة:

ـ لازم تتغذّي يا مرات أبوي عشان اللي في بطنك يطلع شديد.

تقذف بقطعة اللحم في طبقها ثم تكمل مسامرتها مع زوجة قناوي، وكأنّ شيئًا لم يكن. ينفضّ الغداء وتنهض بعض النساء إلى «طلمبة» الماء. وترفع الأخريات ما تبقّى من طعام. يهدأ «صباط» الدار في ساعة ما قبل العصر. تلتحف فهيمة بردائها الأسود. تتسلّل إلى الخيمة ذات الراية السوداء في حيّ الغجر، تستقبلها الغجريّة على باب الخيمة وكأنّها تعلم بقدومها، تتلهّف لرؤية «الخُرْج» والخاتم، تبرق عيناها بلمعان شيطاني عندما ينعكس ضوؤه الأحمر، تتحسّس بيدها



Twitter: @ketab_n

«الخرج» وهي تغمض عينيها كأعمى يستكشف شيئًا لا يراه. تسألها فهيمة عن الخاتم، وسرّ لهفتها عليه؟ وماذا يوجد بالخرج؟ لم تسمعها «لولو». تحتضن الكيس القماشي وكأنّه شيء غالٍ قد وجدته بعد أن فقدته، تدسّه في جراب معلّق في عمود الخيمة وتشير بالانصراف إلى فهيمة. تستنكر ابنة أبي اليزيد فعلة الغجريّة معها، تسألها عن زوجة أبيها، وذلك النائم في أحشائها، ينغّص عليها حياتها، ترفع «لولو» سبّابتها في وجه فهيمة قائلة:

ـ الليلة... الليلة يا فهيمة... انتظري الليلة!

تدفع لولو الغجريّة بالمرأة إلى خارج الخيمة، وهي تردّد «الليلة.. الليلة». تصل فهيمة إلى دار أبيها قبيل الغروب، تدلف إلى حجرتها الرطبة وقد أصابها توتّر لم تعلم سببًا له. تجلس على الأرض أمام جذوة من نار، تضع عليها قهوتها السوداء وترتشف منها بعد أن تمتصّ رحيق «المضغة» المرّ بطعم التبغ المالح، تسمع أنين خافت من مخدع زوجة الأب، تكذّب أذنيها وتنهمك في حكّ لثّتها بالتبغ. يزداد الأنين ثم يختفي مع صوت عبد الحميد القادم من مئذنة المسجد، يدعو لصلاة العشاء. ينهي الصلاة ويسرع إلى دار السنغالي، فلم يغب صديقه عن صلاة قبل ذلك، يسأل عنه زوجته من خلف الباب، تخبره بخروجه مسرعًا، بعد أن أتى من العصّارة؛ ولكنّها لم تحك له عن غضب السنغالي، عندما دلف مفزوعًا إلى الدار. ينظر إلى مكان جلسة فهيمة وكأنّه رآها سابقًا. يسألها عن خاتمها، فتبحث عنه من دون جدوى، يسرع إلى مخدعه يبحث في صندوقه. يخرج بعد برهة وقد ارتدى ملابسه التي أتى بها منذ سنين، يتصالب حزامان أسودان حول صدره، ولثامه الأزرق حول رأسه ووجهه، يدسّ خنجره في جراب حول ساقه، يغادر الدار، وقد علت وجهه علامات الفزع والغضب.



Twitter: @ketab_n

يسرع الخُطىَ وسط الحقول في الظلام، حتى يصل إلى خيام منصوبة بين جذوع النخل. تبحث عيناه عن شارة سوداء، يتّجه صوبها مباشرة من دون صوت، ينزع الخنجر ويشقّ ظهر الخيمة. فتلتفت إليه «لولو» في هلع، تتبدّل ملامحها المنقبضة وتجحظ عيناها، عند رؤيتها للنصل المعقوف المشهر أمام وجهها، تلتفت إلى عمود الخيمة وتجري إليه، كي تحمي ما يحمله ذلك الجراب المعلّق عليه. يعاجلها السنغالي بضربة من خنجره في خصرها. تسقط الغجريّة أرضًا. تمسك يده وتحاول نزع الخنجر من بطنها، تنهض بقوّة وتفتح فاهًا، ترمق عينيّ السنغالي بنظرة قبل أن تشهق. ينزع السنغالي الخنجر ويدسّه ثانية في كبدها. تنفجر الدماء القانية، ويهمد الجسد برعشاته. يخبو ضوء الحياة من العين الشاخصة إلى قاتلها، في لحظة كأنّها ومضة برق في السماء، يأخذ السنغالي ما أمره سيّده بالحفاظ عليه بحياته من الجراب المعلّق، يمسح خنجره من الدماء ثم يدسّه مرّة أخرى في غمده! تهدأ أنفاسه ويقفل راجعًا وسط الحقول إلى بيته. ترتجف آمنة عند رؤيتها زوجها المخضّب بالدماء. تخذلها قدماها، فتسقط أرضًا مغشيًّا عليها. تفيق بعد مدّة لا تعلمها. تفتح عينيها على وجه السنغالي المضيء. تنبسط ملامحه بانفراجة من شفتيه، بعد أن اغتسل وارتدى جلبابًا أبيض. يرقد بجوارها على السرير، ويضع عن يمينه كتابًا ذا غلاف جلديّ أزرق، و«سرّة» من جلد بها رمال صفراء، يمسك مسبحته البيضاء في يده اليسرى، تنظر إلى ما ينظر إليه قائلاً:

ـ هذه سمائي، وهذه أرضي.

يلثم يدها بقبلة، ثم يضع خاتمه الأحمر في إصبعها قائلاً:

ـ وهذا شرفي... كما قال لي شيخي، والذي أخذت عهدي منه عندما غادرت وطني وأهلي قبل أن آتي هنا.



Twitter: @ketab_n

حكى لها السنغالي ما لا تعلمه زوجته عنه. بقيت مذهولة ممّا يقوله زوجها حتى انتصف الليل. يشقّ سكونه صرخة لم تكن تخفي على السنغالي، صرخة آتية من دار الراحل أبي اليزيد، من أعماق جوف أرملته النازفة حتى الموت. يغمض السنغالي عينيه، يتمتم ضاغطًا على يد زوجته الفزعة من صوت صرخة أختها قائلاً:

ـ أرواح ثلاث غادرت إلى ربّها في تلك الليلة، فليسامحنا الله جميعًا.



Twitter: @ketab_n

# ما بين مريم والأنبياء

يجد الحزن والموت مكانًا لهما في الدار الكبيرة. فقد رحل أبو اليزيد عن الحياة، غادر داره، فتلحق به زوجته الصغيرة، وجنين خُلِق في أحشائها. يتملّك الهمّ من السنغالي. يغيب عمّا حوله في جنازة أرملة من آواه وأمّنه، ينتبه في كلّ لحظة على صرخات الأمّ المكلومة، والعمّات الثكلى. تأتيه أصواتهنّ من خلف جدران الدار، المكتظّة بالنساء المتّشحات بالسواد. تعلو صرخاتهنّ على صوت مقرئ القرآن في جنازة مهيبة. تعجّب لها أهل القرية جميعًا، فهم غير معتادين على ذلك في مآتم النساء. ولكن مصيبة أمين السماعني في ابنته الراحلة كانت أشدّ من أن يبخل عليها بمأتم يُنصب لسبعة أيّام، مثلها مثل مآتم الرجال. لم ينقطع الصراخ والعويل إلّا بعد أن يحلّ التعب على النساء، فيسقطن مغشيًّا عليهنّ. يصيب الخرس والوجوم الرجال، وهم يتلقّون العزاء في المندرة الفسيحة المكتظّة بأناس من كلّ حدب وصوب، يبقى من لم يسعهم المكان في شادر أمام الدار، على «دكك» لم تكفِ الجميع، فيطلبون المزيد من بيوت درب الرجولة.



Twitter: @ketab_n

لم يكن موت الشابّة الصغيرة وجنينها فقط هو ما يثقل قلب السنغالي، بل الشرود وفراغ روحه، منذ تلك الليلة المشؤومة، التي زار فيها حيّ الغجر. تزيغ عيناه حتى ليحسبه من حوله أنّه لا يراهم ولا يسمع حديثهم، يكرّرون عليه الكلام مرّات عديدة، إلى أن ينتبه إليهم، يلاحظه عبد الحميد بأسى، يظنّه في بادئ الأمر حزنًا.. ولكن أن تتملّكه تلك الحالة وهو في الصلاة! ذلك ما حيّره. وجده ذات مرّة واقفًا كما هو في المسجد بعد انتهاء صلاة، لم يسمع تسليم الإمام لها، ولم يرَ المصلّين وهم يغادرون. يتحيّرون في أمر شيخهم، الواقف كالحجر وسط المسجد، جاحظة عيناه إلى الأرض.

تنتهي الجنازة في اليوم السابع، ويرحل أمين السماعني وأبناؤه وإخوته ونساء عائلته. ودّعن ابنتهنّ الباقية في دار السنغالي، بعد أن توسّلت الأمّ كي تأخذ ابنتها معها، فهي الحامل الباقية، وتخشى عليها من البقاء في جحر الموت هذا، إلى أن تضع حملها. يرفض الحاجّ أمين السماعني الاستجابة لما تطلبه زوجته، ففيه إهانة لدار المرحوم أبي اليزيد، وقلّة احترام لزوجها السنغالي. يرحلون فتبقى الدار مظلمة في حزنها. لازم سواده الجميع، نساءً وأطفالاً ورجالاً. تمكث آمنة في دارها، وقد شحب وجهها ونقص وزنها. لم يختلف الحال عن زوجها، فكان أكثر شحوبًا ونحافة، تظهر عظام جسده وكأنّه يعاني من مرض عضال، ولم يتبقّ من شعر رأسه سوى القليل، بعد أن تحوّل للبياض. يفزع عبد الحميد كالمجنون، وهو يرى صديقه على تلك الحال عند زيارته له في داره، يطلب منه مرافقته إلى الطبيب الإنجليزي في البندر، يكرّر عليه الشيخ عبد الحميد طلبه مرّات. لم يسمعه السنغالي إلّا بعد أن هزّت يد الشيخ عبد الحميد كتفه. ترقرق الدمع في عينيه. يسأله ماذا أصابه؟ كيف يسقط شعر رأسه ويمتطيه الشيب في


Twitter: @ketab_n

أسبوع واحد وهو ما يحتاج زمنًا؟ وأين ذهب في تلك الليلة المتّفق معه فيها كي يعلم منه حكاية الذهب؟ يلتفت السنغالي فزعًا إلى محدّثه، وقد ظهر بريق الرعب في عينيه، ويردّد له:

ـ الذهب... الذهب يا عبد الحميد... أين رأيته؟

يشهق عبد الحميد. يقترب من السنغالي قائلاً:

ـ إنّه الذهب إذًا؟!

يذكّره بأوّل يوم أتى فيه إلى دارهم منذ زمن، فبعدها بثلاثة أيّام يستدعيه أبوه الراحل إلى منامته. يخبره بأمر «لولو» الغجريّة، أتت إليه في الحقل تطلبه في شيء هامّ، لم تفصح عنه إلّا بعد أن غادر إخوته. تبقى معه بمفرده، تخرج من «جرابها» قطعة من الذهب في حجم التمرة. تعرض عليه شراءها، فلا أحد يقدر على دفع ثمنها، إلّا أحد أعيان وأثرياء الناحية! فقطعة بحجم التمرة تساوى أكثر من فدّان أرض، وهي لا تأتمن أحدًا سواه، حتى لا يعلم من لا يرغبون في ذكرهم بالأمر. لم يوافق أبو اليزيد على دفع أيّ شيء، قبل أن يعرف من أين أتت بما تطلب منه شراءه، تخبره أخيرًا بعد إلحاح بأنّ قاطع طريق، أتى بها إليها من دون أن تفصح له عن أيّ شيء آخر. تأتي له بعد يومين تملأ «جرابها» بالمبلغ المطلوب، بعد أن تدبّر أمره. تختفي بعدها ولا يراها إلّا في طرقات القرية، تطوف شوارعها. تبيع بضاعتها للنساء وكأنّ شيئًا لم يكن. يطلب منه أبوه أن يرافقه إلى أحد أصدقائه من باشاوات النصارى في المديريّة، تاجر للحليّ وأحجار زجاجيّة نفيسة يشتريها الأمراء والأثرياء بمبالغ تعجز اليد عن عدّها. يستقبلهم الباشا في قصره المطلّ على النيل. يريه أبو اليزيد ما في جرابه، تنفرج أسارير وجه التاجر المؤتمن، بعد أن تفحّص ما في يده، شاخصًا



Twitter: @ketab_n

إليهما بودّ وهو يخبرهما بأنّ هذا الذهب لا يوجد له مثيل في برّ مصر بأكمله، إنّما هو ذهب موجود في بلاد يسكنها الأفارقة السود، يستخرجونه من جبال لا يعلمها سواهم. يطمئنهم بأنّ سرّهم مقبور، ولن يعلم به أحد. يدفع لهم أكثر ممّا دفعه أبو اليزيد للغجريّة، يغادران وقد وقر في نفوسهم كذب ادعاء «لولو»، فهي على أيّ حال لا عهد لها ولا كلمة، تجوب هي وقومها البلاد، فلا عجب إذًا من حصولهم على كلّ ما هو غريب وغير مألوف، فالحكايات تنتشر في القرى عن مصائب الغجر وطقوس حياتهم المريبة. خيامهم تحوي «خروج» بها أعضاء حيوانات نافقة، ورؤوس بشر منكمشة في حجم قبضة اليد. فهم قوم لا دين لهم، ولا يجدون غضاضة في التعامل مع الجنّ نفسه.

يصمت الشيخ عبد الحميد. يلتقط أنفاسه ويرتشف شربة ماء. يبتسم السنغالي بتعجّب، فتظهر عظام وجنتيه عند انكماش جلد وجهه، بدا الوهن والضعف على ملامحه. لم يخبر عبد الحميد عن ذلك اللصّ، من اعتقد أنّه طارقي في بادئ الأمر، ثم رمى له السنغالي بقطعة الذهب، على رصيف محطّة القطار في أوّل ليلة له في قرية «بهجة». يسعل السنغالي حتى يختنق صدره، فيناوله عبد الحميد شربة ماء. يترجّاه أن يذهب معه إلى البندر كي يراه الطبيب. يرفض السنغالي بشدّة، ويلوّح بيديه للشيخ عبد الحميد، وقد احمرّت عيناه من حشرجة أنفاسه.. فهو يعلم ما به. ينهض مترنّحًا وكأنّ زلزالاً تحت قدميه، فيستند على كتف صديقه، يأتي له بـ «سرّة» الذهب، يطلب منه أن يفعل بها ما يحلو له، فهو لا يريده في داره. يغادر الشيخ عبد الحميد إلى بيته. يأمر زوجته رُقيّة بأن لا تغفل عن زوجة السنغالي إلى أن تقوم من حملها، تطهو لها ولزوجها الطعام كلّ يوم، فصديقه في محنة لا يعلم متى تزول إلّا الله.



Twitter: @ketab_n

يستند السنغالي إلى جذع شجرة، يلتقط أنفاسه، ثم يدلف إلى زوجته النائمة. تنام كمدًا وحزنًا على حالها في تلك الأيّام العصيبة، يتحسّس صندوقه فيخرج منه كتابه وسبّحته البيضاء، ويغلق باب الحجرة على امرأته ويفترش صحن البيت. يتوضّأ ويهمّ بالصلاة. تتيبّس يداه، لم يستطع أن يرفعهما وكأنّ شيئًا يقيّده ويمنعه من التكبير. يختنق حلقه بالدموع فيجلس إلى الأرض. ويفتح كتابه، فتزيغ عيناه وتتراقص الحروف فلا يدري من القراءة شيئًا. ينفجر الدمع من عينيه من دون أن يصدر صوتًا سوى نشيج يتردّد في صدره، يغمض العين الدامعة وقد ثقل لسانه وعجز عن الحركة في فمه، يحاول الصراخ من دون جدوى، فتتوقّف أنفاسه. تجحظ عيناه كأنّه الموت آت. تتحطّم عظام جسده، فيسمع صوت طقطقتها ببطء وكأنّ جسده قُذف به إلى ماكينة العصّارة. يشتدّ الألم إلى أن يفقد وعيه. يفتح عينيه بعد فترة لم يدرِ أطالت أم قصرت، يجد نفسه هناك، في مكان راود خياله كثيرًا، وقد هبّت رائحة لم تفارق صدره طوال هذا الزمن. رائحة ماء البحر ورمال الصحراء... في تلال المرابطين. يقف عاريًا تمامًا وكأنّه طفل وليد، يهتزّ بدنه وهو يرى شيخه التيجاني بردائه الأبيض، وعمامته الخضراء أمامه. يخفي السنغالي سوءته بكلتا يديه والدموع تغسل وجهه، يرتعش جسده رعبًا وخجلاً من شيخه. يقذف الشيخ بعباءته إليه، كي يستر بدنه. يعلو الغضب على الوجه الأبيض. وينظر إليه بحدّة لم يألفها السنغالي من قبل. يزعق فيه قائلاً:

ـ «إيّاك نسيان أنّ خطأ غير متعمّد يمكن أن يغيّر مسار حياتك، ولكن خطيئة متعمّدة يمكن أن تنهيها في لحظة».. ولكنّك نسيتها يا ابن الصناهجة.

ولأوّل مرّة منذ سنين يسمع لقبه القديم.



Twitter: @ketab_n

ـ أتقتل يا أحمد؟... أنسيت من تكون، أنسيت عهدك ووعدك؟!... ابن الصناهجة يداه ملطّختان بالدماء!

ينتفض السنغالي وكأنّه على عربة تجرّها البغال في طريق مليء بالحجارة، يحاول الكلام من دون جدوى، فإشارة صارمة من شيخه التيجاني تخرسه تمامًا. يكمل حديثه قائلاً:

ـ أتملك روحك حتى تزهق روح غيرك؟

تنفكّ عقدة لسان السنغالي، فيتكلّم وحروفه تخرج متردّدة من نشيج بكائه:

ـ ديني يا مولاي... عرضي يا مولاي... وأرضي يا مولاي.

ـ أيّها المأفون... ألم تتعلّم من رحلتك مع الدليل أنّ دينك ليس موجودًا بكتاب تقرأه!... ألم تعرف بأنّ حروف قرآنك تكمن في عقلك!... وأنّ عرضك مربوط في شرفك، وشرفك معلّق بكلمة من لسانك!... ألا تعلم أنّ أرضك ووطنك يسعهما قلبك فقط وليس حفنة من تراب في «خرج» مدسوس في صندوق خشبي!... أحسبت نفسك ذا النون؟... تعلم الغيب فتشفي وتقتل؟

ـ أغثني يا مولاي.

ـ ذنبك عظيم يا صنهاجي... فالدم معلّق في رقبتك ليوم معلوم. أطلب الغوث ممّن تجرأت عليه.

تزلزل الكلمة الأخيرة الأرض تحت السنغالي. لا تقوى قدماه على حمله، فيسقط أرضًا ينتحب، ويعلو نشيجه إلى أن تتوقّف أنفاسه. يتردّد صدى كلمات شيخه في أذنيه. يفتح عينيه فيجد نفسه في فراش أبيض، تحيطه وجوه لا يعرفها، وامرأة تبكي وهي تنظر إليه، تسأله ما



Twitter: @ketab_n

به. تبلّلت الوسادة بعرق غزير، فيبكي أبناء أبي اليزيد مثلما بكوا على رحيل أبيهم وهم يرون السنغالي في تلك الحالة. لا يعلم أحد منهم. يدخل عبد الحميد وخلفه رجل خمسيني العمر، أبيض البشرة ذو عينين خضراوين، وشعر أصفر ينسدل من تحت قبّعة مستديرة. يستأذنهم الطبيب الإنجليزي ليكشف على مريضهم. يخرج قارورة بها سائل نفّاذ الرائحة، يطلب من عبد الحميد أن يسقيه منه ملء ملعقة صغيرة صباحًا ومساء، يلقي تعليماته بالاعتناء بطعام المريض، فلا يقرب إلّا لحوم الطيور المسلوقة وخبز الشعير فقط. يشيّعه عبد الحميد إلى الخارج وقد جهّز له ركوبة يسوقها أحد عمّال العصّارة، بعد أن دسّ في يده ورقة نقديّة رقصت عينا الطبيب فرحًا برؤيتها.

ينتصف النهار وتبقى رُقيّة لتخدم الزوجين بالتبادل مع زوجتي حامد وخليفة، يخبزن في فرن دارهم خبز الشعير ويذبحن الدجاج والأرانب كما أكّد الطبيب. ويبقى الحال أيّامًا طويلة، يتولّى فيها عبد الحميد وأخواه أمر العصّارة وأرض أبيه، بعد أن علم الجميع ميراثهم في جلسة حارّة كأيّام صيفهم، استخدمت فهيمة وجماعتها الحيل، حتى تصل إلى مرادها. فلم تكن الأرض فقط هي ما ترغب فيه، ففي كلّ الأحوال الأنصبة الشرعيّة معروفة ومحدّدة سلفًا، ولكن ما تضع عينيها عليه هو العصارة وبيت السنغالي، فإن لم تفز بهما، فعلى الأقلّ تحصل على قيمتهما. يعلم عبد الحميد أنّ طمع أخته سيعميها عمّا رتّب له وخطّط مع إخوته. سيدفعون لأختهم ما يدين به السنغالي لهم في عصّارته وداره، بعد أن قام بزيارة الباشا صديق والده في المديريّة، فهو رجل أمين حفظ سرّهم في السابق. حاول أن يعرف طريق هذا الذهب الذي أتى به عبد الحميد إليه من دون جدوى، فينفحه مبلغًا قيمة تلك القطع الذهبيّة الثلاث. يحفظ عبد الحميد نصف المبلغ لأمر



Twitter: @ketab_n

في نفسه، فهي ثروة محفوظة لصديقه في وقت الشدّة، ويُبقي النصف الآخر في صندوق بغرفته. يفاوض عليه فهيمة وباقي إخوتها في حيلة منه، حتى يعزل نصيب أخويه حامد وخليفة وأخيه عبد الرحيم الغائب عنهم في بلاد الإنجليز. طال غياب عبد الرحيم لسنين، اختفت معه ذكراه، إلّا من خطابات تأتي كلّ فترة تطمئنهم عليه، أو بالأحرى تخبرهم بأنّه ما زال على قيد الحياة.

وفي ليلة حارّة من ليالي الصعيد الصيفيّة، يعتقدون فيها أنّ جهنّم تنفّس عن نارها في تلك الأيّام، صُفّت الفرش والمساند في المندرة تتوسّطهم أباريق الحلبة المجروشة المحلّاة بالسكّر كي تروي ظمأ حناجرهم التي ستجفّ بعد مناهدة ومماطلة. يأتي الأخوة واحدًا تلو الآخر، يجلس عبد الحميد بين أخويه حامد وخليفة متربّعين على حصيرة من الحلف الجافّ، تقابلهم فهيمة وباقي إخوتها الأشقّاء من الرجال والنساء. تبدأ حديثها كالمرّة السابقة عن الحقّ والعدل، وتتجاهل تململ حامد. تحاول خداعهم. تخبرهم أنّ بيت أبيهم هو بيت لكلّ ذرّيّة أبي اليزيد، وسيظلّ مفتوحًا للجميع في أيّ وقت، والقسمة ستكون فيما يملكون غير دارهم. يطمئنّ حامد وخليفة لكلام فهيمة دون عبد الحميد. فيستشعر أنّ هناك آت بعد قليل، لم يتأخّر ظنّه طويلاً وهو ينصت لها باهتمام. تتحدّث عن بقاء الوضع في الدار كما هو، إلّا من انتقال إخوتها إلى جناح أبيهم، ويستقلّ عبد الحميد وإخوته بالجانب البحري من البيت. يرتفع صوت حامد غاضبًا والاستنكار يعلو وجهه، فكيف لها أن تستأثر وباقي إخوتها بالشقّ القبلي، بحجراته القويّة المؤثّثة، وسقفه المتين وتتركهم في الشقّ البحري، المتهدّمة جدرانه، وسطحه المجدول، بزعف النخل وعروق الخشب!؟ أدرك الشيخ عبد الحميد ما ترمي إليه فهيمة، ولكنّه لم يشأ



Twitter: @ketab_n

الاصطدام بها، إلّا بعد أن يعميها الطمع تمامًا، عمّا يرغب فيه، فيضغط على يد حامد، طالبًا منه السكوت والإنصات. تملي فهيمة شروطها، ثم تحوّل حديثها إلى العصّارة وبيت الغريب، فلا حلّ له إلّا أن يترك ما ليس ملكًا له. تسكت عن الكلام، ويتجرّع الجميع مشروب الحلبة البارد، كي تهدأ حناجرهم. يتنهّد عبد الحميد، وهو يمدّ ساقيه ويبدأ حديثه قائلاً:

ـ اتّفاقنا هايكون على نصيبي ونصيب إخوتنا الثلاثة... عبد الرحيم وحامد وخليفة...

يخرج ورقة يخطّط فيها حدود الأرض من جوانبها الأربعة، ويرسم بخطّ عريض... بعد أن علم الجميع أنصبتهم من الأفدنة الموروثة لهم... فاصلاً بين أنصبة إخوته وبين أنصبة فهيمة وجماعتها، فيتحدّث هو حينها عن الحقّ والعدل الذي يسمح له أن يختار الأرض القريبة من القرية بما أنّ أخته قد اختارت نصيبها في الدار. تعلو الهمهمة وسط الجميع وتنظر هي إلى قناوي، فحدود أرض أبيهم يعلمها جيّدًا. يومئ لأخته بالموافقة، فتتنهّد وكأنّها تقبل بشيء على مضض من دون إرادة منها، بل خضوعًا لإرادة أخيها عبد الحميد. يطلب منها مرّة أخرى أن تحترم رغبة أبيهم الراحل وتصرف النظر عن عصّارة السنغالي وبيته. ينبعج وجهها وتتبدّل ملامحها بعلامات استنكار وهي تكرّر على مسامع الحاضرين: إمّا أن يدفع أو يترك أرضهم التي ورثوها عن أبيهم. يترجّى عبد الحميد أخته بطرق شتّى. يذكّرها باحترام إرادة الأب وتقدير وصيّته ولكن من دون جدوى. يتملّكه التعب والغضب والشعور بأنّهم قد وصلوا إلى طريق مسدود. ما قصده عبد الحميد منذ البداية قد تحقّق. فيرسم الحسرة على وجهه، ويطلب منها أن تحدّد سعرًا يرضيها وإخوتها للعصّارة



Twitter: @ketab_n

والبيت ما دام لا مفرّ من ذلك، وليبحث هو مع السنغالي إن كان يستطيع أن يدفع ما تطلبه. تنفرج أسارير إخوة فهيمة، فلا حاجة لهم بعصّارة لا يعرفون كيف يديرونها، أو بيت لا حاجة لهم به، وهم يسكنون في أكبر وأفضل منه.

لا تدري فهيمة أنّ قيمة العصّارة ليست في ثمن الأرض المقامة عليها، بل في عدم وجود ما ينافسها في زمام القرى المجاورة، وفيما تخرجه من عسل أسود. تطلب من عبد الحميد ما قيمته فدّان أرض زراعيّة، بعد أن همست في أذن قناوي متسائلة عن مساحة العصارة، يجيبها قناوي بأنّها في مساحة نصف فدان. تغزو السعادة قلب عبد الحميد، فهو وإن دفع ما يساوى ثمن فدّان فليس ذلك بسعر البيت، أو عصّارة يتعامل معها نصف تجّار البنادر، وفلّاحو القرى المجاورة. يماطل عبد الحميد حتى يشعر فهيمة بانتصارها الزائف. تعلو وجهه علامات الحزن المصطنعة وقلّة الحيلة أمامها. يتركهم عبد الحميد متعلّلاً بذهابه إلى دار السنغالي كي يرى إن كان يستطيع أن يسدّد دينه الآن، فهو لا يرغب في أن يطول الأمر ويبقى هذا الوضع كما هو، بل أن ينتهى أمر الميراث تلك الليلة حتى وإن طلع عليهم نور الصباح وهم جلوس في المندرة. يغيب عنهم ساعة. يتناولون فيها الشاي الثقيل. فتستردّ فهيمة مزاجها الذي عكّره ذلك الإصرار على بقاء العبد الأسود في ملك أبيهم، وتلك الرغبة التي لا ترى لها سببًا في التمسّك به. يختفي الشيخ عبد الحميد في غرفته يعدّ ما طلبته فهيمة من نقود، ويخفي الباقي من قيمة ذهب السنغالي في صندوقه، يدسّ في جيب جلبابه ورقًا أبيض وقلمًا كوبيًّا وهو في طريقه إلى دار السنغالي، الراقد في الفراش لا يتحرّك إلّا لقضاء حاجته، وما زال الوهن يتملّك من جسده وزيغ عينيه في الفراغ من دون إدراك لما حوله.



Twitter: @ketab_n

يلقي عبد الحميد بالسلام دون أن يجيبه السنغالي. تقف آمنة بجواره، تخفي نصف وجهها بشال أسود شفّاف، تسند ظهرها بكفّ يدها، فقد علت بطنها واستدارت في بداية شهور الحمل. يكتب عبد الحميد عقد بيع بعد أن يسمّي الله، ويطلب من السنغالي أن يوقّع باسمه أسفل الورقة، ولكنّ الصمت هو ما لاقاه من صديقه. لا يحيد بصر السنغالي عن سقف الحجرة، يهزّه عبد الحميد، ويصرخ فيه بأنّ فرصته للبقاء معهم لن تأتي لهم مرّة أخرى، يُغلب على أمره فيمسك بيد صديقه ويضع القلم بين أصابعه بعد أن بلّله من فمه. يخطّ اسم السنغالي على الورقة ويغادر مسرعًا إلى المندرة بعد أن مسح دموعًا لم يقو على كبحها. فحال صديقه أوجع قلبه بقسوة لم يعرفها إلّا عند وفاة أبيه. يستنشق هواءً باردًا قبل أن يدخل إليهم. يخرج يده من صديري جلبابه. يعدّ أوراقًا نقديّة عريضة، تهلّلت أسارير أخته فهيمة عند رؤيتها، يطلب عبد الحميد من الجميع التوقيع والبصم على تلك الورقة، قبل أن يدسّها مرّة أخرى في جيبه، يتبعها بورقة أخرى بيضاء يكتب فيها قسمة ميراثهم بعد أن اتّفقوا عليه. ينفضّ المجلس ويذهب كلّ فريق إلى الجانب الذي اختاره. تجتمع فهيمة مع إخوتها في جناحهم القبلي.

ـ خسارة قريبة ولا مكسب بعيد...

قالتها فهيمة لإخوتها. تخفّف من حنق أصابهم. فاتّفاقها مع عبد الحميد لم يعجبهم. لقد شعروا بخديعته وجماعته لهم من دون سبب مفهوم سوى سرعة عبد الحميد في كتابة عقود الميراث. استطاعت فهيمة أن تقنعهم بأنّ ما اتّفقت عليه هو الأفضل لهم، فقد فازوا بالنصف القبلي من الدار، ببنيانه القوي وأثاثه الغني، بعكس الشقّ البحري ذي الأسقف المجدولة من سعف النخيل والطين، تتساقط من



Twitter: @ketab_n

فرجاته أمطار الشتاء. اختفى الحنق والغضب رويدًا مع كلمات فهيمة، واقتناع إخوتها الذكور بما اتّفقت عليه مع عبد الحميد. يغادر الجميع بعدما انتصف الليل، وقد مُلئت جيوبهم بمال السنغالي بحسب نصيب كلّ وارث منهم.

تلتفت فهيمة إلى إخوتها البنات الباقيات معها في الحجرة نفسها، يتنفّسن الصعداء بعد أن شعرن وكأنّ حجرًا ثقيلاً كان يجثم على صدورهنّ، فهنّ لن يزرعن أرضًا ولا شأن لهم بتلك الأمور، بل سيصل نصيبهنّ في آخر كلّ عام من بيع محصول الأرض التي سيؤول أمر زراعتها وسقياها إلى إخوتهم الذكور. تعالت الضحكات الخافتة، وعبارات الثناء على عقل الأخت الماكر، وقدرتها أن تملي شروطها على أخيها عبد الحميد، الجالس الآن وسط أخويه وزوجتيهما، يرتّبون لما سيحدث غدًا. فهم على يقين أنّ أخوة فهيمة لن ينتظروا يومًا واحدًا من دون أن يكونوا قد انتقلوا إلى الشقّ القبلي. يضعون أشياءهم وحاجيّاتهم، حتى يستتب لهم الأمر كما أرادوا. يتّفق الشيخ على هدم بعض الجدران وإقامة أخرى، فوجود غرف سيتركها لهم إخوتهم غير الأشقّاء سيوسع عليهم وعلى أبنائهم. يعمّ السكون المكان قليلاً. يجثم الهمّ فجأة عليهم عند سؤال حامد عن حال الشيخ السنغالي، وكيف وجده عبد الحميد منذ ساعة؟ لم يشأ الأخ الأكبر أن يخبرهم بما حدث، بل أجابهم مقتضبًا بأنّه وقّع على العقد ورحل في غيبوبته ثانية. يغيّر مجرى الحديث بالكلام على تجديد أركان الدار وسقفها، فالعام على وشك نهايته، وجني المحصول بعد أسابع قليلة، وأمانة العصّارة في أعناقهم الثلاثة حتى يتمّ الله شفاء السنغالي. يدعو الجميع للسنغالي، ينهضون إلى مضاجعهم، تسبقهم فرحة بانتهاء ما كانوا يخشونه في تلك الليلة.



Twitter: @ketab_n

# حِمْلٌ ثقيل

تجلس آمنة أرضًا بجوار سرير زوجها الغائب حاله عن الدنيا، لا تدري ماذا تفعل. تتحسّس بطنها كلّما ركلها الجنين. تراودها أفكار قذف بها الشيطان في عقلها الصغير، كيف سيكون حالها لو رحل السنغالي؟ أيمكن أن تترمّل ويتيتّم هذا القادم إلى الحياة بدون أب؟ يقتحم قلبها الخوف عندما تتذكّر أختها الراحلة، فماذا يمنع أن تلحق هي بها؟ تنساب دموعها الخرساء على وجنتيها، فتدعو بالرحمة للجميع. تنتبه فجاة على صوت أنين زوجها، وقد بدأ العرق يغرقه ثانية. تأتي له بكوب ماء تنثره على وجهه من دون جدوى، لا تعلم ماذا تفعل! تتلحّف بملفّها وتقبّل يد السنغالي. تستأذنه وكأنّه يسمعها. تذهب إلى دار الشيخ عبد الحميد، تطلب العون، ويبقى السنغالي في فراشه شاخصًا ببصره. لم يغمض له جفن حتى جفّت عيناه، يغشى الحجرة ضوء ينشقّ عن شيخه التيجاني، فيعتدل من نومته. يحاول النهوض، إلّا أنّ إشارة من يد الشيخ توقفه.

ـ ابق مكانك يا صنهاجي.



Twitter: @ketab_n

ـ يخجل لساني يا مولاي.

ـ الدرس واحد والفهم متعدّد يا صنهاجي. ولكلّ كبيرة توبة... ولا توبة لك الآن! صيامك شهرين كفّارة إزهاقك روحًا... وخلوتك لا تنتهي إلّا بقدوم الحسن والحسين. لا تغادر خلوتك أبدًا، ولا يقع بصرك إلّا على ما بين مريم والأنبياء.

يترقّق صوت الشيخ وهو يرى حال مريده. أنهك التعب جسده وعقله من إدراك ما يقوله له شيخه.

ـ سآتيك يا ولدي... سآتيك عند منتصف الطريق، وسآخذ بيدك إليه! فهو ينتظرك يا شيخ أحمد.

يشعر السنغالي بالدماء تسير في عروقه، بعد جفافها لأيّام طويلة، عند سماعه للشيخ التيجاني وهو يردّ إليه لقبه. يعود إلى غرفته. ينتبه إلى أبناء أبي اليزيد، فينظر إلى صديقه. يجد عبد الحميد في تلاقي عينيهما بشرى برجوع السنغالي إلى حاله. يكرّر على مسامع الحاضرين «الحسن والحسين... الحسن والحسين». يسأله عبد الحميد إن كان يرغب في زيارتهما؟ فيصرخ السنغالي رافضًا. يمسك بيد صديقه قائلاً:

ـ لا... لا أريد أن أذهب.

يعلو نشيج المتحلّقين حول الفراش، فيطمئنهم السنغالي. يتفرّس وجوههم ويسأل عبدَ الحميد قائلاً:

ـ ماذا بين الأنبياء ومريم يا شيخ عبد الحميد؟

يندهش الجميع من السؤال، لا يعرف عبد الحميد بماذا يجيبه، تتملّكه الحيرة مرّة أخرى. يعتقد أنّ صديقه قد أصابت عقله لوثة. يتنحنح خليفة وهو يجيبهم في خجل:



Twitter: @ketab_n

ـ طٰه... ما بين سورة الأنبياء ومريم سورة طٰه.

يهبّ السنغالي من فراشه وكأنّه صحيح معافى، يستند إلى كتف حامد، يعصف بهم الخوف جميعًا من قفزة من كان على شفا الجنون أو الموت.

ـ أين طٰه... أين ولدك يا شيخ عبد الحميد؟

يسرع حامد إلى الدار. يرجع بعد برهة وفي يده الصبي ذو الثلاثة عشر عامًا، يهرع السنغالي إليه. يضمّه إلى صدره حتى يكاد الصبي يختنق، وهو ينظر إلى عينيّ أبيه الواقف خلف السنغالي.

ـ لا تتركني يا طٰه...

يشير إلى الغرفة الأخرى وعلامات الفرح تهزّ جسده. يقول بصوت بدا قويًّا:

ـ لا أحد يدخل إليّ بماء أو طعام سوى طٰه.

يسرع إلى الحجرة ويغلق بابها وسط دهشة الجميع، إلّا عبد الحميد. ينظر إلى ابنه، ويربّت على كتفيه، قائلاً له بفخر لم يخفَ على أحد:

ـ الأحوال مواهب والمقامات مكاسب. لقد اختارك السنغالي يا طٰه، فافعل ما يأمرك به.

يطمئن عبد الحميد زوجة السنغالي، فلا داعي للقلق عليه بعد الآن، فقد استردّ جسده وتبقّى ما لا يعرفه سواه. يغادر الجميع. ويحمل طٰه وعاء ماء الوضوء، وصينيّة الطعام إلى خلوة السنغالي. يطلب الشيخ منه أن يأتيه بالماء في الصباح وبالطعام عند أذان المغرب كلّ يوم. ينظر بامتنان إلى الصبيّ، فتعلو الحمرة وجه طٰه. ينفّذ ما أمره



Twitter: @ketab_n

به السنغالي طوال شهرين متتاليين. أتمّهم صائمًا. لم يغادر خلوته إلّا لقضاء حاجته في منتصف الليل، فهو يخشى أن تقع عيناه على أحد، حتى زوجته التي بدا الحمل واضحًا على بطنها المتكوّرة، وهزال جسدها، حاولت نسوة الدار تجنّبه بإطعامها صنوفًا كثيرة من دون جدوى.. فقد كانت كالبئر، تبتلع كلّ ما يقذف به إليها.

يعتاد طه على رؤية السنغالي ثلاث مرّات في اليوم، بعد انتهائه من صيام شهرين متتاليين. في الصباح قبل ذهابه إلى مدرسته، يدخل إليه بإفطاره، وعند الظهيرة، وقبل صلاة العشاء. لا يخبر أيًّا من حريم دار أبيه بأيّ شيء ممّا يراه في غرفة السنغالي، فيقتلهنّ فضول النسوة. يحاولن معرفة ما يحدث في خلوة الشيخ. حيّرهنّ أمره، فلكم سيطول بقاؤه وغيابه عن عصّارته، التي يديرها له عبد الحميد؟ ألم يشتاق إلى زوجته؟ ألا يرغب في أن يكون بجوارها عند وضعها الوشيك؟ لم يجدوا إجابة من الصبيّ الكتوم. فهو يرى نظرة رضا ممّا يفعل في عينيّ أبيه، تزيده محبّة في السنغالي.



Twitter: @ketab_n

# أوّل الغيث

لم يجد الفرح مكانًا له في بيت أبي اليزيد طيلة شهور عديدة مضت، فالكدّ والتعب أصابا رجالها في حقلهم، وفي عصّارة الشيخ الغائب في خلوته. حتى نساء الدار، بعد أن انفصلت إلى دارين، بجدار غير مرئي في البداية، ولكنّ الجميع يشعر به، وبأثره عند إعدادهم للطعام أو في جلساتهم. لم يبق أيّ شيء كالسابق، فقد بدأ التباعد والنفور، بعدما استطاعت فهيمة أن تبذر الفرقة بين أبناء أبي اليزيد. فرقة نمت بجهل وحقد من يقطنون في الشقّ القبلي، يستقلّون بطعامهم وأفران خبيزهم، وحتى في مسامراتهم الليليّة في جناحهم القبلي. ويبقى الصباط القديم عامرًا بالنساء الثلاث وأطفالهنّ وأزواجهنّ. ترتفع طرْقات عالية في ظهيرة يوم من تلك الأيّام المتشابهة، يتردّد صداها في جنبات الدار الكبيرة. تنفرج البوّابة الخشبيّة الضخمة عن جسد نحيل متسائلاً عن الطارق:

ـ جواب من الباشا يا طه.. تسلّمه لأبيك.



Twitter: @ketab_n

يأخذ طه المظروف الصغير. يغلق الباب متّجهًا إلى أمّه. تتلقّف منه الخطاب بلهفة، تتأمّل ذلك الطابع الزاهية ألوانه، ثم تضعه في صندوقها الخشبي إلى أن يأتي زوجها من عمله. تنضمّ ثانية إلى نسوة الدار، تنشغل معهنّ بإعداد الطعام لأزواجهنّ. حتى إذا دلف عبد الحميد إلى داخل الدار، تلحق به مبشّرة إيّاه بخطاب أخيه عبد الرحيم. يفضّه بسرعة ولهفة. يقرأ ما فيه بصوت عال أمام زوجته:

«أخي العزيز عبد الحميد.. تحيّة طيبة وبعد... لقد وصلني خطابك الأخير يحمل خبر وفاة والدنا. وأعلم أنّك وإخوتي قد تحمّلتم مشقّة تلك الأيّام العصيبة. وقد أثقل الحزن نفسي لعجزي عن تواجدي ومشاركتي في هذا اليوم. ولكن ما يصبّرني في وحدة الأيّام الباردة في لندن هو قرب انتهائي من رسالة الدكتوراه في غضون سنة إن شاء الله، وبعدها سأرجع وأستقرّ في بلدي.. عسى الله أن يجمع شملنا مرّة أخرى. أعرف أنّي قد أثقلت عليكم ببعدي عنكم ولكنّ الله أعلم.. وسلامي للجميع وأراكم بصحّة وعافية قريبًا. أخوك عبد الرحيم».

بدا الحزن على وجه عبد الحميد. يطوي الورقة داخل المغلّف، ويضعه بجوار مغلّفات عديدة، ترقد داخل صندوق خشبي. يدعو الله أن تمرّ الأيّام سريعة كي يلمّ الله شمله بأخيه. ابتعث عبد الرحيم إلى المملكة المتّحدة، منذ أعوام بعيدة، نسي عبد الحميد عددها. لم يره أحد خلالها، ولم يعرفوا أخباره سوى من الخطابات المتبادلة بينهما. يرسل عبد الحميد إلى أخيه مبلغًا سنويًّا، كما عوّده أبوه. ولكنّ الوضع قد اختلف الآن، منذ أن اتّفق الجميع على تقسيم الإرث. يشعر بيد زوجته تهزّه برفق، وتربت على كتفه، فيعود إليها. تعرف ما يموج في صدر زوجها، تحاول أن تخفّف عنه قائلة:

ـ فيه الخير والله عبد الرحيم..



Twitter: @ketab_n

لم ينبس عبد الحميد بكلمة. يحمل الطعام على بغلته إلى إخوته في الحقل. يخبرهم عند وصوله بسلام عبد الرحيم لكلّ منهم من دون أيّ تفاصيل. ومع احمرار قرص الشمس وقربه من سطح الأرض البعيدة، يلمّ المزارعون أشياءهم، ممتطين بغالهم في طريقهم إلى الدار، وقد أعدّت نسوتهم موائد الطعام. يجلس كلّ رجل وزوجته وأبناؤه متجاورين، كعادتهم منذ أن توفي أبو اليزيد من دون جماعة الشقّ القبلي.. فقد أراحوا واستراحوا. ينتظر عبد الحميد ابنه طه، كي يطمئن على أحمد السنغالي. يرجع الصبيّ إلى بيت أبيه مسرعًا، تتلاحق أنفاسه. يخبر من في الدار أنّ زوجة الشيخ السنغالي تتوجّع في دارها وحيدة، فقد فاجأها المخاض. يترك الجميع ما بأيديهم المرتعشة من طعام. تتلحّف النسوة بملفّاتهنّ يسرعن الخطى، إلى تلك الصغيرة. فاجأتها آلام الولادة مبكرًا، قبل موعدها بشهرين، وحيدة في دار زوجها. لا يجرؤ أحد على الاقتراب من باب خلوته.

يجري عبد الحميد إلى درب الرجولة. يأتي بأمّ ميخائيل القابلة. بعد أن أرسل أخويه حامد وخليفة إلى بيت الحاجّ أمين السماعني كي يأتوا بأمّها وعمّاتها كعاداتهم في مثل تلك الحالات. كلّما اقترب عبد الحميد من بيت صديقه يعلو صراخ الزوجة، فتسرع السيّدة العجوز ببردتها السوداء، تنزعها عنها عند ولوجها حجرة آمنة. يظهر وجهها المتجعّد وخصلات من شعرها الأشيب، تطلّ من أسفل خمارها الرمادي، يتدلّى على صدرها صليب خشبيّ صغير، لم يفارقها منذ أن كانت في دير مار جرجس بأسيوط. تعلّمت فيه أمور وشؤون التمريض، قبل أن تتزوّج وتترك طريق الرهبنة. فمعيشة الراهبات قاسية. لم تستطع أمّ ميخائيل احتمال الحياة خلف الجدران معظم حياتها. فتستقرّ مع زوجها في درب الرجولة، منذ أن وضع جدّ عائلة



Twitter: @ketab_n

أبي اليزيد رحاله في قرية «بهجة». تساعد الجميع، وتقبل بما يعطونه لها في رضى ومحبّة ظاهرة على ابتسامة لا تفارقها. تشي تجاعيد وجهها بعمرها المقارب لما بعد السبعين. حياتها الطويلة أعطت لها حكمة لم تحظ بها امرأة تعيش في قرية صغيرة في جوف صعيد مصر. حكمة علّمتها أن تسمّي اسم الله، وتكبّر في أذن المولود كي يطمئنّ أهله، فاسم الله ليس حكرًا على دين من دون آخر، فالجميع يعبد إلٰهًا واحدًا. تتفحّص العجوز تلك الصغيرة الراقدة على ظهرها، تتلوّى من الألم، وقد أنهكها الصراخ. تطلب أمّ ميخائيل ماءً ساخنًا وبشاكير كثيرة، ثم تغلق الباب عليهنّ. يطبق سكونًا لحظيًّا على الدار، تخترقه صرخة متقطّعة ثم هدوء أقلق الشيخ عبد الحميد. ينظر إلى باب آخر، في ركن البيت، باب خلوة السنغالي الموصد عليه. ترتفع صرخة قويّة، ثم صمت، ثم صرخة طويلة، أعقبها بكاء وليد. يبكي لهذا الإزعاج من تلك اليد المعروقة التي تلقّفته. يشعر ببرودة الحياة على جسده الملطّخ بالدماء. تلتفّ النسوة على قطعة اللحم الحمراء، يلفّونه برداء قطني، بعد أن قطعت أمّ ميخائيل ما يربطه بحشا أمّه. لم يهدأ رحم آمنة بعد عن الانقباض، فقد كان هناك آخر يسكن هذا الكهف المظلم الدافئ. ينهك هذا الآخر القابلة، ويطول الأمر معه. تعتدل أمّ ميخائيل مرّة أخرى كي تستقبل الذكر الثاني. كان مخاضًا مؤلمًا لفتاة لا تدري كيف تحتمل ما لا يُحتمل، يشحب لون وجهها من كثرة الصراخ، تقترب من الخطّ الفاصل بين العالمين مرّات كثيرة، حتى بدا الهذيان غير المفهوم يلقي بالرعب في قلوب النساء الشاحبة وجوههنّ. يتحلّقن حول فتاة رحلت أختها منذ شهور قريبة، وشعور العار والغمّ يطيح برؤوس زوجات أبناء أبي اليزيد، فماذا ستقول عنهم عائلة الحاجّ أمين السماعني؟ وماذا سيردّد أهل القرية؟ أيرحل أبو اليزيد وتسكن الغربان



Twitter: @ketab_n

داره؟ وتبني طيور البوم أعشاشها في البيت الكبير؟ تدسّ أمّ ميخائيل مسحوق الجنزبيل بالقرب من أنف آمنة، تفيق وترجع لوعيها. تترجّاها القابلة أن تساعدها في تلك المرّة والتي ستكون الأخيرة بعون الربّ! تدفع بقدم المولود إلى الداخل، وتتمكّن من رأسه أخيرًا. يطلّ الوليد على من يحيطون بأمّه. تزلزل صرختها الدار في جوف الليل. يهمد جسدها الغارق في عرق غزير، أحال الفراش إلى بركة ماء. يعلو صدرها ويهبط بأنفاسها البطيئة. تتعلّق عيون النسوة بكلّ شهيق وزفير يخرج منه. يتذكّرن الطفل الأوّل. لم تنسَه رُقيّة. أمسكت به من قدميه حتى يصرخ. تضعه في أقمطة قطنيّة بيضاء وملفّ حول جسده، الذي تحوّل إلى اللون الوردي. ينضمّ ذكران إلى دار السنغالي قبل الفجر بقليل، تحتضنهما الأمّ الصغيرة في صدرها، وقد زال عنها ما كاد يشطر جسدها نصفين، فنظرة واحدة إلى وجه مولود خرج لتوّه للحياة كفيلة أن تُذهب بآلام الدنيا جميعًا. فما بال وجهين صغيرين يحملان ملامح السنغالي بكلّ تفصيلة دقيقة، ولون الأمّ الأبيض. تحمل آمنة أحدهما، تلقمه ثديها وهي تتحسّسه. يفيض منها ما يعلم الله من أين يأتي. تشعر بارتعاش شغاف قلبها برحمة أسالت الدمع من عينيها. تتلقّف الآخر، تتأمّل فمه وهو يبحث مغمضًا عينيه عن حلمة ثديها، كنبع حياة يسقي بذرة في أرض بكر. تبدّل النسوة شراشف السرير، على قدر ما تحتمل الأمّ من حركة. تغتسل أمّ ميخائيل وترتدي ملفّها. تخرج وتبشّر عبد الحميد. كان يقرأ القرآن، كي ينزل الله سكينته ورحمته على من في الدار جميعًا، يدسّ في يدها جنيهًا. تنصرف إلى دارها، وقد ذهب تعبها بتلك النفحة السخيّة من الشيخ عبد الحميد. يقف الشيخ خارج الغرفة في انتظار إحدى النساء، تخرج إليه رُقيّة، تسأله عن الشيخ السنغالي، فيزعق على ابنه طه، يطلب منه أن يخبر



Twitter: @ketab_n

صديقه بخبر قدوم الحسن والحسين إن سمح له بتسميتهما. يغيب طه لأقلّ من دقيقة، ينفرج الباب عن الصبيّ وعن الشيخ السنغالي فجأة، تخفي رُقيّة وجهها برادئها، ويتجمّد عبد الحميد مكانه، وقد علت وجهه فرحة أنسته الكلام في لحظة.

ـ الحسن والحسين يا شيخ عبد الحميد...

ينطقها السنغالي وقد اختنق حلقه بالدموع. فسّرتها رُقيّة بفرحة قدوم طفليه. لم تعلم أنّها فرحة الإشارة بوصول الأب إلى منتصف الطريق. طريق دلّه عليه شيخه التيجاني. تخرج زوجتا حامد وخليفة من الغرفة، تخفيان وجهيهما، مثلما فعلت سلفتهما عند رؤية السنغالي. تغيّر أحمد السنغالي كثيرًا خلال سبعة أشهر مضت، نبتت لحية كثيفة بيضاء، أضاءت وجهه، يتأمّله عبد الحميد وكأنّه يراه للمرّة الأولى. نحل فيها جسده، وسقطت الشعيرات الباقية من رأسه. تلمع عيناه بوميض يعرفه عبد الحميد جيّدًا، فقد رآه في عينيّ الشابّ الأسود القادم من بلاد بعيدة، منذ سنوات لأوّل مرّة في المسجد. يهمّ أبو الولدين بالدخول كي يطمئن على زوجته، ويرى هبة السماء له. تستوقفه يد رُقيّة، فكيف يدخل عليها في أوّل يوم! فعلته هذه يمكن أن تتسبّب في «شهرها»، وقلّة خلفتها بعد ذلك. يجب عليه أن يبقى إلى الغد، حتى ترحل «النفْس» من غرفتها. يضحك السنغالي ويتلو بصوت هادئ:

ـ «فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين».

يلج إلى غرفته، فيرى وجه زوجته الباسم وجسدها المختفي تحت الأغطية الكثيرة، يحفّها عن اليمين واليسار قطعتان من روحه. يقترب منهما. تلفح وجهه تلك الرائحة الممزوجة بالدم وبخار الماء والألم.



Twitter: @ketab_n

رائحة لن ينساها ما بقي حيًّا.. فقد استقرّت في وجدانه مكان رائحة ماء البحر ورمال الصحراء. يحمل بشارتي السماء بذراعيه، يضمّهما برفق إلى صدره، يهتزّ قلبه خلف ضلوعه البارزة، تسري في بدنه مئات الأشياء لم يميّز أيًّا منها، فلم تكن فرحة أو رهبة أو دهشة، بل شيء جمع ما في السماء وما في الأرض، يعلم الله وحده ما هو، ويسكنه في الصغيرين المحمولين على ذراع والدهما. يقف عبد الحميد وخلفه النساء، يتأمّل معهنّ حال السنغالي قبل أن يسعل، فينتبه إليه الوالد الجديد. يستأذن عبد الحميد، فوقت صلاة الفجر قد حان. يذهب السنغالي معه، وتبقى النسوة يطهين الدجاج والمرق للمرأة النفساء. أرسل عبد الحميد أخويه إلى قرية الفارُقيّة، فيصلان عند الثلث الأخير من الليل. ينادي خليفة على الشيخ أمين السماعني، فتضيء القناديل الزيتيّة في جنبات الدار. يستيقظ النائمون في فزع. يخرج الابن الأكبر متوجّسًا من هذين الشبحين الراكبين على بغلتين. يقترب منهما بقنديل في يده اليمنى، يتحسّس طبنجته المعلّقة في صديريّه بيده اليسرى.

ـ يا أهلاً وسهلاً.. خير يا عمّ خليفة؟

قالها الشابّ والفزع يطلّ من عينيه، فالأخبار السيّئة تأتي دائمًا في الظلام. ظهر الحاجّ أمين، وأثار النعاس بادية على عينيه الحمراوين. يترجّل خليفة وحامد، يدلفان إلى المندرة بعد أن أخبراهما بولادة زوجة الشيخ السنغالي. يعدّ الحاجّ أمين ركب النساء، يخرج جملان يحملان هودجين بداخلهما الأمّ وإحدى العمّات، تسير في ذيلهما بغلتان محمّلتان بأقفاص من الطيور وأخرى من السمن والدقيق، يحرس الركب في آخره ابن الحاجّ أمين الأكبر. يضع بندقيّته على كتفه، وطبنجته تسكن في جرابها المعلّق تحت إبطه الأيسر. يتقدّمهم خليفة وحامد بسلاحيهما، يشقّان حقول القصب المترامية على طول الطريق، تتحرّك



Twitter: @ketab_n

سيقان الزرع مع هبوب ريح خفيفة. ينتاب حامد القلق. تراقب عيناه حركة لم يلاحظها غيره. يرتفع حفيف الأوراق. يفاجأ بجذع نخلة ملقى في عرض الطريق، وتنشقّ سيقان القصب عن خمسة أشباح ملثّمة، يلفّها السواد. تتقافز حولهم حتى أحاطت بهم من كلّ جانب، وكأنّهم يعرفون ماذا يفعلون. تمتلئ القرى والنجوع بالمطاريد وقاطعي الطريق، يحملون بنادق جاهزة للقتل من دون تردّد. يتعاقب البرد والحرّ على أياديهم الخشنة، فتنزّ من شقوق جلدها الدماء المتجلّطة. ينتشرون في النصف الأخير من الليل، يبحثون عن طرائد لهم.

يرفع خليفه يده اليمنى في الهواء مشيرًا إلى ابن الحاجّ أمين بالتوقّف.

ـ ارمِ سلاحك منك ليه.. واتدلى من البغلة..

قالها أحد الخمسة، يقف في مقدّمة الركب. يشير إلى خليفة بأن ينزل يده بالقنديل المضاء. لم يجبه خليفة، بل سأله عمّن يكون بصوت جهوري خشن، وكأنّه لم يسمع شيئًا. ثقة مفرطة أربكت قاطعي الطريق.

أصابته عصبيّة واضحة على صوته. يردّ على خليفة بأنّه أمر لا يعنيه، ولا يعنيه من في الركب، سوى المال وما يحملونه من سلاح.

قاطعه هذه المرّة خليفة زاعقًا بغضب، وكان صبره قد نفد:

ـ الركب ده تبع بيت المرحوم أبو اليزيد النجدي..

خرجت الكلمات وكأنّها مفتاح سحري، أو كلمة سرّ. تنزل البنادق بجوار حامليها، ويعمّ السكون لحظات، قبل أن يصدر صوت خانع من الطريد. يلتمس العذر والسماح. يقف أمام خليفة، يعرّفه بنفسه. فقد كان خادمًا لأبيهم، وسيبقى كذلك لأبنائه. يشير إلى باقي



Twitter: @ketab_n

رفاقه، فيختفي الخمسة مرّة واحدة، وكأنّ زراعات القصب ابتلعتهم فجأة كما ولدتهم فجأة، يرافقون الرحلة ويراقبونها حتى وصولها إلى طريق الأمان. يرتفع صوت خليفة موجّهًا حديثة إلى الفراغ أمامه قائلاً:

ـ يبارك في مروءتك يا شيخ العرب..

خرج له الملثّم وحده هذه المرّة قائلاً:

ـ طريقك أمان إن شاء الله.. أنا خدّامكم في أيّ وقت. إنت عارف المكان، بس نادي وقول يا عربي..

يلوّح له خليفة بالسلام.. وينصرف كلٌّ في سبيله. يسير الركب في هدوء، لا يتبادلون الحديث سوى بالهمس، حتى يصلوا إلى دارالسنغالي.



Twitter: @ketab_n

# يا مدد

خمسة عشر يومًا والصغيران يتنقّلان بين حجر آمنة وحجر السنغالي، لا يريان ولا يسمعان إلّا همسات الدعاء من أبيهما، وهدهدة الأمّ وغنائها لهما. يسعد عبد الحميد برجوع صديقه إلى حاله. بعد أن أصرّ على الجلوس معه في جلسةٍ منفردة، أعطاه ما أخرجته العصّارة من ربح طيلة فترة خلوته، يدسّ في يده ظرفًا منتفخًا به ما تبقّى من نقود الذهب، بعد أن حكى له ما حدث. ينتفض السنغالي وكأنّ لدغة عقرب أصابته. يقذف بالمظروف إلى يد صديقه، يرجوه أن يبعده عنه. فلا حاجة إليه به. يحفظ الشيخ عبد الحميد المال، فربّما يحتاجه السنغالي في يوم من الأيّام. يبقى السنغالي في عصّارته منذ الصباح حتى ما قبل الغروب. فالمكان يسعد بصاحبه كما أخبره عبد الحميد. يأتيه عبد الحميد كلّ يوم، يشربان الشاي سويًّا، ويتبادلان الأخبار. يقترح الشيخ عبد الحميد أن يحيي السنغالي ليلة لله. يطعم فيها فقراء القرية ونواحيها شكرًا لله على نِعَمِه. فقدوم الحسن والحسين أزاح نحسًا أصاب دارهم فترة طويلة. تعجب



Twitter: @ketab_n

السنغالي الفكرة. يعد عبد الحميد بليلة لأهل القرية جميعًا، فقرائها وأغنيائها. يفتتحها مقرئو القرآن، ويحيي ليلها المدّاحون والذاكرون.

لم تجد الأمّ والعمّة بدًّا من الرحيل، عندما لم تجدا ما تخدمان به آمنة. استردّت آمنة عافيتها بسرعة مع اعتناء رُقيّة وسلفتيها. ترضخ الأمّ والعمّة لما يطلبه السنغالي. في أن تنتظرا حتى الليلة الكبيرة، ويرجعن مع الحاجّ أمين السماعني وأهل قريته بعد الليلة الموعودة. استعدّت الداران.. دار السنغالي ودار أبي اليزيد قبل ميعادها بأيّام، انتشرت فيهما رائحة الكعك وخبز السمسم. تساعدهم بنات حامد وخليفة في حشو الكعك بالعجوة. يحمله أولاد عبد الحميد في مقاطف من خوص النخل، إلى بيوت جيرانهم، ثم يعودون ويحملون آخر مملوءًا، يطوفون به على دروب القرية بيتًا بيتًا، يجيبون سائليهم، بأنّه محبّة من دار الشيخ السنغالي. يلفّ المنادي طرقات القرية ودروبها، يدعو إلى وليمة، يعقبها مدح بعد غد، في دار المرحوم أبي اليزيد. لم تسترح أمّ آمنة وعمّتها وزوجة عبد الحميد منذ الفجر، فهنّ منهمكات في نخل الدقيق، وعجنه، وتخميره، وخبزه في الفرن الطيني. لم تنطفئ ناره حتى ما قبل الغروب، لإعداد خبز يكفي جموع المدعوّين. في ليلة كانت حديث أهل القرية من قبل أن تبدأ. يرون القصّابين يطوفون في طرقات القرية، يجرّون ثلاثة عجول، ستكون على مأدبة الجميع في الغد. تتحرّك الجمال والبغال من قرية «الفارُقيّة»، تحمل الحاجّ أمين السماعني، وعائلته جميعًا من أطفال ونساء ورجال، إلى قرية «بهجة» منذ الصباح. علا صوت قارئي القرآن في مندرة البيت الكبير. يتلو كلّ واحد من المشايخ الستّة خمسة أجزاء متصلة، لم يتوقّفوا إلّا لصلاة الظهر، ثم لصلاة العصر. أتمّوا ختم القرآن كلّه. يبدأ أهل القرية في القدوم جماعات، يستقبلهم السنغالي وخليفة في



Twitter: @ketab_n

ساحة أمام الدار، أُعدّت لنصب الوليمة بفرش ومساند و«طبليّات» مستديرة، بالكاد تتّسع المندرة لها. يجلس أهل القرية في حلقات، حول صواني عامرة باللحم والأرزّ، وأطباق عديدة من خضار أحمر وأخضر وخبز ناعم كالقطن. يطوف عليهم السنغالي، وأبناء أبي اليزيد الثلاثة وأحفاده. يخدمون ضيوفهم. تتنحّى جماعة الشقّ القبلي في ركن قصيّ، وكأنّهم أغراب عمّا يحدث. لم تشارك نسوتهم مع الأخريات طيلة الأيّام السابقة، ولم يعرض الرجال مساعدة إخوتهم، في الشقّ البحري بأيّ شيء. لم يعن السنغالي ما كان من باقي أبناء الراحل، فقد ألهته الفرحة عن كلّ ذلك. يتنقّل بين الناس مرحّبًا بهم، فيهنّئونه على خَلَفِه الصالح. يدور الصبية بأكواب الشاي، بعد انتهاء الوليمة.. عند هبوط الليل، يعلو صوت عبد الحميد بأذان العشاء، فيكتظّ المسجد وفسحات الخارج بالمصلّين. وكأنّها صلاة أحد العيدين! يبدأ بعدها المدّاح مع فرقته، ينشد في حبّ الرسول على أنغام الناي وضربات الدفّ، يغنّي قصائد لابن الفارض أو الحلّاج، أو ما يجول في خاطره. يمزج ما بين كلماتهم وكلماته. يجد استحسانًا من الحاضرين فيزيد حماسه. يتمايل بعضهم بعد أن تحلّقوا في دوائر من عشرة أفراد. يهزّون أجسادهم في حركة واحدة يمينًا ثم يسارًا. تصفّق أكفّهم مع إيقاع الدفّ المنتظم.. يسرع تارة ويبطئ تارة أخرى. يتجلّى المدّاح ويكرّر بعض الكلمات التي تسكرهم، وتجعلهم يطلبون المدد بعد كلّ مقطع ينطقه. يتوسّطهم المدّاح وقد غاب عمّا حوله. ينشد قائلاً:

ما لي راحة دون وجهكمُ[1]

(١) مدح شعبي قديم.



Twitter: @ketab_n

وما لي شفيع أرتضيه سواهُ

رجال من سماع الحبّ طابوا

وعند سماعه حضروا وغابوا

قد خلقوا العذار إليه ودًّا

وفي كلّ الأمور له أنابوا

فناداهم عبادي لا تخافوا

لكم أمني إذا وقع العذابُ

يا مدد... يا مدد... يا مدد...

رفيع القدر يا نجم الثريّا

شفيع الخلق في يوم التنادي

سلام منّي تحمله التحيّة

ترجو شفاعة النبي الهادي

يا مدد... يا مدد... يا مدد...



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الفصل الرابع

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# رحلة أخرى

ينهض السنغالي كلّ ليلة قبل الفجر بساعات قليلة. يصلّي ويقرأ أوراده. لم يأته الشيخ التيجاني منذ فترة طويلة. فيشتدّ الحنين بالسنغالي لرؤية شيخه. يدعو الله بعد كلّ صلاة أن يأتيه، فهو يحتاجه كي يدلّه إلى معالم الطريق، الذي أخبره عنه سابقًا. يؤرقه الشوق، وتثير فعلته القديمة مخاوفه. تطلّ هواجسه من مكمنها، تنغّص عليه بعض أيّامه. تحاول أن تبذر الشكّ في توبته، فربّما كان غياب شيخه عنه بسبب عدم صدقها. تنساب الدموع كلّ ليلة وهو ساجد، حتى مطلع الفجر. يرى عبد الحميد عينيّ صديقه، وقد احمرّتا من كثرة البكاء. لم يسأله عمّا به، فهو يعلم أنّ للعهد سرًّا، لا يقدر على البوح به لأحد، طالما قبل شروطه منذ البداية. تستعدّ البيوت لاستقبال عيد الفطر، في آخر ليلة من شهر رمضان: يخبزون الكعك و«الرغفان». ويستعدّون لزيارة رفات الآباء والأجداد في قبورهم يوم العيد. يستيقظ السنغالي في منتصف الليل كعادته، يقرأ أوراده كما أمره شيخه، يتنهّد وحروف القرآن تنساب من فمه.. يحدّث نفسه قائلاً:



Twitter: @ketab_n

ـ أوحشتني يا مولاي... أم تراني قصّرت فيما أمرتني به؟!

ـ لم تقصّر في شيء يا ولدي... ولكن طريقك لم ينته بعد.

ينتبه السنغالي، وتنبسط عضلات وجهه فرحًا. تظهر نواجزه وأسنانه البيضاء، يثني قدميه احترامًا لشيخه. يأتيه باسمًا وهو يردف قائلاً:

ـ طريقك سينتهي أسفل عرش الرحمٰن... فاعبر النهر، واركب البحر، فأنت في حلٍّ من نذرك القديم. تمسّح بجدران بيته، وابد ندمك، ثم انحر من الإبل مائة، كفّارة أخرى. ابق في رحابه، تتصدّق بكبش مليح كلّ يوم، حتى تأتيك إشارة السماء. لا تتوقّف إلّا بعد اليوم العاشر، فإن لم تأتك خلالها، فاعلم أنّ الدم ما زال في رقبتك. وإن هو شاء، سأراك في ميعاد معلوم.. سلام عليك يا ولدي.

يرحل الشيخ ويترك مريده في طوفان من الاضطراب، يبكي خشية بقاء الدم في رقبته، فماذا سيحدث إن لم تأتِهِ إشارة السماء؟ وماذا سيكون حاله؟ أيبقى طيلة حياته مقتولاً وهو حيّ، تطارده لعنة روح أزهقها خطأً؟ لا توجد حياة أغلى من أخرى، فحياة غجريّة فاجرة، تستوي بحياة عابد ساجد لله. ينفض السنغالي رأسه. يعزم أمره على الحجّ ما بعد العام القادم. يفكّر فيما سيحتاجه من مال، كي يوفي ما أمره به الشيخ التيجاني. يصله صوت عبد الحميد. رافعًا أذان الفجر، فيتّخذ طريقه إلى المسجد. يجد الابن والأب يكنسون المسجد، استعدادًا لصلاة العيد عند الشروق. يشمّر عن ساعديه ويرفع الحصر، ويسكب الماء، يده بيد طٰه وعبد الحميد. يرجعون إلى البيت. يبدّلون ملابسهم. يرتدي الشيخ عبد الحميد عباءته أعلى جلبابه الصوفي، ويضع عمامته الحمراء ذات الزرّ الأخضر.. يهمّ إلى المسجد. تعلو



Twitter: @ketab_n

تكبيرات عيد الفطر، فيأتي الناس أفواجًا للصلاة، ولسماع خطبة الشيخ عبد الحميد. يهبط من المنبر فيلتفّ حوله المصلّين مهنّئين:

ـ كلّ سنة وإنت طيّب يا شيخ عبد الحميد..

يتصافح جميع من في المسجد. يلقون بالتحايا لمن يعرفونه أو يجهلونه. يقف السنغالي بجوار أبناء أبي اليزيد. يمسك بيدي ابنيه الصغيرين. فقد أتمّا أعوامهم الثلاثة. يداعبهم طه. يحمل أحدهما على كتفه وبجواره أبناء عمومته. كبر الصغار وخطّ زغب الشارب الأخضر أسفل أنوف بعضهم. يخرج الجمع من المسجد. ويتّجه الصبية إلى بيوت أعمامهم، يعيّدون على زوجات الأعمام. يليهم آباؤهم. يتناوبون النقر على غرف زوجات إخوة بعضهم بعضًا. يخرج كلّ واحد منهم ورقة نقديّة صغيرة، يعطيها لبنات وزوجة أخيه. تنتهي أوّل مظاهر العيد في الصباح بعد الصلاة. تبدأ حالة أخرى للاحتفال بالعيد.. ترتدي الحريم السواد، يذهبن مع أزواجهنّ أو أبنائهنّ لزيارة القبور. عادة وَقَرت في حياتهم، ولم تنقطع أبدًا. فالأموات يشعرون بقدوم من تركوهم أحياء، يسعدون بسماع صوتهم من تحت التراب، وفي ظلمة القبر. يقف الشيخان، عبد الحميد والسنغالي، يتلوان القرآن على قبر أبي اليزيد، ثم يدورا على باقي قبور العائلة. يسلّمون عليهم، ويدعون لهم بالرحمة والمغفرة. يرجع الزائرون قبل الظهيرة بقليل. تبدأ آخر مظاهر الاحتفال بالعيد.. يستعدّ أبناء الراحل لزيارة إخوتهم البنات، ككلّ عيد في قراهم البعيدة. واجب أصبح ثقيلاً عليهم بعد رحيل أبيهم. يكتمون امتعاضهم من تلك الرحلات المجهدة. فلا فائدة منها سوى تلبية رغبة عبد الحميد. يرى في البقاء عليها تماسك عائلته، كما كانت في حياة أبيه. يحفظ كلمات كان يردّدها على سمعه طيلة حياته. فلا عار أشدّ قسوة من عار عائلة تبعثرت فروعها، ونسيت



Twitter: @ketab_n

أصولها، حتى لو كانت بعض فروعها مائلة، فالفرع الطيّب يشدّ المائل حتى ينصلح اعوجاجه طالما كان موصولاً بالأصل. فإن لم يفعل، سيجفّ الفرع، وينكسر في أوّل عاصفة تهبّ عليه..

تنتهي آخر مظاهر العيد. يرحل أنسباء السنغالي إلى قريتهم، ويرجع أبناء أبي اليزيد إلى دارهم. يضعون بغالهم في حظائرها. ويلبّي عبد الحميد وأخواه حامد وخليفة دعوة السنغالي. يتناولون العشاء في داره. وبعد ملء البطون بما أعدّته آمنة من طعام شهي، يجلس الرجال تحت الشجرة في صحن البيت، يرتشفون الشاي الأسود ويتسامرون. وتبقى النساء في غرفة آمنة ويعرضن لأمور يثرثرن لا تهمّ سواهنّ. وتلعب بناتهنّ مع الصغيرين. يفاجئ السنغالي ضيوفه برغبته في الحجّ، يسألهم عن قوافل الصحراء، وطريقها من مصر إلى مكّة؟ يضحك عبد الحميد، فتعلو الحيرة وجه السنغالي. فهو يعلم عن تلك القوافل منذ زمن بعيد، عندما كانت تخرج من بلاده، تسير بمحاذاة البحر، وينضمّ إليها الحجّاج من بلاد المغرب وليبيا، إلى أن تصل لصحراء مصر الشرقيّة، تستقرّ جميع القوافل عند عيون موسى، أو بركة عجرود، تتزوّد بالماء، وتواصل رحلتها إلى جبال الزيت، ثم إلى آخر محطّة في رابغ، ومنها إلى مكّة. يتمطّع عبد الحميد كما كان يفعل أبوه، عندما يهمّ بحكي شيء جديد، فيحكي لهم ما أخبره به أبوه الراحل أبو اليزيد، عندما كان شابًّا صغيرًا، يرافق جدّهم في تلك الرحلة. كانت تبدأ في الأسبوع الأوّل، من شهر شوّال كلّ عام، بمظاهر الاحتفال بالمحمل المصري، وكسوة الكعبة الجديدة. كانت الكسوة تُصنع من خيوط حريريّة، والمخيش الفضّي أو الذهبي. يغزلها أمهر الصنّاع المصريين. كانوا يتوضّأون قبل أن تلمس أصابعهم خيوط الكسوة، يتلون فاتحة الكتاب ويكبّرون، ثم يطلقون بخورًا يعمّ المكان، قبل أن



Twitter: @ketab_n

يبدأوا في حياكة الكسوة. يغمسون أيديهم كلّما ابتلّت بالعرق، في طبق به ماء الورد. يتمّمون خياطة ثمانية أربطة، بها اثنان وخمسون ثوبًا من القماش، وستارة لباب الكعبة، وأخرى لباب التوبة في الحرم، وستارة لسطح الكعبة، وكيس خاصّ، يحفظ مفتاحها. يحملون كلّ هذا مع هودج مربّع من الخشب، ذي قمّة هرميّة، مغطّى بالديباج الأسود، المزخرف بالذهب. يعلوه رسم للمسجد الحرام، يحوي داخله مصحفان، أحدهما رقائق ملفوفة، وآخر على هيئة كتاب في صندوق من الفضّة. يوضع الهودج على جمل قويّ، لا يعمل بعد رحلته أبدًا تكريمًا له. يسير الهودج وحوله الجنود والبيارق، حتى يصل الركب إلى ميدان القلعة، فتنطلق المدافع تحيّة له. يسير الموكب على أصوات المنشدين يتغنّون قائلين:

يا راحلين إلى منى بقيادي[1]

شوقتمو يوم الرحيل فؤادي

سرتم وسار دليلكم يا وحشتي

والشوق أقلقني وصوت الحادي

منّي السلام مع التحيّة بلّغوا

شوقي الشديد إلى النبي الهادي

يهتمّ الخديوي بتلك الرحلة، ويتابع تجهيزها بنفسه. يتقدّم أمير الحجّ، وخلفه الجِمال تحمل الكسوة، وأمير «الصرّة»، الذي كان مسؤولاً عن صناديق مليئة بعملات ذهبيّة. كانت توزّع على فقراء أهل الحجاز. يصلون إلى مضارب خيام أُعدّت لهم في ساحة العبّاسيّة.

(١) من أغاني قوافل الحجّ قديمًا.



Twitter: @ketab_n

يزوره من يريد التبرّك به، فيتمّ ختان الأطفال، وتمرّ النساء العواقر من أسفل بطن الجمل الحامل للكسوة، طلبًا للحمل والرزق بذرّيّة صالحة. يغادر بعدها الركب إلى مكّة، في طريق معلوم، يسمّى درب الحجّ المصري. ينصت السنغالي وأخوا عبد الحميد باهتمام إلى تلك الحكاية. فلأوّل مرّة يسمعونها من أخيهم. يخبرهم برؤيته لهذه الاحتفالات، عندما كان يدرس في الأزهر الشريف بالقاهرة. تختفي تلك المظاهر بعد حادثة المحمل الأخير، عندما اعترض طريقه في الصحراء قبل مكّة بعض الوهّابيين الجدد. ما إن رأوا قافلة المحمل بغنائها وفرحها، حتى هتفوا «الصنم... الصنم»[1]، وحاولوا أن يحطّموا الهودج بما فيه. يتصدّى لهم جنود الخديوي، وحامية الركب المصري، فيقتلون عددًا منهم، ويهرب الآخرون. تبقى الآن رحلة كسوة الكعبة فقط. بعد أن أصبحت يسيرة بعد شقّ قناة السويس، فتحملهم السفن إلى ميناء «ضبا» ومنه إلى مكّة كي يتجنّبوا دروب الصحراء.

ـ إذًا فالرحلة يسيرة الآن يا شيخ عبد الحميد؟

يسأله السنغالي وقد بانت عليه علامات الارتياح. لكنّه يثير حيرتهم عند سؤاله عمّا يكفيه من مال في تلك الرحلة كي يذبح في الحرم مائة ناقة وعشرة كباش؟ تبرق عينا عبد الحميد. يحاول جاهدًا أن يخفي ما بطن في جوفه، عند سماعه سؤال السنغالي. فهو كشيخ أزهري، يعلم ماذا يعني ذبح مائة ناقة. تعلو الابتسامة وجه حامد وخليفة. يجيبانه بعفويّة قائليْن بصوت واحد:

ـ خروف واحد كفاية يا شيخ أحمد.

---

(١) حادثة المحمل عام ١٩٣٦.



Twitter: @ketab_n

يجيبهم السنغالي بإيماءة من رأسه. يلتفت إلى عبد الحميد منصتًا لما سيقوله، فيرفع الصديق عمامته، ويضعها مرّة أخرى، كمن يحتاج هواء باردًا أسفل عمامة تقبع مُحكمةً على رأسه. ينطق بعد برهة من التفكير. يخبره بأنّ تلك الذبائح ستكلّفه مبلغًا طائلاً. فالإبل في بلاد الحجاز مرتفعة الثمن في وقت الحجّ. وعليه أن يستعدّ منذ الآن كي يدّخر ما يعينه على تلك الرحلة الشاقّة. يغادر ضيوف السنغالي، ويشدّ عبد الحميد على يديه. يهمس له من دون أن يسمعه أخواه، بأن يترفّق بنفسه، فرحمة الله واسعة. يذكّره بأنّ ماله المحفوظ عنده يوفي تلك الرحلة، ويزيد عليها. يهزّ السنغالي رأسه بعنف. يرفض أن يمسّ تلك النقود أبدًا. فرزقه من عرقه أولى به، إن كانت نيّته صادقة. يبدأ بعدها، ومنذ أن أتاه الشيخ لآخر مرّة، في ادّخار ما يقدر عليه، وتجود به العصّارة من ربح. فالرحلة الطويلة تراوده كثيرًا في غفواته القليلة.

يطلب السنغالي من صديقه عبد الحميد، بعد مرور عامين، أن يرافقه إلى برّ مصر، كي يرشده إلى قوافل الحجيج. لم يتمالك عبد الحميد نفسه من الضحك، عند سماعه ما يطلبه منه السنغالي، حتى وقع أرضًا، وهو لاهث الأنفاس. يخبر صديقه بأنّ ذلك ليس بالشيء الهيّن. يحمل ملابسه فيركب القطار ويذهب إلى الحجّ! الجميع يحتفل بمن سيؤدّي فريضة الحجّ. فهي تاج العبادات. لم يدر السنغالي مقصد الشيخ عبد الحميد. يطلب منه صديقه أن يرتدي ملابس الإحرام باكرًا. سيطوف به على مساجد القرية، كي يسلّم على أهلها. يفعل السنغالي ما أشار به عبد الحميد، يرافقه منذ الصباح وسط المدّاحين والمنشدين. أتى بهم من البندر، يحيطون بالسنغالي في ردائه الأبيض المنحسر عن منتصف جسده الأسود، يردّدون ابتهالات وغناء لفت انتباه الجميع إليهم. ينضمّ كلّ من يمرّون بهم من أهل القرية، في



Twitter: @ketab_n

الدروب والأزقّة والبيوت إلى مسيرة السنغالي. يدلف السنغالي إلى كلّ مسجد في القرية، يصلّي فيه ركعتين ويخرج. فيجد من يمسك بيده، يقبّلها ثم يطلب منه الدعاء في الحرم. يدور الحشد بالسنغالي على باقي المساجد، ثم يرجع إلى داره ولم ينتهِ المدّاحون بعد من إنشادهم وغنائهم:

يا فاطمة يا فاطمة يا بنت التهامي[1]

افتحي البوّابة يا فاطمة أبوكي دعاني

يا فاطمة يا فاطمة يا بنت الرسولِ

افتحي البوّابة يا فاطمة حبايبك دعولي

يا نبي يا نبي يا سيّد الحبايب

حملوا عيالهم يا نبي وجولك غرايب

لم ينم السنغالي ليلته بعد رحيل المدّاحين، فقد باتت داره مفتوحة لأهل القرية بمسلميها وأقباطها. يودّعون الحاجّ ويعطيه كلّ واحد منهم منديلاً معقودًا. يطلب منه أن يفكّ عقدته أمام الكعبة، وهو يدعو دعاءً، لقّنه إيّاه صاحب المنديل بحاجة يرغبها، فمنهم من يطلب الشفاء من مرض أصابه أو أصاب أحد أحبابه، أو دعاء بفكّ الكرب، أو كثرة في الرزق، أو خلفة الذكر. يستحلفونه بأن لا ينسى. يخبرونه بأسمائهم وأسماء أمّهاتهم. يجمع السنغالي كلّ هذه المناديل المعقودة في «خرج» ويضعها في صندوق رحلته. يتركه عبد الحميد وأخواه كي يرتاح قليلاً، قبل مغادرته بالقطار إلى برّ مصر. ترحل النسوة مع أزواجهنّ. تتمّم آمنة حاجيات زوجها.. يسألها عن سبّحته البيضاء

(١) من أغاني تشييع الحجيج.



Twitter: @ketab_n

وكتابه ذي الغلاف الجلدي، تبتسم وهي تشير إلى صندوقه، فهما أوّل ما وضعته من أشياء مع «سرّة» الرمال، يضحك في وجهها. يتسحّب على أطراف أصابعه إلى غرفة ابنيه. يغطّان في النوم. يطبع قبلة على خدّ كلّ منهما، ويغيب عمّا حوله. يتأمّل ملامح وجهيهما، وشعور لم يعرف كنهه قد تملّكه. ينتشله صوت زوجته. تخبره أنّ الشيخ عبد الحميد وأخويه وطه في انتظاره خارج الدار. يحمل صندوقه ويقبّل يدها. يسير مع صحبته حتى محطّة قطار القرية. يتذكّر ذلك الصندوق الحديدي، ركبه سابقًا منذ سنوات بعيدة. يلوح على وجهه شبح ابتسامة خفيّة. يدلف إلى العربة ويضع صندوقه على رفّ خشبي بجوار صندوق عبد الحميد. سيرافقه صديقه حتى برّ مصر. يسلّم على حامد وخليفة، والشابّ طه الذي أبى إلّا أن يكون مع عمّيه كي يودّع شيخه. يصرخ القطار بصفّارته المزعجة. تقذف مدخنته بسحابة سوداء، ويبدأ في الارتجاج براكبيه، منذ الصباح حتى ما قبل فجر اليوم التالي.

اطمأنّ عبد الحميد على صديقه، بعد أن أوصى به إلى أحد التجّار المعروف له منذ عهد أبيه، وكان يرافق قوافل الحجّ كلّ عام، ويعدّ كلّ شيء من إجراءات سفر لمن يعرفهم. لقد أنهى أوراق السنغالي، التي أرسلها له عبد الحميد منذ فترة. يعود عبد الحميد إلى قرية «بهجة» بعد أن أوصل الشيخ إلى ميناء السويس، تحمله السفن مع باقي حجّاج الدول الإفريقيّة ودول المغرب العربي. يهبطون مصر ثم يرحلون إلى ميناء «دبّه»، ومنها إلى مكّة على ظهور الإبل. يلفح الهواء الساخن وجه السنغالي طيلة أيّام مناسك الحجّ. يرجع بعد كلّ يوم إلى مضارب الخيام المعدّة لزائري بيت الله. يسترجع حياة الصحراء. فهي لا تختلف عن الحياة حول الحرم في بداوتها واللون الأصفر المحيط بكلّ شيء، إلّا من تلك الحالة، التي لا أحد يشعر بتعب أو عطش أو


Twitter: @ketab_n

جوع، حتى حرارة الجوّ الجافّ ينسونها أمام البيت المكسوّ بثوبه الجديد كلّ عام، يمرّون على الحجر الأسود، يتمسّحون فيه وهم يبكون. يُخرج السنغالي «خرجه». يفكّ عقدة كلّ منديل فيه. يدعو لصاحبه باسمه واسم أمّه كما طلبوا منه. يستغرب من نفسه! يتذكّر أسماء الجميع ودعواتهم.. ينتهي من مناسكه، وأمانة حمّلها له أهل القرية. يقرأ القرآن، ويسبّح في مسبحته البيضاء. لم تنقطع دموعه، منذ أن رأى الكعبة من بعيد، في أوّل يوم وضع قدمه بمكّة. خلع خفّيه، فهو لا يدري بأيّ مكان قد تكون قدم النبي قد وطأته. يبحث عن تاجر جِمال، كي يشتري منه المائة جمل. يفزع التاجر. يسأله إن كانت كفارة لدم معلّق في رقبته؟ لم يجبه السنغالي، ولم يشأ التاجر أن يلحّ عليه، بل أرشده إلى قصّاب. ينحر له كلّ يوم عشرًا، حتى أتمّهم ـ المائة في اليوم الأخير. يأتيه مرّة أخرى. يشتري منه كباشًا. سلّمهم له التاجر من دون أن ينطق بكلمة واحدة، فقد علّمته مهنته أنّ مالك القلوب هو أعلم بأسرارها. وهذا المزابض في الحرم بعد الحجّ، ينحر ويطعم حتى بعد المائة فهو لقريبٌ من مالك القلوب، أو بعيد بُعد السماء عن الأرض.

ينتهي السنغالي من ذبح الكبش العاشر في اليوم العاشر. يرتعش وقد زاغت عيناه ما بين الكعبة والسماء. لا يرى بشرًا حوله وهم كثر. يلج خيمته ويحمل مسبحته وكتابه. يعلّق «سرّة» الرمال في إزاره. ويجرّ قدميه بصعوبة حتى يتراءى له بأنّه يزحف إلى المسجد الحرام. يتوضّأ من ماء زمزم، ثم يصلّي صلاة طويلة. فقد ثقل لسانه وهو يتلعثم في قراءة حروف فاتحة الكتاب. صوته متحشرج بدموع أصابت عينيه بالضباب من كثرة ما بكى. يجلس مطأطأ الرأس أمام جدار الكعبة، يمسك مسبحته البيضاء بيمينه، وقد وضع كتابه في حجره. تسقط


Twitter: @ketab_n

دموعه فتشربها الرمال من تحته. لم يشعر بمن وقف إلى جواره يصلّي! ثم أنهى ركعتيه بسلامه يمينًا ويسارًا. يتأمّل المسبحة البيضاء في يد السنغالي، فيضع الرجل يده على كتفه. ينتفض السنغالي ملتفتًا إلى هذا الجالس بجواره. تتلاقى الأعين، ويعمّ السكون، إلّا من صوت هديل ورفرفة أجنحة الحمام حول الحرم. لحظات مرّت طويلة على الرجلين. لم ترمش جفونهما كأنّهما يقرآن ما في العيون، ولا يستطيع اللسان النطق به. تخرج زفرة طويلة من صدر الرجل قائلاً بتأوّد:

ـ الشيخ أحمد الصنهاجي؟... فتلك مسبحته.

ترنّ كلمة الصنهاجي في أذن السنغالي، يبكي وكأنّه لم يبك طيلة حياته. يجذب الرجل. يحتضنه بشدّة. وفي تلك الثواني، قالا كلّ شيء. فإشارة السماء تحقّقت برؤيته دليله في الصحراء، منذ أن كان في تلال المرابطين. ذلك الدليل الذي حافظ عليه وعلّمه ما كان له أن يعرفه طيلة حياته. سعادته بلقاء الدليل وسعادته الأكبر بمغفرة الله لما فعله، وقبوله توبته كما أخبره الشيخ التيجاني. لم يفترق الصاحبان طيلة يومين. فما يريد السنغالي معرفته أكثر ممّا يريده الدليل. يسأله عن شيخه، يتجمّد الدليل مكانه، يزوي بين حاجبيه مندهشًا، يميل رأسه في استغراب وهو يجيبه بهدوء:

ـ الشيخ!! أيّ شيخ تقصد يا شيخ أحمد؟

ـ الشيخ التيجاني؟

تزداد حيرة الدليل وهو لا يدري بماذا يجيب. يصمت برهة يراها السنغالي دهرًا. يجيب الدليل مرّة اخرى قائلاً:

ـ الشيخ التيجاني توفّاه الله منذ أمد بعيد يا شيخ أحمد.. لقد رحل عنّا منذ زمن، قبل أن تغادر أنت السنغال!!



Twitter: @ketab_n

يفغر السنغالي فاه، وقد ألجمته كلمات الدليل. لم ينطق بحرف وهو يرى ابتسامة انبسط لها وجه الدليل. يربت على ظهر السنغالي قائلاً:

ـ ألا تريد أن تعرف أحوال صديقك سينجور؟ ها..

لم يجبه السنغالي بكلمة، بل كان رأسه يتحرّك عوضًا عن لسانه.. فقد أصابه الخرس.

ـ سيصبح صديقك سينجور حاكمًا للسنغال... فهو الآن رئيس الجمعيّة الاتّحاديّة، التي تطالب باستقلال البلاد. مممم. ألا تريد أن تعرف أخبار أهلك؟ ها... أتتذكّر تلك التمرات الثلاث التي غرستها عند آخر حدود بلادك؟ لقد انفجرت عيون الماء تحت شجرات النخل تلك، ويرحل قومك إليها بعد وفاة أبيك، يعمّرون ما حولها بعد أن أصبحت قرية تمرّ عليها القوافل.

يرفع الدليل كفّيه. يقرأ الفاتحة على روح والد السنغالي، وقد اغرورقت عيناه. يتركه الدليل بعدها كي يعدّ له أمور رحلة الرجوع إلى بلده... إلى قرية «بهجة». يغيب عنه لساعات. يرجع بعدها إلى السنغالي القابع في خيمته، يتملّكه الحزن وشعور الغربة والحنين إلى الديار. ينتبه لصوت الدليل. يطلب منه الاستعداد للرحيل بعد صلاة العصر معه في الحرم، فتلك آخر قافلة، وإلّا فعليه أن ينتظر شهورًا ثلاثة، إلى أن تأتي قافلة مراكشيّة تقلّه إلى مصر. لم ينطق السنغالي بكلمة حتى ما قبل تحرّك القافلة. يودّع الدليل ويهمّ بالركوب إلى جمله قائلاً:

ـ هل سأراك مرّة أخرى؟

ـ لولا هذا ما كان ذلك يا شيخ أحمد!



Twitter: @ketab_n

يحتضنه مرّة ثانية، ثم يركب جمله. تبدأ القافلة بالمسير، فيهرول الدليل كمن نسي شيئًا.. يلحق بجمل السنغالي، ويسير بجواره ببطء. يقذف إليه بـ «سرّة» من تمر، و«خُرْج» بداخله خنجر نائم في غمده.

ـ التمر كي يعينك في رحلتك يا ابن الصناهجة.... والخنجر فهو لأبيك، رحمه الله، أوصاني أن أعطيه لك شيخك التيجاني.

يوليه ظهره، يسير في اتّجاه مكّة، وقد علا الغبار من تحت أقدام جِمال القافلة وأحصنتها وبغالها. يتعلّق بصر السنغالي بالدليل، يهتزّ صعودًا وهبوطًا، مع كلّ خطوة يخطوها جمله مبتعدًا، بعد أن بدّلت حاله كلمات الدليل. يراه يمشي بخطوات واثقة هادئة، وأمامه الكعبة بردائها منتصبة. يختفي الاثنان ـ الكعبة والدليل، عند هبوط القافلة وانحرافها نحو السهول.



Twitter: @ketab_n

# مثل أوّل مرّة

دوار يلفّ رأس الحاجّ أحمد السنغالي، ولكنّه لم يستسلم لغفوة تراوده منذ أن وطأ بقدمه داخل الصندوق الحديدي. بصره مشدوه برؤية الحقول الخضراء، تشقّها قناة المياه.. ورجال غُرست أرجلهم وأيديهم في الطين الأسود، ينشقّ منها النبات الأخضر، وأبقار وأطفال ونساء يحملن مقاطف فوق رؤوسهنّ. تخطف انتباهه عربات تسير دون أحصنة تجرّها. ينتبه إلى ذلك الواقف فوق رأسه، ببدلة سوداء وطاقيّة من اللون الكئيب نفسه. يحمل صافرة معلّقة في رقبته، يضع سنّ القلم في فمه كلّما أراد أن يكتب في الدفتر الورقي الذي يحمله. يطلب منه الكمساري «التذكرة»، فيخرج السنغالي ورقة كرتونيّة صغيرة من جرابه. يناولها له، فيلطّخ الرجل سنّ القلم «الكوبيا» بلعابه ويضع علامة عليها ثم يغادر إلى باقي من في عربة القطار.

ينتظم إيقاع سير القطار. تهبّ كلّ فترة سحابة من الدخان الأسود القادمة من مقدّمته، بجوار نافذة الحاجّ أحمد. ينتفض كلّما سمع صريخ صافرته الحادّة. يستسلم أخيرًا لتلك الغفوة ويغمض عينيه على



Twitter: @ketab_n

آخر مشهد لقرص الشمس الأحمر.. تلكزه يد معروقة، يفتح عينيه بتثاقل على وجه نحيف شاحب، وأنف مستدقّ وعين غائرة. يبتسم له رجل عجوز، فتظهر علامات الزمن على ما تبقّى من بعض أسنانه المصابة بالتسوّس. يمدّ يده بكسرة خبز، وقطعة من الجبن المالح، يهزّ السنغالي رأسه بامتنان، ويبادله بتمرات يلقيها في يد العجوز. يغفو ثانية ولا يستيقظ إلّا عند توقّف القطار عن الارتجاج براكبيه. يترجّل السنغالي مع من يغادرون. يسير معهم على رصيف ترابي تقبع خلفه حقول القصب وكأنّها أشباح. يتّجه الجميع ناحية البوّابة المتهالكة لمحطّة قرية «بهجة». يبقى هو وحيدًا في الظلام. تتخلّل سواد الليل خيوط ضوء ضعيف، من مصباح يتيم مشنوق على العمود الوحيد بالمحطّة. يشمّ رائحة مياه عذبة، فيتبعها. يصل إلى جرف ترعة كبيرة خلف حقول الأشباح. يغتسل ويتوضّأ ويفترش رداءه. يقرأ ما في كتابه. يسمع صوت حفيف آت من خلفه. يلتفت ناحية الصوت فيفاجأ بوجه رجل ضخم، يصوّب بندقيّته إلى صدره. يطلب منه أن يسلّمه ما معه من أشياء. يندهش السنغالي من هذا الملثّم، الذي يذكّره بقبائل الطوارق... الطوارق... الطوراق...

ـ استيقظ يا حاجّ... وصلنا قرية «بهجة».

يصحو السنغالي وما زالت تتردّد كلمة «الطوارق» في عقله. لم تترك الابتسامة وجهه طيلة رحلته في القطار، منذ أن وصلت قافلة الحجّ إلى ميناء السويس، ثم إلى باب الحديد. حتى حلمه الذي عاشه قبل أعوام طويلة، لم يقو أن يمحو تلك الابتسامة الهادئة، وملامح وجهه الراضية المطمئنة. يترجّل من القطار إلى رصيف المحطّة الخالي من الناس، بعد انتصاف الليل. لا أحد يعلم ميعاد وصوله كي يستقبله، بعد أن تخلّف عن رحلة العودة. فقد بقي إلى أن يتمّم ما أمره



Twitter: @ketab_n

به شيخه. أصاب القلق جميع من في القرية، إلّا الشيخ عبد الحميد. كان يطمئنهم على صديقه، ولكنّه لم يبح لهم بما في خاطره. يسير السنغالي بين الحقول حتى يصل إلى داره. يقف أمامه. يتأمّل جدرانه من الخارج. يقرأ ما كُتب عليها بالجير الأصفر. مكتوب على أحد الجدران بخطّ عربي دقيق ولون أسود «حجّ واعتمر وزار بيت الله الحرام بحمد الله سنة ١٣٥٧ هجريّة ١٩٣٨ ميلاديّة الحاجّ أحمد السنغالي». تزيّنت الجدران برسوم الكعبة الشريفة والجِمال، وأعلام ملوّنة ترفرف على أركان الدار الخارجيّة. ينقر الحاج أحمد على بابه، فتسرع إليه آمنة، يسبقها الحسن والحسين. تفتح الباب عند سماعها صوت زوجها. ترتمي في حضنه. يتعجّب من استيقاظ الصبيّين حتى هذا الوقت المتأخّر من الليل. يمازحها ويداعب ولديه، فهما يحرسان أمّهما في غيابه. تعدّ له الطعام وتجلس بجواره. تستفسر عن غيبته، بعد أن رجعت آخر قافلة للحجّاج كما أخبرها الشيخ عبد الحميد. تراه يضحك من قلبه، وكأنّها لأوّل مرّة تراه يضحك. يجلس الحسن والحسين بجواره. يتشمّم رائحتهما والدهشة تعلو وجه الصغيرين. يطعمهما ويضمّهما إلى صدره بين فترة وأخرى. يخبرها بأنّه قابل صديقًا قديمًا، له صوت الحادي، صديقًا قديمًا لم يحلم أن يقابله. توليه ظهرها صامتة. تخرج ملابسه من صندوق سفره دون أن تعقّب بكلمة. فيكفيه زمّ شفتيها كزوجة قلوقة. تدسّ كتابه وسبّحته وصرّة الرمال. تمسك يديها بهذا «الخرج». تتعجّب منه. فقد غادر دونه. تفتحه فتجد خنجرًا ذا يد مكسوّة بجلد حيوان لم تعرف نوعه، محفورة عليه حروف لم ترها من قبل، تلوّح له به من دون كلمة. فيفتح ذراعيه باسمًا، ترمي إليه. يخبرها بأنّه هديّة من حميِّها... أبيه رحمه الله. تقبّل الخنجر وهي تنظر إلى زوجها. فترى الدمع وقد بدأ في التحرّك



Twitter: @ketab_n

من مقلتيهما. تضع الهديّة في صندوق ملابسها، ثم تجلس بجواره، بعد أن أعدّت له الشاي. تحكي له ما حدث طيلة سفره.. أتاها الشيخ عبد الحميد في نهار هذا اليوم، مع بعض العمّال كي يطلوا الدار. ويكتب هو بيده ما رآه على جدارها. يزيّنون البيت بتلك الأعلام الملوّنة، وكأنّه يعلم بقدومه تلك الليلة! يرسل ابنه طه مع زوجته رُقيّة كلّ يوم بما يحتاجه البيت من مؤونة. يقطع حديثهما صوت عبد الحميد وهو يرفع أذان الفجر، يتوضّأ السنغالي ويلاقي صديقه وابنه طه في المسجد. امتلأت ساحة المسجد ببعض رجال القرية، على غير العادة في صلاة الفجر. ينتظرون الشيخ صاحب البركة كلّ يوم، في الصلوات الخمس، كي يقبّلوا يديه. فقد تقبّل الله دعاءه عندما كان مريضًا أو مكروبًا أو شحيح الرزق. يشيّعونه إلى داره وهم يردّدون خلف الشيخ عبد الحميد، احتفالاً بعودة القادم من الحجّ:

لبّيك قد لبّيت لك[1]

لبيك إنّ الحمد لك

والملك لا شريك لك

ما خاب عبد سألك

لبّيك إنّ الحمد لك

والعزّ لا شريك لك

والحمد والنعمة لك...

(١) مديح يستقبلون به الحجيج عند رجوعهم.



Twitter: @ketab_n

# الخير باقٍ فيه

لم تغمض عيناي طٰه طيلة أيّام امتحانات البكالوريا. يراجع دروسه في مندرة الدار حتى الفجر، كلّ ليلة، والكلّ نيام إلّا أمّه. تدلف إليه طوال الليل وهي تحمل الشاي والكعك. يقرأ أبوه له سورة يٰس، كي يحقّق الله أمنيته في أن يصبح ابنه طبيبًا، على عكس رغبة طٰه. فمدرسة الحقوق هي هدفه وأمنيته. فمن كثرة ما سمع عنها لم ير سواها الأنسب له. يتخرّج منها الوزراء، وكلّ من له شأن في مصر! لم يرغب الشيخ عبد الحميد في إلهاء ابنه عن دراسته، بمناقشة وجدال لم يحن وقتهما الآن، بل أرجأ ذلك حتى ظهور نتائج امتحانه. أثلج طٰه صدر والديه، وحقّق لأبيه نجاحًا تمنّاه طيلة سنوات. يوفي عبد الحميد بنذر لم يخبر به أحدًا من قبل، فأقام وليمة لأهل القرية، دعا فيها الجميع، لم يستثنِ إخوته البنات وأزواجهنّ وأبناءهنّ. يشاركونه فرحته بأوّل من سيدخل الجامعة من الجيل الثاني لعائلة أبي اليزيد بعد عمّه عبد الرحيم. تمتلئ الدار بأبناء الراحل وأحفاده، حتى عائلة الحاجّ أمين السماعني لبّت دعوة



Twitter: @ketab_n

الأب، كي تتشارك في الوليمة. نحرت جملاً قاعودًا أمام دار أبي اليزيد، فَرْحة بالحفيد. يظهر قدر طه عند السنغالي. يراه الجميع وهو يدور عليهم، حاملاً صواني الطعام وأباريق المياه بنفسه، وهو الشيخ الوقور. يخدمهم وكأنّ أحد أبنائه هو من سيذهب إلى الجامعة بعد شهور كي ينال شهادة، لا يعرفون منها سوى أنّها شهادة عالية، يحصل عليها أبناء الأغنياء والوجهاء.

تعمّ الفرحة القرية كلّها، ودار أبي اليزيد للمرّة الثانية. لكنّها لم تسلم من غمامة حسد، تكمن في صدور إخوة الشقّ القبلي وجماعة فهيمة. أورثوا أبناءهم الحقد من كثرة السخرية منهم. فشلهم في مراحل تعليمهم أثّرت على ضمائر الصغار. المقارنة بينهم وبين أبناء عبد الحميد وبنات خليفة وحامد أتت بعكس ما كان يتوقّع الآباء. لم يلقِ الشيخ عبد الحميد بالاً بما تبوح به أعين الحاسدين، رغبة منه في بقاء الليلة صافية من دون كدر ينغّص عليه فرحته. تنتهي الليلة بعد العشاء بقليل. يغادر الزائرون. ويهجع أصحاب البيت إلى مخادعهم، إلّا عبد الحميد وابنه طه والسنغالي. يحاول الأب أن يثني ابنه عن الالتحاق بمدرسة الحقوق، فهو يعلم ارتباطها بمشاكل وصراعات لا تنتهي، منذ أن كان يدرس في الأزهر الشريف. يخشى عليه أن يكرّر الزمن فعلته مع ابنه كما فعلها معه في الماضي، يخشى أن تلهيه السياسة والمنازعات في برّ مصر عن دراسته. يستنجد بالسنغالي كي يقف في صفّه. يرى السنغالي نظرات الفتى إليه، تترجّاه أن لا يوافق أباه على رأيه، فيطلب من الأب والابن أن يتريّثا، طالما كان الوقت في صالحهما، وإن لم يتّفقا، فستكون الكلمة الأخيرة لطه إن لم يقنعه عبد الحميد بوجهة نظره. يغادر السنغالي، بعد أن دسّ في يد طه رزمة من النقود. يربت على كتفه قائلاً:



Twitter: @ketab_n

ـ هذه نفحة لنجاحك.. اشترِ بها ما يليق بأوّل قاض لنا في عائلة أبي اليزيد.

يغمز بعينيه إلى عبد الحميد، فيضحك الأب وقد غُلِب على أمره. يشيّع صاحبه إلى باب الدار، ثم يرجع إلى ابنه باسمًا وهو يقول:

ـ قضي الأمر يا طه.



Twitter: @ketab_n

# نبتة القمح

«عصّارة المرحوم أبي اليزيد»... كلمات كُتبت بالجير الأخضر، أعلى البوّابة الخشبيّة. لم يشأ السنغالي أن يضع اسمه على مكان يعرفه القاصي والداني. فالطاحونة منذ القدم مقترنة باسم الحاجّ أبي اليزيد. حتى بعد أن تبدّلت إلى عصّارة كبيرة. تخدم جميع مزارعي قرية «بهجة» ونواحيها من القرى المجاورة. أضاف ماكينة عصر أخرى، وبنى حجرات لطهي «الخام»، حتى لا يرفض طلبات مزارعي القصب، ممّن يأتون إليه من كلّ مكان. ذاع صيت السنغالي، وأمانته، بحكايات يتناقلها البسطاء من الفلّاحين عن كراماته. يتحجّجون في أحيان كثيرة للقياه، والجلوس معه في عصّارته، يتعلّلون برغبتهم في الاتّفاق معه على توريد محاصيل سنين قادمة من القصب. يعلم السنغالي ما في خواطر زائريه، يعتذر بلطف لهم في بعض أحيان. ويتبسّط معهم في الكلام ويدعوهم لشرب الشاي في أحيان أخرى. يتطرّقون معه لحكايات ومشاكل، يجدون حلّها فيما بين كلماته ونصائحه. لا تخلو العصّارة من زائر أو ضيف، يستأنسون بحديثه وهو يجلس بينهم على



Twitter: @ketab_n

«دكّة» من جريد النخل، مرتديًا جلبابه الأزرق، يعتمر فوق رأسه فارُقيّة من الفرو البنّي. يرتديها صيفًا وشتاء بعد أن اعتاد رأسه الأصلع عليها.

يستأذن الحاضرون عند دخول الشيخ عبد الحميد إلى العصّارة. يلقي السلام عليهم، فينهض السنغالي مرحّبًا بصديقه. يفترش الدكّة بجواره، يخبره بأمر أرض للبيع في أوّل زمام القرية، ورغبته في شرائها هو وعبد الرحيم وأخواه. حامد وخليفة، كي يحفظ مال أخيه الغائب في قطعة أرض، يزيد سعرها مع مرور الزمن، ولكنّه يريد منه أن يشاركه في تلك الأرض، فسعرها مرتفع، ومساحتها كبيرة تقدّر بأحد عشر فدّانًا، ولن يقدروا على تحمّل ثمنها. ينصت السنغالي إلى صديقه، ثم يعرض عليه أن يدفع باقي ثمن ما يعجزون عنه، ويسدّدون له ما دفعه فيما بعد.. فهذه البيعة لأبناء أبي اليزيد. يضع عبد الحميد كوب الشاي بجواره، يسأله وهو يمسك من دون جدوى بضحكة أفلتت منه: إن كان بعد كلّ تلك السنوات لم يعلم بأنّه أحد أبناء أبي اليزيد؟ لقد خانه ذكاؤه، وهو لم يلحظ أنّه أصبح واحدًا منهم منذ حياة أبيه.

ـ غلبتني في تلك المرّة يا شيخ عبد الحميد...

يسأله السنغالي عن عبد الرحيم. فيطأطئ عبد الحميد رأسه وقد بدا الحزن عليه، فقد طالت غيبة أخيه. لا يعلم كم مرّ عليه من طول سنوات بقائه في بلاد الخواجات.

ـ لا تغتمّ يا أبا طه، فلربّما يأتيك نبؤه قبل أن تقوم من مكانك هذا.

يدخل طه قبل أن يردّ الشيخ عبد الحميد على السنغالي. يحمل في يده خطابًا من عمّه أتى به ساعي البريد منذ قليل.. ينظر عبد



Twitter: @ketab_n

الحميد إلى السنغالي وقد ارتفع حاجباه. يبتسم في وجهه، ويفضّ الخطاب. يقرأ ما فيه بصوت عال.. يصْدق السنغالي فيما أخبره به، فميعاد رجوع عبد الرحيم بعد ثلاثة أيّام من تاريخ الخطاب.

ينتشر الخبر في الدار الكبيرة. تدبّ الحركة في جنباتها. يكنّسون البيت، ويغسلون سجاجيد ومفارش المنضاد، يطلون جدرانه بالجير الأبيض المنقوش بورقات شجر خضراء، يشترون مصابيح جديدة، ويلمّعون الأباريق النحاسيّة... يستعدّون لوليمة أخرى. فمظاهر الفرح لا تكتمل إلّا بجمع العائلة على موائد الطعام. يفصل عبد الحميد غرفة من غرف الشقّ البحري، كي تكون منامة لأخيه عبد الرحيم، الآتي من بلاد بعيدة، ستكون قد غيّرت فيه الكثير، فلربّما تعوّد على حياة مختلفة عن حياتهم. يتذكّر عبد الحميد شعوره عندما كان يدرس في الأزهر الشريف، وكيف أبهرته نظافة وإنارة شوارع القاهرة. فلم تكن تختلف عن مدن الأجانب. فهم من بنوا تلك البيوت المنتظمة الراقية ومهّدوا الشوارع. كانت طرقاتها تُغسل كلّ يوم. أناروها بمصابيح تضاء طوال الليل. لقد اعتاد هو على تلك الحياة النظيفة، طيلة أربع سنوات، أنسته رائحة الغبار، وروث الماشية المنتشر في دروب القرية، حتى طعم الماء، المتفجّر من طلمبة تأتي به من باطن الأرض بحركات تُجهد اليد، يختلف عمّا ينساب من صنبور، تديره بسهولة، يمينًا أو يسارًا. أيعتاد النوم بعد صلاة العشاء والاستيقاظ عند الشفق الأحمر كلّ يوم؟ أيرجع إلى استخدام «الكوز»، وحلّة النحاس المملوءة بالماء الساخن على الكانون كي يستحمّ، بعد أن عرف كيف يقف تحت مصفاة دائريّة صغيرة، يتساقط منها المطر ساخنًا في الشتاء، باردًا في الصيف؟ أينسى صوت العربات وهي تسير على عجلات؟ ودبيب حوافر أحصنة، تجرّ «الكاريتات» في طرقات معبّدة بحجارة من الطوب



Twitter: @ketab_n

الإنجليزي الأسود اللامع؟ أيحتمل هدوء الليل المميت، وصياح الديكة عند الفجر؟ ونهيق البغال عند خروجها من الدار؟ كلّ ذلك راود عبد الحميد وهو يعدّ مكانًا مناسبًا لأخيه. لا يريد عبد الحميد أن يملّ أخوه ويسافر مرّة أخرى، فقد أجهده حمله الثقيل.. ويرغب أن يحمل معه ولو جزءًا منه، فليعدّ له ما يريحه قدر استطاعته، وقدر ما هو متاح.

وفي اليوم المرتقب، وعلى رصيف طويل في كلا الاتّجاهين، تفصلهما قضبان السكّة الحديد. يتراكم التراب عليه إلّا من شجيرات متباعدة، تنتصب بينهم مظلّات خشبيّة مقوّسة، تحمي المسافرين من حرارة الشمس. تقف فرقة من الرجال، يحملون المزمار والربابة. يتوسّطهم رجل نحيف، يعلّق حول رقبته حبلاً غليظًا، تتدلّى منه طبلة ضخمة، ويمسك عصا في يده اليمنى. يحيط الجمع بعبد الحميد وإخوته، في انتظار القطار القادم من القاهرة. وقبل أن ترى أعينهم من بعيد تلك السحابة السوداء، يسمعون صوت الصفير الحادّ، إيذانًا بدخول القطار إلى محطّة قرية «بهجة»، وبداخله عبد الرحيم، القادم من بلاد أهلها ذوو بشرة بيضاء، وشعور صفراء. يرتدون ملابس ثقيلة من فرو الدببة، تحميهم من ثلوج لا تتوقّف عن الهبوط عليهم معظم أيّام السنة.

يقف القطار موازيًا للرصيف، وصوت احتكاك المكابح المزعج يصمّ الأذان ويجعل الأسنان تجزّ على بعضها بعضًا. يهبط من إحدى عرباته رجل في منتصف العقد الرابع، يرتدي بدلة بيضاء، يعلوها معطف أسود، ممشوق القوام، قمحي اللون.. تتناثر شعيرات بيضاء بين شعره الخفيف الأسود. يهرول إليه عبد الجميد بمجرّد أن وطأت قدماه الرصيف، يفتح له ذراعيه، يحتضنه وقد اغرورقت عينا عبد



Twitter: @ketab_n

الرحيم بالدموع، تسقط من يديه حقيبتان خشبيّتان، مكسوّتان بالجلد الرمادي على الأرض ـ يسرع بدوره فاتحًا ذراعيه هو الآخر. يغيبا عن تلك الأصوات المحيطة بهما، فلا صوت المزمار الصعيدي ولا قرع الطبول أو صوت الربابة تجد طريقًا إلى أذني الأخوين. يلتفت الخارجون من جوف القطار إلى تلك الجماعة بمزمارها وطبولها، تعمّ لحظات صمت عميق، لم يشعر بها سوى الأخوين المتعانقين. لم ينتشلهما من صمت يلفّهما إلّا صوت حامد وخليفة، يرحّبان بأخيهم، محتضنين إيّاه، يقف أبناؤهم خلفهم من دون حراك، يتأمّلون بدهشة وخجل إلى ذلك القادم الغريب. فهم لم يروه طيلة حياتهم، بمظهره الإفرنجي الواضح على ملابسه، بالرّغم من ملامح بشرته ووجهه المتطابق مع ملامح أبيهم، وتلك الأنف الغليظة التي تميّزهم جميعًا.

يلتفت عبد الرحيم إلى الشباب الصغار المحملقين فيه، يدنو منهم. يتفرّس ملامحهم، فترتسم على وجهه ابتسامة كبيرة ممتزجة بالدهشة.. يتفحّص وجوههم قائلاً:

ـ إنتو ولاد عبد الحميد! صحّ؟

يتقدّم طه من الصفّ. يمدّ يده كي صافح عمّه قائلاً:

ـ أنا طه يا عمّي.

ويشير الشابّ إلى باقي إخوته وأبناء عمومته. يقدّمهم إلى عمّه اسمًا اسمًا. ينقضّ عبد الرحيم عليهم، متجاهلاً يد طه. يفتح ذراعيه على اتّساعهما ويضغط أجسادهم الشابّة في صدره. يرى بنيتهم الصغيرة، تذكّره بقوامه وإخوته عندما كانوا صبية وشبابًا صغارًا. يشير خليفة إلى سائق «الكارتة» كي يحمل حقائب عبد الرحيم. يسير الإخوة وحولهم أبناء عبد الحميد، يقبع في ذيلهم حاملو الحقائب، تتقدّمهم



Twitter: @ketab_n

فرقة المزمار بصخبهم، يلفتون أنظار كلّ من في محطّة القطار، فيفسحون لهم الطريق.

تترجّل الفرقة من عربة «الكارتة»، ويبدأون في تجهيز أدواتهم مرّة أخرى أمام دار المرحوم أبي اليزيد، حتى إن وصل الركب، يعلو صوت العزف مرّة أخرى. ينتصب الجميع أمام البيت الكبير. ويخرج باقي الصبية والفتيات الصغيرات من الدار عند سماعهم صوت الصخب المصاحب لقدوم عمّهم، يسلّمون عليه من دون أن يعرف هو اسم أحد منهم، فهم قد أتو إلى الدنيا في غيابه.. يأتي أهل درب الرجولة. فالضجّة وصلت مظاهرها حتى ديارهم. يفاجَأوا بعبد الرحيم. ويتأمّل هو وجوههم. يتذكّر من كانوا زملاءه في الدارسة الابتدائيّة والبكالوريا. يسأله أحدهم باستحياء:

ـ إنت عارفني يا دكتور عبد الرحيم؟

ـ طبعًا عارفك يا عزيز.. إنت كنت معايا في المدرسة.. وإنت يا سعد، وده قلادة...

يشير إلى كلّ واحد منهم ذاكرًا اسمه، يصافحه، وكأنّ وجوههم لم تغيّرها أفعال الزمن السعيدة والحزينة منها. يهدأ الشارع بعد انصراف جماعة المزمار، فيدعو عبد الحميد جيرانه غدًا إلى مأدبة طعام، فرحة برجوع الدكتور عبد الرحيم.

ـ يجعله عامر.. وحمد الله بسلامة الدكتور!

يتجمّد عبد الرحيم عند أوّل خطوة يخطوها داخل بيت أبيه، يلتفت يمينًا ويسارًا. يجد كلّ شيء قد تغيّر، تلك الدار التي كثيرًا ما جلس مع أبيه في صباتها، والغرف التي لم تكن محظورة على أحد، تبدّلت وتغيّرت. اختفى بعضها، وظهرت أخرى مكانها. بنيت جدران



Twitter: @ketab_n

وهُدمت جدران أخرى. تستقبله زوجات إخوته، تخفي كلّ واحدة منهنّ نصف وجهها بوشاحها الأسود الشفّاف. تمدّ يدها اليمنى الملفوفة بباقي الوشاح. تسلّم على أخي الزوج القادم من بلاد الأجانب. يشخص عبد الرحيم ببصره ناحية جدار الشقّ القبلي، حيث ما كان فيما مضى مكان أبيه وغرفته، جلس بين قدميه في تلك الغرفة في آخر يوم له، قبل أن يسافر ولا يراه بعدها أبدًا. يشعر عبد الحميد بما في صدر أخيه، يحاول أن يلهيه فيقوده إلى منامته. أعدّها له عبد الحميد حتى يستريح من سفره. يستعدّ بعدها لجلسة طويلة، يحكي له ما حدث أثناء غيابه. يعجب عبد الرحيم بغرفته المتأنّقة البسيطة، يغلق عينيه فيشمّ رائحة تراب الدار، المعبق بروث البهائم والطيور، ورطوبة الندى تشبع الهواء. ليال طويلة قتله الحنين فيها عندما كان يبكي في غربته، كي يشعر بما في صدره الآن ولو لثوان. يرتاح بال عبد الحميد وهو يرى أثر ما فعله على أخيه. فقد كان يخشى هاجسًا أرّقه، ودفعه إلى تأثيث وتجديد الغرفة الخاصّة بعبد الرحيم، فيحمد الله في سرّه. يطلب منه عبد الرحيم زيارة قبر والده في مدافن العائلة في الصباح الباكر. يدلف طه بصينيّة الطعام إلى عمّه، ويغادر مع أبيه من دون كلمة. يتناول لقيماته على عجل.. يقفز من مقعده، وسعادة تتملّكه، وهو يمسك بإبريق يصبّ الماء منه في الطست النحاسي. يغتسل ثم يدسّ جسده في الفراش. يغطّ في نوم لم يجرّبه من قبل!



Twitter: @ketab_n

# الأيّام الأولى

تمتلئ مندرة دار أبي اليزيد بأفراد عائلته جميعًا، وبعض رجال الدرب يلبّون دعوة الشيخ عبد الحميد وأخيه الدكتور عبد الرحيم. بعد أن رجعا من زيارة قبر الأب، وقراءة الفاتحة على روحه وعلى أموات الأهل، يرى عبد الرحيم الشيخ أحمد السنغالي وابنيه لأوّل مرّة. فقد سمع عنه من أخيه كثيرًا. يراقبه خلسة وهو مندهش من الاحترام والرهبة اللذين يعامله بهما الجميع. يقدّمه عبد الحميد إليه كأخ لهم، كما كان يفعل أبوهم. تخلو المندرة من مدعوّيها عند وقت العصر بعد انتهاء وليمة اشتركت في إعدادها جميع نساء الدار، حتى قاطنو الشقّ القبلي، لأوّل مرّة، منذ سنوات طويلة. يهجع الجميع في قيلولة الصيف الحارّ، بعد امتلاء البطون وتجرّع أكواب الشاي الأسود. يحمل عبد الحميد مظلّته كي تحميه وأخيه من أشعّة الشمس. يذكّر أخاه بشجرة النبق بجوار الساقية في أرضهم. يتّجه الاثنان إلى مكان اعتادا الجلوس فيه وهم صغار، يمرّان بفلّاحين



Twitter: @ketab_n

منكبّين على أرضهم، يسقون ويغرسون ويحرثون، يسلّمون على عبد الحميد، وينظرون باستغراب إلى مرافقه. نسي أهل القرية عبد الرحيم.. فالسنوات الطويلة تفعل بذاكرة البشر الأفاعيل!

يستند عبد الرحيم بظهره إلى جذع الشجرة العتيقة، يجلس قبالة أخيه، يحكي له عبد الحميد كلّ شيء. منذ أن سافر في بعثته، وعن أحمد السنغالي، الذي رآه اليوم. لم يستطع عبد الرحيم أن يخفي دهشته وحيرته واهتمامه، وهو يستمع إلى حكاية السنغالي. لم يقاطع عبد الرحيم أخاه طيلة جلستهم سويًّا، فقد أسعده قليلاً ممّا سمعه، وأحزنه كثيرًا منه. لم يدرك أنّ الحال يمكن أن يصل بإخوته غير الأشقّاء إلى أن يطلبوا تقسيم كلّ شيء، حتى الدار التي يسكنونها. لم يفهم سببًا لذلك الجفاء، وتلك النظرات الباردة الواضحة على الجميع في يومه الأوّل معهم. تعجّب من جبروت أخته فهيمة، وغباء إخوته وخضوعهم لها، وانقيادهم لما حاكته، وهم يعرفون أنّها ضيفة ستغادرهم إلى بيت زوجها. يتبدّل الحنق إلى شفقة، عندما يعلم بسقوطها من سقيفة الدار، تتحطّم عظمة عِجزها. احتار الأطبّاء فيها، ولم يستطيعوا علاجها. فلا جبر الكسر ولا الأدوية تصلح في حالتها. فقدت أعضاؤها القدرة على الحركة، وعلى التحكّم في قضاء حاجتها. أصبحت كالطفل، توضع له الأقمطة كي يقضي حاجته فيها. تنكسر روحها وهي ترى علامات الشفقة، ثم الاشمئزاز، ممّن يخدمونها مرّة ولا يعودون لها ثانية. تسمع دعاء بناتها كي يرحمها الله، ويرحمهنّ من شقائهنّ معها. يصف له عبد الحميد حالها في آخر مرّة زارها. احتمل رائحة غرفتها القابض.



Twitter: @ketab_n

يرى جسدها ممدّدًا على ملاءة سرير ملوّث بفضلاتها. برزت عظام وجهها وجحظت عيناها من محجريهما. لم تتحرّك طيلة ساعة قضاها معها. لم يسمع منها سوى كلمة «سامحوني». فعيناها ولسانها فقط هما ما يدلّان على دبيب الحياة في جسدها. وصوت يخرج كلّ برهة من مؤخّرتها، يعقبه رائحة كريهة، تمنّى لحظتها لو لم يأتِ إليها. يرى من كانت في يوم من الأيّام ترتجّ الأرض تحت قدميها، وتملأ الدنيا صياحًا وصراخًا بصوتها العالي. يخرج من غرفتها وقد ملأت الدموع عينيه. لم يحتمل ما رأى منذ قليل، فأخرج ما في جوفه خارج باب غرفتها. يجد بناتها في جنبات الدار، يلهون مع أطفالهنّ أو يخبزن ويطهين الطعام. يلتفتن إليه وكأنّ شيئًا لم يكن، فهنّ اعتدن على ذلك ممّن يأتين لزيارتها. ينظر إليهنّ. يتحشرج صوته وهو يخبرهنّ بأنّ ما تركنها داخل ذلك القبر، ويتمنّون الموت رحمة لها، كانت في يوم من الأيّام تمسح مؤخّراتهنّ وهي سعيدة، تدعو لهنّ الله بالحياة المديدة. يغادر من دون أن يزيد بكلمة أخرى، وصورة أخته البدينة بجسدها المعافى، تختفي ببطء أمام تلك العظام المكسوّة بالجلد المتشقّق التي رآها منذ قليل.

يأتي عبد الحميد ببرّاد من الصاج، وقمع السكّر من «عشّة» بجوار الساقية. يملأ البرّاد من مائها، ويشعل أعواد الحطب الجافّ. يعدّ كوبين من الشاي الأسود، ويكمل حديثه إلى أخيه، وما آل إليه أبناء أبي اليزيد. يشير إلى قضبان من الحديد منغرسة على أطراف الأرض البعيدة، فهي حدود أرضه وحامد وخليفة، وما



Twitter: @ketab_n

خلفها فهي أرض لإخوته من الشقّ القبلي، يسأله إن كان لاحظ تلك النظرات والابتسامة الصفراء على وجههم اليوم، وذلك الجفاء وكأنّهم أغراب، وليسوا من أهل الدار! لم ينتظر إجابة من عبد الرحيم، بل أكمل حديثه وهو يرتشف من كوب الشاي الساخن بصوت عال.. فحكاية أخيه قناوي لا يستطيع عقل أن يتخيّلها. بعد سنوات عديدة لم يرزق فيها بأطفال، يقرّر قناوي الزواج من أخرى بعد وفاة أبيهم. فقد كان يخشى غضبة الأب إن هو تجرّأ على الزواج ثانية. فكيف له أن يأتي بامرأتين في دار هو ليس بسيّدها. يضحك عبد الحميد بهمّ وغمّ. يبوح لعبد الرحيم بالسبب الحقيقي وراء غضب الأب من فكرة زواج قناوي مرّة أخرى. أخبره الراحل أبو اليزيد في إحدى المرّات سبب اعتراضه. فقد كان يخشى أن يأتي له بأحفاد مثل أبيهم.... «البغل الحرون».... كما كان يطلق على قناوي. رأى أبو اليزيد وسمع الكثير في حياته، خبرته أنبأته بوجود نطفة في كلّ عائلة، ستلوّثها بعارٍ خفي لن تدركه إلّا الأجيال القادمة. ولكنّ الله أصاب عائلته بنطفتين. ولم يندم على خِلْفة سوى اثنتين... قناوي وفهيمة.

تنجب زوجة قناوي الثانية ولدًا، وفي العام نفسه تنجب الزوجة الأولى بنتًا، ولكن من لم يرضَ بقضاء الله يرى العجب! ولدت الطفلة بكماء صمّاء، ولم يدركوا ذلك إلّا عندما لاحظوا عدم استجابتها للأصوات المحيطة بها. وكما كان يردّد المرحوم «الفقر له ناس يعرفها»، فقد أصابت الولد حمّى بعد أشهر من ولادته، تلهب الحرارة جسده، حتى غلى مخّه داخل رأسه. يحتار الأطبّاء في



Twitter: @ketab_n

علاجه. يخبره أحدهم بأن لا يجهد نفسه، فإبنه سيبقى هكذا طيلة حياته، ينمو جسده ويبقى عقله كطفل رضيع.

يتملّك الكرب من عبد الرحيم. يرى ما آل إليه حال إخوته. يشعر بأبيه يجلس بينه وبين أخيه، ينظر إليهما ويسمع. يتردّد صوت الأب في عقل عبد الرحيم كهاتف من عالم آخر. يطلب منه أن يريح أخاه عبد الحميد، ويحمل عنه حملاً ناء به ظهره، طيلة سنوات ماضية. يسأله عمّا سيفعله، بعد أن عرف ما أصاب عزوة طالما حاول قدر جهده طيلة حياته، أن يثبّت أقدامها في تربة العلم، والسطوة، والنفوذ. ينتبه إلى صوت عبد الحميد. يخبره عن تلك الأرض التي اشتراها لهم على حدود القرية، فيمكن أن يؤجّرها، أو يبيعوها. سيربحوا منها أضعاف ما دفعوا فيها وشريكهم السنغالي. يسكت عبد الرحيم قليلاً. ينظر إلى ما يحيط به من زرع. ثم يفاجئ أخاه برغبته في الجلوس مع هذا السنغالي. فينهض الأخوان إلى دار الشيخ أحمد، بعد أن هبط الظلام وغطّى تلك البيوت، إلّا من وميض لمبات الجاز المهتزّة، تخترق فرجات الأبواب الخشبيّة المتهالكة. يمرّ الأخوان على البيوت الساكنة في طريقهم إلى بيت السنغالي. ينقر عبد الحميد على الباب، فيأتيه صوت السنغالي. يفتح البوّابة الخشبيّة. ويرحّب بضيفيه، بعد أن انتظرهما في المسجد لدعوتها إلى داره. يمدّ يده مصافحًا صديقه وأخاه قائلاً:

ـ لقد انتظرتكما في المسجد بعد صلاة العشاء.

ـ لقد لبّينا الدعوة يا شيخ أحمد.

يدلف الثلاثة إلى صباط الدار. ويرحّب السنغالي بعبد الرحيم



Twitter: @ketab_n

في ودّ واحترام. يتأمّل عبد الرحيم ملامح هذا الرجل النحيف، وهو يصبّ لهم الشاي. ويضع طَبَقًا من حلقات الكعك أمامهم. يذيب اللقاء والكلام فتورًا بين عبد الرحيم والسنغالي بعد فترة قصيرة من الحديث، ففراسة عبد الرحيم موروثة من أبيه الراحل أبي اليزيد. وسماحة السنغالي بادية على وجهه، وحركات جسده، فذكاء البداوة واضح في عينيه وأفعاله.

ـ سمعت عنك كثير يا شيخ أحمد... حصلت لينا البركة.

ـ الله يبارك فيك يا دكتور.

ينتهي أوّل لقاء يجمع بين السنغالي وعبد الرحيم. شيء حيّر عبد الحميد منذ أن طلب منه أخوه مقابلة السنغالي. فهناك إذًا خطب ما، يدور في رأس عبد الرحيم. ينتبه عبد الحميد على سؤال أخيه عن طه، وما ينوي فعله بعد أن أتمّ مرحلة البكالوريا. يعدّل عبد الحميد عمامته على رأسه. يحكي له ما حدث في السابق معه، فالتاريخ يُعيد نفسه مرّة أخرى، فإبنه سيذهب إلى القاهرة كي يدرس القانون، وهو لا يرغب أن يتركه في بلد بعيد من دون زوجة. يفكّر في أن تكون «راوية» ابنة أخيهم خليفة زوجة لطه، فهى الأنسب له، ولكنّه لم يفاتح أحدًا بالأمر إلى الآن، حتى زوجته رُقيّة. يربت عبد الرحيم على كتف أخيه، فهو قد اختار الأصوب والأفضل، فطالما كان خليفة منذ الصغر قريبًا منهما في طباعه وأخلاقه، ولكنّه يجب أن يعدّ لهذا الأمر من الآن. فلم يبق سوى أسابيع معدودة على بدء الدراسة. وعليه أن يسرع في أمر الزواج قبل أن يسافر طه إلى القاهرة.



Twitter: @ketab_n

ـ أنا مسافر أوّل الأسبوع القادم، أشوف شقّة إيجار لطه وراوية....

يقاطعه عبد الرحيم وقد علت قهقهته مندهشًا، فكيف له أن يرتّب كلّ هذا من دون أن يخبر من لهما الأمر بما يخطّط له! لن يرفض خليفة بالطبع تلك الزيجة، ولكنّ الأمر يحتاج إلى إعداد. فالزفاف ليس بالأمر السهل، وتجهيز الابن والابنة يأخذ وقتًا طويلاً، يجب أن يفكّر فيه، قبل أن يبحث عن سكن لهما في مصر.

ـ عندك حقّ يا عبد الرحيم... الفرحة بتخلّي الواحد يفكّر بالمقلوب!

يطمئنه عبد الرحيم، وليترك له أمر إقامة الصغيرين في القاهرة. ينوي عبد الرحيم شراء بيت بجوار الجامعة، فقد أرسل أوراقه إليها، كي يعمل بها محاضرًا في بعض الأيّام. وسيكون هذا أفضل لراوية وطه، حتى يصبح هناك مسكن دائم للمستقبل. فلعلّ طه يسلك طريق القضاء، ويكون نصيبه العيش في مصر بعد أربع سنوات من الدراسة. يدلف الأَخَوان إلى الدار، وقبل أن يذهب عبد الرحيم إلى غرفته، يطلب من أخيه أن يوقظه قبل الفجر. فهناك أمر يلحّ عليه، ولا أنسب من وقت السحر للحديث معه فيه. يعلم عبد الحميد ما يشعر به عبد الرحيم من أسى، حاول إخفاءه منذ قدومه دون جدوى.. فهو الأقرب إليه.

يحمل عبد الحميد الإفطار لأخيه في غرفته. يتحدّثان سويًّا فيما يؤرقه. يبدأ عبد الرحيم حديثه عن أوّل مدرسة شُيّدت في قريتهم عام ١٩٢٩ على الطراز الإنجليزي، كانت المدرسة الوحيدة في



Twitter: @ketab_n

المديريّة بأكملها. بناها البرنس القبطي، بعد أن اجتمع بأعيان وأغنياء مسيحيي القرية، يصارحهم برغبته في عمل يستفيدون منه، يشيرون عليه ببناء كنيسة كبيرة، يصلّون فيها وتسعهم في احتفالاتهم وجنائزهم. وعوضًا عن الكنيسة الصغيرة يبني كنيسة العذراء، وأيضًا تلك المدرسة التي تحمل اسمه حتى الآن. كان ردّه عليهم أنّ الكنيسة ستخدم أهله من المسيحيين فقط، أمّا المدرسة فستكون لأهل القرية جميعًا، يشيد بعدها مدرسة تحمل اسم ابنته منيرة، خاصّة بتعليم الفتيات في المرحلة الابتدائيّة. يحكي عبد الرحيم لأخيه عن تلك المدرسة، فحكايتها يتحدّث بها جميع أهل قرية «بهجة»، وكيف راودته فكرة مماثلة منذ أن كان في الخارج. فلا أفضل من أن يفكّر الإنسان فيمن حوله، يقدّم لهم المساعدة حتى وإن كانوا لا يرغبون في مساعدة أنفسهم. فعقولهم المحدودة تأثّرت بحدود قريتهم، فتمنعهم عن التفكير بطريقة صحيحة. ينصت عبد الحميد باهتمام إلى أخيه. يفصح عبد الرحيم عن رغبته في إنشاء مصنع للخشب يستفيد فيه من مخلّفات العصّارات من «المصّاص». يجمع في مشروعه شتات عائلة أبيه، فلا علاج لهذا التنافر الواضح على الآباء سوى باقتراب الأبناء بعضهم من بعض. ينسون ما دسّه الكبار في عقول أبنائهم. يجدون هدفًا يجتمعون عليه، ويستفيد الجميع منه. ويبقى للأب الأكبر ما أراد... عزوة قويّة يحمل الجميع فيها لقبه.

تحمّس كلمات عبد الرحيم أخاه في البداية. فأرضهم الجديدة قابعة في أوّل زمام قريتهم، والموادّ الخام يستطيعون جمعها بسهولة



Twitter: @ketab_n

من عصّارات القرى الأخرى، إن لم تكفهم عصّارة السنغالي. يصمت عبد الحميد قليلاً، فمشروع كهذا يحتاج أموالاً، ربّما لا يستطيعون تدبّر أمرها بسهولة. وتوقيعات على أوراق يجب عليهم أن يعرفوا طريقها عند ذوي السطوة والنفوذ. حتى لا يدورون في ساقية لا تنتهي بشيء في النهاية سوى الإحباط، وإهدار مالٍ للإنفاق على أمر لا طائل منه.

ـ كلّ شيء له حلّ يا عبد الحميد.

يتثاءب عبد الرحيم عند بزوغ أوّل ضوء للنهار. يتركه أخوه كي ينام قليلاً بعد سهرة طويلة. يستيقظ بعدها عبد الرحيم عند ما قبل الظهيرة، يدور في جنبات الدار ملقيًا السلام على زوجات إخوته. ينظر بحزن إلى الجدار الفاصل بين الشقّ القبلي والشقّ البحري. أصبح الفاصل مرئيًّا بعد فترة وجيزة من أيّام الانفصال. يمتعض ويشيح بوجهه، يتّجه إلى المندرة، يفكّر في أمور عديدة شغلت باله كثيرًا، يشعل غليونه الذي اعتاد عليه، منذ أن كان في دراسته بالخارج. يسرح بخياله وسط سحابة من الدخان، ورائحة تبغ «البايب» المحترق النفّاذ. ينتبه إلى صوت خفق قدم ونقرات آتية من باب المندرة الداخلي. يطلّ عليه وجه طه، يحمل له الشاي. يبتسم العمّ في وجه الشابّ، ويطلب منه أن يستدعي أبناء أعمامه جميعًا، يسأله طه عن أبناء عمومته في الشقّ القبلي، فيشعر عبد الرحيم بغصّة في حلقه، ومدى اتّساع الفجوة والنفور. شهد عليها منذ قليل في ذلك الجدار الفاصل. يحاول عبد الرحيم أن يخفي المرارة في حلقه وهو يجيب طه بأن يأتي بهم جميعًا. يدلف الصبية إلى



Twitter: @ketab_n

المندرة. بدأت علامات الرجولة تظهر على عضلاتهم وأجسادهم وشواربهم الخفيفة. ينظرون إلى عمّهم باستحياء وحذر، كأنّه ضيف أو غريب عنهم. يجلسون جميعًا إلى الأرض، كما أمرهم. يتوسّطهم متربّعًا وهو يضمّ قدميه ويبسطهما كلّ فترة. فلم يعتد على جلسة الأرض بعد، ولكنّه أراد أن يزيح شعور الرهبة من صدور أبناء إخوته. يسألهم عن أحوالهم في الدراسة وعن رغباتهم، وكيف يرون مستقبلهم بعد انتهائهم من مراحل تعليمهم المختلفة. يتفحّص وجوههم. يكتشف ما في عقولهم. فلم تكن تلك الجلسة سوى محاولة منه لتقييم الصغار. هاله خواؤهم، وتخبّطهم في الحديث، وتلعثمهم وهم يبحثون عن كلمات كي يردّوا بها عليه. لا يعرفون ما سيفعلون، ربّما مصيرهم الأفضل هو البقاء في الحقول وزراعة أرض آبائهم. يتجرّأ ابن شهدي الأكبر، بعد أن اطمئنّ إلى بساطة عمّه، يلقي على سمعه بمَثَل ضجّ الحاضرون بالضحك عند سماعه، حتى عبد الرحيم نفسه. «الفلّاح مهما أكل تفّاح سيتكرّع بصل»، يصدم عبد الرحيم. ولكنّه لم يشأ أن يظهر حسرته أمام أبناء إخوته. ينتهي اجتماعه بهم، وينصرف الأبناء!

يجلس الآباء والأمّهات في غرفهم، ثم يقفون ثم يجلسون، في حيرة وفضول قاتل، ورغبة في معرفة ما يدور بين أخيهم وأبنائهم في المندرة. يحكي لهم الأبناء ما حدث مع عمّهم الأكبر. يزدادون حيرة، وتعجز عقولهم البسيطة عن معرفة الغرض ممّا سمعوه لتوّهم. تزول حيرتهم في المساء، وينكشف لهم ما حيّرهم طيلة نهارهم، وانتهوا معه إلى أنّ أخاهم يتعمّد الكيد لهم والتعالي عليهم وعلى



Twitter: @ketab_n

أبنائهم، فما سرّ ذلك الحديث في وجود طه واهتمامه بمعرفة أحوالهم وأحوال دراستهم؟ يطلبهم عبد الرحيم وقد عزم أمره على تنفيذ فكرة تدور في رأسه منذ الصباح. يتحلّقون حوله كأيّام مرّت منذ زمن، يتذكّرها عبد الحميد وهو يرى أباه في كلّ انتباهة ينظر فيها إلى أخيه. يخبرهم بفكرة مشروعه ورغبته في أن يكون أبناؤهم معه منذ البداية. تلجم مفاجأته أخوته، فلا ينطق أحد منهم. يستمعون إلى باقي حديث عبد الرحيم.. فهو سيتحمّل تكاليف تعليم أبنائهم، إلى أن ينتهي من بناء المصنع. سيعمل الأبناء فيه حتى وإن كانوا ما يزالون في مراحل دراستهم. سيختار لهم مجالاتهم في المدارس المهنيّة كالتجارة والصناعة. والسنوات الثلاث كافية لهم كي يتحمّلوا مسؤوليّات المشروع، وكافية له للانتهاء من بناء المصنع. يخيّم الصمت على الجميع. يترك لهم عبد الرحيم فسحة من الوقت كي يفهموا ما قاله. فقد باغتهم بنبرة حازمة، وجدها الأصلح والأجدى في الكلام مع من لا يعرفون من الحياة سوى الزرع والبهائم والدسائس. لا جدوى من نقاش تفاصيل لن يفهموا منها شيئًا، بل ستفتح بابًا يطلّ منه غباء يعلمه جيّدًا في إخوته، منذ أن كانوا صغارًا. دائمًا ما كان يشبّههم بقوم بني إسرائيل في مجادلاتهم، وسخريتهم ممّا يجهلونه أو يعجزون عن فعله. يوافق الأخوة على ما عرضه عليهم عبد الرحيم. يغادرون إلى شقّهم القبلي، يتدارسون الأمر ثانية. بعد أن أزاغ الحديث عيونهم وعقولهم. أبناؤهم سيكملون تعليمهم في مدارس لا يعرفون ما هي، دون أن يتحمّلوا أيّ مصاريف. سيعملون بعدها في مصنع لا يوجد



Twitter: @ketab_n

مثيله في المديريّات المجاورة. وجود أبنائهم في ذلك المصنع منذ البداية سيثبت أقدامهم في مشروع، ربّما يكون لهم في يوم من الأيّام، مع بقاء عبد الرحيم من دون زواج حتى الآن. يعلم عبد الرحيم ما يدور في خواطر قاطني الشقّ القبلي، ولكنّه يأبى أن يضيّع فرصة لإصلاح خطأ، رأى ظروف أبيه هي من كانت السبب فيه. ربّما للجيل الثاني من عائلته فرصة في استقامة فرعه، عوضًا عن الفرع المائل المعوجّ. ففي النهاية، كلّ الفروع متّصلة بالأصل، حتى وإن تبرّأ أحدها عنه.

يسافر عبد الرحيم إلى القاهرة. يبحث عن بيت مناسب له وللزوجين الصغيرين، القادمين معه بعد فترة. يشتري ڤيلّا من دورين، في حيّ «المنيل» الهادئ المطلّ على النيل، يراه مناسبًا لإقامته، وإقامة أوّل قاض، كما يتمنّى في قرارة نفسه. يبدأ بعدها في استخراج تصاريح وأوراق المصنع الجديد. أجهدته التعليمات والموافقات. أضاع وقتًا لم يحسب له حسابًا ولم يعد إليه بفائدة، بعد مرور شهر كامل قضاها في الدوران على مكاتب جهات لم يسمع بها من قبل. يرجع خالي الوفاض إلى قرية «بهجة»، ففرح ابن وابنة أخويه قد أوشك بعد أيّام قليلة. يجد الدار كخليّة نحل، استعدادًا لأوّل زفاف لأوّل حفيد وأوّل حفيدة. أقيمت لزفافهما وليمة اعتاد عليها أهل القرية، وأهل القرى المجاورة. تحاكى أهل القرية لزمن، عن تلك الفرقة الموسيقيّة، التي أتى بها عبد الرحيم من البندر. يحمل أعضاؤها آلات موسيقيّة غريبة عليهم، فهم لا يعرفون سوى المزمار والطبلة والدفّ والربابة. لم يروا في حياتهم


Twitter: @ketab_n

تلك الآلات ذات الأوتار، تسير عليها عصا رفيعة فتخرج ألحانًا لم يسمعوها من قبل. يقف بينهم رجل يرتدي جلبابًا وطربوشًا أحمر. يغنّي ويلقي بالمواويل المنتظمة على إيقاع الموسيقى، تردّد وراءه جوقة من الفتيات الصغيرات. رقص الجميع، حتى الشيخ عبد الحميد. فرد ذراعيه منتصبًا، يشمّر عن ساعديه، يدور ويتمايل ممسكًا بعصاه، يلوّح بها في الهواء على إيقاع الزمر والطبل في زفّة العروسين. تعلو الهتافات والصياح من الإخوة والمدعوّين.. عندما ينضمّ إليه عبد الرحيم، يبارزه في الرقص. يتمايل وعصاه تنزل على عصا أخيه، فيردّ ضربتها إليه. تنتهي الليلة بدخلة طه وراوية في غرفة بُنيت في ركن من أركان الشقّ البحري. أثاثها الفخم أوصى عبد الحميد بصنعه إلى نجّار في «القيصريّة» بسوهاج. وفُرُشها مغزولة خصّيصًا لابنه من إخميم. ملابس العروس من حرير، حاكته لها خيّاطة شهيرة، لا يعرفها سوى أبناء الباشاوات وأثرياء الوسايا من أسيوط. فيمتلئ صندوقها بملابس تناسب المدينة الجديدة. لم يبخل عبد الحميد وخليفة على الابنة والابن، فهما أوّل فرحتهما. ولم يترك السنغالي للأبوين أن يتأثّرا بصنع البهجة وحدهما، بل أتى بذبائح وقصّابين وطبّاخين لوليمة الزفاف. أنار الشارع من بداية داره ودار أبي اليزيد إلى مسجد السبيل، بمصابيح بيضاء لم يألفها أهل القرى والنجوع من قبل، معلّقة على أعمدة خشبيّة وقمم الأشجار، أحالت الليل إلى نهار يراه السائر من على بعد حدود القرى المجاورة.

يرحل الزوجان الصغيران بعد أسبوع من الزفاف إلى القاهرة،



Twitter: @ketab_n

بعد وداع على محطّة القطار، سالت فيه دموع النساء. لم تلهيهنّ رؤيتهنّ القطار لأوّل مرّة في حياتهنّ عن إلقاء الوصايا في أذن العروس الصغيرة. يستودع عبد الحميد بنظرةٍ إلى ابنه شوقًا رآه سابقًا في عيني أبيه أبي اليزيد. يصحبهم عمّهم عبد الرحيم بعد أن أعدّ كلّ شيء لاستقبالهم. فالدراسة ستبدأ في مدرسة الحقوق بعد أيّام. وإتمام مشروع عبد الرحيم متوقّف على الانتهاء من الأوراق والتصاريح المطلوبة منه. لم يدر عبد الرحيم كيف يتعامل مع موظّفي الحكومة متجمّدي الذهن، لولا زيارة عبد الحميد إلى صديق أبيه ـ التاجر القديم. يسأله الباشا عند رؤيته وهو يضحك إن كان أتى كي يبيعه ذهبًا من الصحراء. يبادله عبد الحميد ابتسامة، ويشرح له مشروع أخيه. يطلب مساعدته في تسهيل الإجراءات والحصول على الموافقات المطلوبة منه. لم يتوان الباشا عن تقديم العون لابن صديقه الراحل أبي اليزيد، فكثيرًا ما خدمه المرحوم في أمور لا يعلمها سواهما. يمهر توقيعه على ورقة، بها توصية إلى مدير مكتب أحد الوزراء بالقاهرة. يُطمْئِن عبد الحميد، وهو يشيّعه حتى باب قصره، يذكّره بألّا ينسى دعوته عند افتتاح المصنع.

علم عبد الرحيم مكانة أخيه وذكرى أبيه عند الباشا. استقبله مدير مكتب الوزير بحماس وودّ مفرطين. وعده بإنهاء ما جاء له بأسرع وقت. يبدأ عبد الرحيم في مشروعه وهو مطمئنّ البال. العمل في الأرض والبناء يتمّ على قدم وساق، بعد جلسة طويلة في مندرة دارهم بينه وبين عبد الحميد. لا يرى عبد الحميد داعيًا لأن يستدين أخوه من تلك الشركة الجديدة، والمسمّاة ببنك مصر. فكيف



Twitter: @ketab_n

لأغراب أن يشاركوهم في مشروع عائلي خاصّ بهم. يحاول عبد الرحيم أن يشرح لأخيه عن هذا البنك، الذي أُسّس منذ أكثر من عشرين عامًا مضت، ولم يسمع به عبد الحميد من قبل، لأنّ الأخبار والأحداث لا تتعدّى حدود العاصمة، والمديريّات القريبة منها بسهولة وسرعة. يستمع عبد الحميد إلى أخيه الأكبر وهو يوضّح له ما يقوم به البنك من تسليف وقبول أمانات، وودائع وبيع وشراء. . . . لم يفهم عبد الحميد أيّ شيء ممّا يقوله أخوه. يسكت عبد الرحيم بعد أن فقد الأمل في إقناعه. فيقترح عبد الحميد أن يبيع نصف الأرض، ويبني النصف الآخر. يرفض عبد الرحيم الأمر تمامًا، فهو لا يرغب في أن يشتري في المستقبل ما يقترح أخوه بيعه الآن. يقطع نقاشهم صوت نقرات على الباب. . يأتيهم صوت السنغالي زاعقًا بصوته الحادّ على صديقه. يدلف إلى المندرة، فينهض عبد الرحيم مرحّبًا به. يجلس ثلاثتهم. يحدّثه عبد الرحيم عن حيرته وأخيه بشأن المصنع، فللسنغالي أيضًا نصيب في أرضه. يستمع لهما باهتمام، حتى إذا انتهوا يضحك السنغالي في وجه عبد الحميد حتى تدمع عيناه، قائلاً:

ـ كيف تشغل بالك بمال أنت تحوزه يا شيخ عبد الحميد!؟ لقد آن آوان ما عندك، لنطهّر به ما بقي في النفوس يا أخي.

لم يفهم عبد الرحيم ما يقصده السنغالي، ينظر إلى أخيه وقد علت الدهشة وجهه. يفرك عبد الحميد شحمة أذنه، فما بقي من مال الذهب القديم القابع في صندوقه منذ زمان يسدّ ما بقي من تكاليف المصنع.



Twitter: @ketab_n

ـ لقد أتى السنغالي بالفرج كالعادة يا عبد الرحيم!

يخبره بأمر المال المحفوظ عنده كأمانة نسيها الصديقان، دون أن يخبره بالتفاصيل. فهي تخصّ صاحبها فقط. يضع عبد الرحيم شرطًا كي يقبل ما عرضه السنغالي. وهو أن يصبح شريكًا لهم في المصنع بحصّته في الأرض والمال معًا. يرفض السنغالي. يصرّ على رأيه، فهذا المال لا يخصّه، بل هو ما تبقّى من دين، لا يعلمه أحد سوى المرحوم أبيهم. يتّفق الثلاثة على رأي السنغالي، بعد مناهدة بينه وبين ولدي أبي اليزيد لم تفلح معه إطلاقًا. يقرأون الفاتحة على ما اتّفقوا عليه. وقد أصاب السنغالي شيئًا في صدر عبد الرحيم. ينتقل امتنان لازم السنغالي سنوات طويلة لأبي اليزيد إلى عبد الرحيم، الذي حفظ صنيعه بدوره طيلة حياته.

لم يشغل شيء آخر بال عبد الرحيم، بعد أن توافر له ما نقص من المال. تمرّ السنوات الثلاث. يشيّد فيها المصنع، ويشرف أحفاد أبي اليزيد على تركيب الماكينات الضخمة الآتية من أوروبا. رافقها المهندسون الأجانب في رحلتها من الخارج. أنهى بعض الأحفاد دراساتهم في مدرسة الصناعة، ولم يتبقّ سوى آخرين في سنواتهم الأخيرة بمدرسة التجارة. صدق ظنّ عبد الرحيم في أبناء أخوته، فرعايته لهم والاهتمام بتعليمهم بدّل أحوالهم وطباعهم. اختفى الجفاء بينهم. تشابهوا من طول فترة اقترابهم من بعض، حتى لا يميّز من يراهم وهم يعملون بهمّة ونشاط في المصنع بين أخ وابن عمّ. أفلح عبد الرحيم أن يبثّ الحذر والخوف في نفوسهم على عمل، يشعرون معه بقيمتهم. يؤدّونه بكفاءة اكتسبوها من دراستهم



Twitter: @ketab_n

وتوجيهات عمّهم الأكبر. يتذكّر عبد الرحيم المثل القديم، فينادي على ابن أخيه شهدي، يسأله إن كان ما زال الفلّاح الذي تعلّم أكل التفّاح يمكن أن يتجشّأ بصلاً! يجيبه الشابّ، وبصره شاخص إلى الأرض، في خجل بدا على احمرار وجهه، تلعثم قائلاً:

ـ لا، يا عمّي.

يضحك عبد الرحيم، ويربّت على كتف ابن أخيه المماثل له طولاً وهيئة. يشير إلى أحد العاملين، كي يخبر الشيخ عبد الحميد بميعاد زيارة صديق والدهم، لدعوته في يوم افتتاح المصنع.



Twitter: @ketab_n

# ليست النهاية

ارتدى السنغالي عباءته فوق جلبابه الصوفي. اعتمر فارُقيّته البنّيّة اللون، وقبع في صباط داره. ينتظر ولديه الحسن والحسين. يخرج إليه ابناه، وقد اعتمرا فارُقيّة تميّزا بها مثل أبيهما، بعد أن تعدّا من العمر العاشرة. فرع طولهما وخطّ الشعر سوالفهما. يذهب ثلاثتهم إلى المصنع مع عائلة أبي اليزيد. فيتلاقى الجميع أمام بوّابة كبيرة وسور مرتفع وأشجار تحيطه من كلّ جانب. يستقبلهم طه وهو يمسك بيده ابنته الصغيرة ذات الأعوام الثلاثة. فهو لم يشأ أن يغيب عن احتفال يضمّ العائلة، في يوم جعله عبد الرحيم مشهودًا بمفاجأة أذهلتهم. أتى الباشا بحاشيته. فأضافت فخامة ورهبة للمكان. حضوره شيء حرص عليه عبد الحميد وأخوه، فلولاه ما كان المصنع موجودًا. امتلأت ساحة المصنع بأهل القرية. فالجميع لبّى دعوة أبناء أبي اليزيد.

يقف ثمانية رجال متشابهة الهيئة، خطّ الزمن بلونه على



Twitter: @ketab_n

شعورهم البيضاء، وحفر تجاعيد غائرة على الوجوه السمراء. ينتصب بينهم تسعة أحفاد ذكور، تتقارب أعمارهم وبنية أجسادهم الفتيّة. يراقب السنغالي الآباء وهم مشدوهون إلى هذا البناء الضخم. ينظر إلى الأحفاد، وقد ملأهم الفخر، بإنجاز شعروا أنّ لهم فضلاً فيه. يتقدّمهم عبد الرحيم ببدلته البيضاء وحذائه الموكاسان، وقبّعته الدائريّة تحمي رأسه الصلعاء من حرارة شمس الضحى. يشير إليهم كي يتقدّموا أمام ستارة من القطيفة الحمراء تخفي جدارًا شاهقًا أمام بوّابة المصنع الضخمة، يقف على جانبيها عاملان يمسكان بطرفي حبل، يسحبانه عند إشارة من يد عبد الرحيم. فتنحسر عن لوحة كُتب أعلاها بين قوسين وبخطّ كوفي جميل ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾، تستقرّ أسفلها صورة مرسومة باللونين الأبيض والأسود، لوجه نحيف يحمل ملامح أبي اليزيد.

يعمّ السكون المكان إلّا من صوت حفيف أوراق الشجر، وذهول بدا واضحًا على وجوه الحضور. يضمّ السنغالي ولديه تحت ذراعيه. يشدّ هامته بجوار عبد الحميد. تسري قشعريرة في جسديهما. تنزل دموع لم يلحظها أحد من عينيَّ الصديقين.

**تمّت بحمد الله**



Twitter: @ketab_n

# فهرس

**إهداء** ..... ٥

**الفصل الأوّل** ..... ٧

ـ بداية الرحلة ..... ٩

ـ الشيخ التيجاني ..... ١٤

ـ وطن جديد ..... ٢٤

ـ عابر سبيل ..... ٣٤

ـ نير الثور ..... ٤٢

ـ يوم آخر ..... ٤٦



Twitter: @ketab_n

**الفصل الثاني** ..... ٥١

ـ دهاء العواجيز ..... ٥٣

ـ دنانير السلطان ..... ٦٢

ـ لأولياء الله شؤون ..... ٧٢

ـ كرامة لا تزول ..... ٨٠

ـ احذر الفرح ..... ٨٩

ـ غراب في السماء ..... ٩٤

ـ الأقارب عقارب ..... ١٠٤

ـ الذين ماتوا... أحياء ..... ١٠٨

**الفصل الثالث** ..... ١١٣

ـ و بومة في البيت ..... ١١٥

ـ ذهب يُذْهِب الحال ..... ١٢٧

ـ دماء بدماء ..... ١٣٨

ـ ما بين مريم والأنبياء ..... ١٤٣

ـ حِمْلٌ ثقيل ..... ١٥٥

ـ أوّل الغيث ..... ١٥٩



Twitter: @ketab_n

ـ يا مدد ..... ١٦٨

**الفصل الرابع ..... ١٧٣**

ـ رحلة أخرى ..... ١٧٥

ـ مثل أوّل مرّة ..... ١٨٨

ـ الخير باقٍ فيه ..... ١٩٢

ـ نبتة القمح ..... ١٩٥

ـ الأيّام الأولى ..... ٢٠٢

ـ ليست نهاية ..... ٢١٩



Twitter: @ketab_n

تختفي ابتسامة الشيخ. يطرق ساكنًا مرّةً أخرى، قبل أن يردّد بصوت خافت، كمن يحدّث نفسه، "الأرض... العرض... السماء". يقبض على حفنة من الرمال الصفراء. يضعها في "سرّة" قماشيّة صغيرة. يغلقها بطرف خيط ويقذف بها في حجر الشّاب الأسمر:

ـــــ هذه أرضك.

ثم ينزع خاتمًا فضّيًا من إصبعه، به فصٌّ من عقيقٍ أحمر ، يدسّه في يد الشابّ الأسمر، وينظر مليًّا في إنسان عينيه، قائلاً وقد عادت الابتسامة تزيّن وجهه:

ـــــ وهذا عرضك.

يتنهّد الشيخ التيجاني بارتياح، ترتخي قبضةُ يده وهو يُخرج كتابًا ذا غلاف من الجلد الأزرق السميك، تتوسّطه نجمة ثمانيّة، مزيّنة بخيوط من ذهبٍ، تتداخل فيها زُرقة الغلاف بأشكالٍ سداسيّة مزخرفة. يمدّ يده به قائلاً:

ـــــ وتلك سماؤك، حافظْ عليهم بدمك، فهذه حياتك.

مصطفى موسى

روائي وقاصّ مصري، له ثلاثة إصدارات أدبيّة، ومقالات متفرّقة في مجلّة "أوكسجين" الإلكترونيّة. حصل على جائزة مركز مساواة لحقوق الإنسان في "القصّة القصيرة" عام ٢٠١٢.

تصميم الغلاف نجاح طاهر

دار الآداب

هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-293-1

@ketab_n
Follow Me